سلوى حجازي

[المغترب، مدخل لفهم سيكولوجية الإنسان الحديث]

[اكتب تلخيص المستند هنا. تلخيص المستند عبارة عن تلخيص مختصر لمحتويات المستند. اكتب تلخيص المستند هنا. تلخيص المستند عبارة عن تلخيص مختصر لمحتويات المستند.]

إهداء

إلى أمي الحبيبة؛ مصدر عزتي وفخري، وشمسي المشرقة في هذا العالم المظلم.

الشكر موصول للدكتور ضياء الحق عبدالرحيم، والأستاذ محمد
عبد الظاهر لاطلاعهما على مخطوطة الكتاب وإبداء الملاحظات القيمة.

قائمة المحتويات

المقدمة 5

الفصل الاول: الانسان في بعده الفلسفي.....8

قواعد منهجية لقراءة الفصل.....10

مدخل تاريخي.....12

تشكيل العقل الغربي الحديث..... 22

-النزعة الانسانية 23

-النزعة العقلية..... 27

-النزعة التجريبية 30

-الليبرالية..... 41

-العلمانية..... 52

-الديمقراطية..... 57

-يوتوبيا النهاية..... 63

الفصل الثاني.. الإنسان في بعده الحضاري..... 68

الحضارة والثقافة..... 70

الحضارة في المنظورين العربي والإسلامي وتجلياتها..... 75

العولمة ..الخديعة الكبرى..... 85

المسلم في ظل الحضارة الغربية..... 91

-الغزو الفكري وأساليبه.....95

1- اللغة والهوية 95

2-الاستشراق..... 98

3-التبشير وأهدافه..... 101

4-الحركات القومية والشعوبية..... 106

5- إحياء الهويات البائدة.....108

الغزو التقني.....112

الإسلام والنهوض الحضاري الجديد 114

-المنهج وقاطرة الحضارة.....115

-نحو إعادة احياء المنهج..... 118

1- عدم وضوح البوصلة 118

2-تشتت الأهداف..... 119

3-عدم الواقعية وخلل الاولويات..... 120

4-إدراك الواقع وسقف الممكن.....124

5- الخطط المنهجية.....126

6-الامر الواقع ليس بالأمر الصالح.....128

7- حجم الامكانات المتاحة 132

الفصل الثالث: الإنسان في بعده الاجتماعي..... 136

توطئة: الإنسان والمجتمع 138

انهيار المجتمعات ومسؤولية الأفراد.....141

صناعة المعايير الاخلاقية للمجتمعات الحديثة.....151

المعايير الاخلاقية للمجتمع الحديث.....154

المعايير وأهميتها.....160

عوالم بديلة.....164

الأفكار وقود المجتمعات..... 178

الأخلاق دليل الانسانية.....185

بداية وخاتمة.....191

الفصل الرابع.. الانسان في بعده النفسي..... 199

خديعة الفردوس الأرضي.....201

تجارة الخوف.....206

الحياة العارية ومستقبل الإنسان.....214

الأمان الوجودي.....217

الصحة العقلية للإنسان الحديث.....222

المقدمة

إن للحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، أما بعد..

فقد جاء هذا الكتاب بعد نشر كتابي الأول مسير أم مخير؟ ، في سلسلة أعتزم نشرها تدور حول الإنسان ومكانته في الوجود، وعلاقته بالعالم من حوله، ومساحات الحركة التي يحتلها في العصر الحديث.

تلك الأسئلة الكبرى التي تُكسب الشخصية الإنسانية المعنى من الحياة، وتضفي على الحياة الإنسانية القيمة والمعنى، وتعبد لها طريقًا مملوءً باليقين في ظل عالم يعاني من الفوضى، وانعدام النماذج و المعايير.

يأتي إذًا المغترب؛ وهو وصف دال على إنسان العصر الحديث الذي أنهكه العدو خلف غايات لم تحقق له المعنى، ولم تصل به يومًا نحو هدف منشود، بل أرهقت روحته، وحطمت أمانه الوجودي، وقضت على سواءه النفسي حتى أضحى عدم السواء، وانهيار مؤشرات الصحة العقلية في كبريات الدول، وأكثرها تقدمًا علامة دالة على بؤس هذا الأنسان، وكم الإحباط والخوف وانعدام الأمن الذي يحيطه من كل جانب.

نحاول في هذا الكتاب أن ننقب ونبحث عن الأسباب والمسببات التي ألمت بنا، نحاول أن ننقب عن المتغيرات التي أحدثها العالم المعاصر بفلسفته الإلحادية، وبنظمه السياسية، وبكياناته الاقتصادية، وبمجتمعاته المفككة بنا؛ حتى أضحينا بعيدين جدًا عن أنفسنا، نشعر بالوحدة بينما نحن في

وسط الجماعة، وبالكآبة بينما كافة الأجواء التي تحيطنا توحي بالفرح والانتشاء، وبالفقر رغم كم ما نكدسه حولنا من رفاهيات العيش!

ترى ما الذي حدث لنا حتى أضحى الطب النفسي إله العصر الجديد، و أصبح الاكتئاب وأترابه من الاضطرابات النفسية موضة عالمنا المعاصر التي ننجرف نحوها في سهولة مذهلة؟

في هذا الكتاب نحاول أن نفكك ونحلل، نرصد ونفسر عالمنا المعاصر علنا نصل في النهاية إلى أجوبة تصل بنا إلى بر اليقين، وعلى الله قصد السبيل.

تم بحمد الله

2022\1\9

الفصل الأول

الإنسان في بعده الفلسفي

"السيادة في الجحيم أفضل من الخدمة في الجنة"

قواعد منهجية لقراءة الفصل

1- تنبع أهمية تناول السياق الفلسفي لأي موضوع قبل الخوض فيه باعتباره أصل الفكرة التأسيسية التي قام عليها البنيان المادي وتمثلاته في دنيا الناس، وعليه فإن فهمنا لفلسفة الإسلام على سبيل المثال يمكننا من فهم أمرين:

-أولهما: حضارة الإسلام في سياقاتها المختلفة، ونفسية المسلم الذي صنعها.

- وثانيهما: مدى اقتراب المثال (المسلم وحضارته) من النموذج (الإسلام).

وينطبق ذلك المثال على الفكر الغربي الحديث كذلك، ففهمنا للفلسفة التي شكلت العقل الغربي الحديث يمكننا من فهم الغرب وحضارته ونفسية الإنسان الغربي وعقليته.

2- من المسلمات المفترضة إنه لا توجد أمة من الأمم لا يؤثر فيها سياقها التاريخي والحضاري وما حدث فيه، ولكن يختلف الإسلام عن تلك المسلمة وذلك بسبب أن الإسلام جاء كدين رسالي رباني يصك قواعد جديدة، ويجب ما قبله من عوارض مفسدة قد تؤثر في بنية الإنسان المسلم، وبقدر اقتراب المسلم من النموذج يكون بابتعاده عن تلك العوارض الما قبلية عن الإسلام، والعكس صحيح.

بينما في حالة الإنسان الغربي فإن العقلية الغربية تشكلت عبر ما خطه التاريخ في حضارتها، راسمًا لوحة تعاني من آلام مريرة يسعى طوال الوقت ليتجاوزها عبر فلسفات بشرية مختلفة، وعليه فإن التجربة التاريخية للغرب لها أكبر الأثر في تشكيل بنيته النفسية والعقلية والمعرفية.

أما المسلمين فبرغم العوارض التي شابت فكرهم وأثقلت روحهم بمرور الأيام عندما ابتعدوا عن النموذج وتمثلاته؛ فإنهم يستطيعون الاقتراب منه في أي وقت دون أن تؤثر عليهم تلك العوارض إلا بقدر مدى رسوخ أفكار الإسلام فيهم.

3- هناك خلاف جوهري بين التجربتين الاسلامية والمسيحية، نظرًا لاختلاف السياقات التاريخية والفلسفية والحضارية لكل منهما، وبالتالي فإن قياس إحداهما على الأخرى، أو محاولة استيراد حلول جاهزة لعلاج مشكلات شرقية بدواء غربي مفسدة كبرى، تضر أكثر مما تنفع.

4-التصورات للنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومناحي الحياة المختلفة يحكمها أساس معرفي أو فلسفي تنبثق منه وتسير وفقًا لهداه، ولا يمكن نقل تلك الانظمة الحياتية دون أن يكون سياقها الفلسفي متضمنًا بداخلها.

5-يتميز الفكر الغربي الحديث بأنه الفكر الإلحادي الوحيد الذي عرفه العالم، وهو الفكر الذي أعلن الحرب على جميع الأديان، انطلاقًا من عدائه مع التجربة الكنسية، وحاول تصدير تلك الفكرة للعالم أجمع في حرب شرسة ضد الله.

مدخل تاريخي

يذكر ول ديو رانت في كتابه قصة الحضارة أبرز الأسباب التي دفعت بالغرب إلى الثورة على الكنيسة، لتنهي بذلك مرحلة العصور الوسطى المريرة، ولتبدأ عصرًا جديدًا يكون الممهد لعصور من التقدم العلمي، والصعود الحضاري.

"وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية، والفكرية، والعاطفية، والاقتصادية، والسياسية، والـأخلاقية، تتجمع بعد قرون من التعويق والاضطهاد، في دوامة تقذف بأوروبا في أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما.

ثم إن اضعاف البابوية بالنفي في أفنيون، والانقسام في صفوف البابوية، وانهيار النظام في الأديرة، وترهب رجال الدين، والترف الذي يرفل فيه البطاركة، وفساد مجالس القضاء الرومانية، ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للباباوات، وأخلاقيات ألكسندر السادس، وحروب يوليوس الثاني، والمرح المستهتر الذي عرف به ليو العاشر، والتجارة في المخلفات المقدسة، وبيع صكوك الغفران، وانتصار الإسلام على العالم المسيحي في الحروب الصليبية إلى جانب التركية، وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية، وتدفق العلم العربي والفلسفة العربية، وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية في هور فلسفة سكوتس اللاعقلانية، وشك أوكهام، وفشل حركة التوفيق في الإصلاح، والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة، واكتشاف امريكا، واختراع الطباعة، وانتشار القراءة والكتابة والتعليم، وترجمة الإنجيل وقراءته، والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش، والثراء المتزايد لألمانيا وانجلترا واستقلالهما الاقتصادي، ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم، والاحتجاج على تدفق الأموال إلى روما، وتحويل القانون والحكم إلى الأغراض الدنيوية، وفتوة القومية، وتقوية الملكيات، والتأثير القومي للغات والآداب الشعبية، وتفاعل

الميراث الفكري الذي خلفه الوالدنيون The Waldensians وويكليف وهس جون ويكليف 1348-1384) John Wycliffe) وجون هس John Hus (1373-1415)

والمطالبة الصوفية بالتخفيف من الطقوسية في سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية، وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان.

إن هذه الأسباب كلها سوف تتحد في سيل عارم سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذي كان أدنى من القشرة، وسوف يحل جميع المعايير والروابط، ويمزق أوروبا إلى أمم ومذاهب، وسوف يكتسح أمامه أكثر وأكثر دعائم العلاقات المأثورة وما تقدمه من عزاء، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العقلية للرجل الأوربي[1]".

وإذا أردنا أن نلقي الضوء على أبرز الأسباب التي أحدثت نقلة في التاريخ والفكر الأوربي الحديث طبقًا لما ذكر أعلاه سنجدها كالتالي:

أولًا: طبيعة الدين وفساد الكنيسة

كانت دعوة المسيح عليه السلام قبيل مرسوم ميلان313م من الدعوات المجرمة في الامبراطورية الرومانية الوثنية، وكان اتباعها يواجهون أشد أنواع التنكيل من قبل الوثنيين الرومان حتى تولى قسطنطين الأول (272 - 337)م الحكم ليكف أيدي الدولة عن اضطهاد المسيحيين ، ولم يفعل ذلك إلا بهدف دوافع سياسية بحتة بعدما فشت المسيحية وانتشر اتباعها من ناحية، وبهدف استقطاب جموع المسيحين في بقية العالم لتدعيم سلطته عن طريق تجنيدهم في الجيش من ناحية أخرى .

وبعدما استتب الأمر للمسيحية ظهرت الخلافات، وظهرت انشقاقات من داخلها، فحدث الصراع بين كنيسة الإسكندرية- التي كانت تنادي بألوهية المسيح على مذهب بولس- وبين دعوة الأسقف الليبي (آريوس) في الإسكندرية أيضاً. الذي ينادي بأن الله إله واحد غير مولود أزلي، أما

[1] قصة الحضارة، ول ديو رانت، (23\284-283)

الابن فهو ليس أزليًّا وغير مولود من الأب، وأن هذا الابن خرج من العدم مثل كل الخلائق حسب مشيئة الله وقصده.

واتسع هذا الخلاف حتى ظهرت آراء عقدية أخرى غير هذين الرأيين، ورأى قسطنطين أن آثار الخلاف الديني ستؤدي إلى خلافات داخلية تؤثر على وحدة الأمة وتماسكها، لا سيما بعدما عقد كل فريق مجمع كنسي وبدأ بحشد الأتباع والطعن في مذاهب الآخرين.

وأمام هذا التوتر أعلن قسطنطين عن مجمع نيقية عام(325) م، وعج المجمع بآراء مختلفة عن حقيقة المسيح واستقر الرأي على ألوهية المسيح، وإنه ابن الله ومن ذات الإله، وتجسد في صورة بشرية ليخلص الناس من آثامهم.

وكان قسطنطين الذي عُمد على فراش الموت على الوثنية وقت عقده مجمع نيقية، ووقت انحيازه إلى عقيدة ألوهية المسيح وكان ذلك لأهداف سياسية كما ذكرنا، يقول درابر :

"دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (337 م) [2]".

ولكن الأخطر من ذلك أن قسطنطين بتحالفه مع رجال الدين المنافقين سعوا معًا لضم شرائح واسعة من المجتمع الوثني للانضمام تحت لواء الكنيسة، وكان ذلك عبر ختن المسيحية بالوثنية، وإنشاء دين جديد يحمل بين طياته ظواهر المسيحية وبواطن الوثنية حتى يرقى للجميع!

وفي ذلك يقول وول ديورانت:

"إن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل ثبتتها ؛ ذلك أن العقل اليوناني عاد إلى الحياة في صورة جديدة ، في لاهوت الكنيسة وطقوسها ، ونقلت

---

[2] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص164

الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الرهيبة ، وجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان في هذا أو ذاك . ومن مصر جاءت عبادة الأم والطفل ، والاتصال الصوفي بالله ؛ ذلك الاتصال الذي أوجد الأفلاطونية و اللا أدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض لمدة 1000 عام[3]) .

وهذا السياق التاريخي الذي نشأ عنه دين جديد لا هو بالوثني ولا هو بالإلهي، وكان سبب وضعه أهداف دنيوية وسياسية، كان السبب في أن يتصدر قمة هرمه رجال دين لا يهتمون بالدين بقدر اهتمامهم بالدنيا، لأن الدين الذي يدعون إليه في حقيقته مضطرب فلا هو بالوثني، ولا هو بالرباني.

وهو ما أثبته المستشرق الفرنسي ليون جوتيه في كتابه " مقدمة لدراسة الفلسفة الإسلامية" بقوله:

(وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الإغريقية لم ينتج فلسفة فقط ، بل أنتج معها دينا أيضا ، أعني المسيحية التي تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان ؛ ذلك أن اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الأفلاطونية الحديثة ، ولذا تجد بينهما مشابهات كثيرة ، وإن افترقا أحيانا في بعض التفاصيل ، فإنهما يرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة أقانيم واحدة فيهما)

ويظهر ذلك جليًا في النصوص المسيحية والتي وجد مثيلها في الديانات الوثنية القديمة الكثير، فضلًا عن كثير من الطقوس الوثنية التي سطت عليها المسيحية؛ كتقديس يوم الأحد الذي هو يوم إلهه الشمس عند الوثنيين القدماء.

---

[3] [قصة الحضارة 418/11]

كل هذا جعل الدين في نظر أتباعه ولا سيما رجال الدين والمتبحرين فيه يخالف المنطق والعقل الرصين بشكل كبير لذلك فإن من أشهر العبارات المركزية التي روجها القساوسة "أطفئ مصبا عقلك واتبعني" وما ورد في الكتاب المقدس ليؤكد على هذا المعنى: "تَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِكَ، وَعَلَى فَهْمِكَ لاَ تَعْتَمِدْ.[4]" (أم 3: 5).

ولأن هذا الدين جُبل منذ بدايته على التغيير والعبث به فقد استمر الأمر لا سيما عندما تطرأ أوضاع جديدة، أو يأتي بابا كبير يريد أن يحدث فيه حسب هواه، وهو ما أكده جون هيك بقوله" إن المسيحية على امتداد تاريخها، كانت حركة نامية متغيرة باستمرار؛ ونتيجة لذلك نما لاهوتها في اتجاهات كثيرة غير محددة"[5]

و لذلك كان الموكل بالطبع لنقل كلام الله وتفسيره هم رجال الدين، لذلك حرمت الكنيسة ترجمة الكتاب المقدس بغير اللاتينية، وقصرت التعليم على طبقة النبلاء المتحالفين معها، وقصرت التعاليم الدينية على طبقة معينة من رجال الدين، تلك التدابير الاستبدادية حتى تستطيع السيطرة على رعاياها واستغلالهم بشتى الطرق ساهمت في تعطيل كل ملكات الفكر لدى رجال الدين أنفسهم فضلًا عن عامة الشعب.

لذلك حاربت الكنيسة كل محاولة للإصلاح لأن ذلك سينقص حتمًا من سلطتها وسيطرتها على النفوس والعقول، وحاربت كل الأفكار المضادة لما ورد في نصوص الكتاب المقدس حتى لو كانت أفكار علمية تثبتها التجربة، أو أفكار منطقية يثبتها العقل؛ ولأجل ذلك قتلت آلاف العلماء الذين عارضوها في آراء علمية بحتة واتهمتهم بالهرطقة والدجل أمثال جيرانو برونو الذي ساهم في نشر آراء كوبرنيك التي تقضي بأن الأرض ليست مركز الكون، وغيره الكثير ممن لاقوا ذات المصير حتى وسمت تلك العهود بالعصور المظلمة؛ علامة على حربها على العلم وتخلفها وجهلها.

---

[4] (سفر الأمثال 3: 5)

[5] "(اسطورة تجسد الاله في المسيح)

والسبب في التبعية المطلقة للكنيسة وتسلطها على الناس كان بالطبع بنصوص الكتاب المقدس ورجاله ؛ فقد فوض المسيح الكنيسة في فرض وصايتها على أتباعه، وفي هذا يقول الأنبا غريغوريوس " الكنيسة من فوق وليست من الأرض، الكنيسة أصلاً سفارة ، والسفارة لا تنتمي إلى البلد الذي تقيم فيه، وإنما تنتمي إلى البلد الذي تمثله هذه السفارة؛ فالكنيسة أساسها المسيح الذي أتى من السماء[6]"

وهكذا تضخمت الكنيسة بأقوال رجالها لتبتلع الدين والدنيا معًا، ولا تُسأل عما تفعل وهم يسئلون، ونتج عن ذلك توسع نفوذها ليشمل الدين فهي صاحبته وحاميته، والدنيا بإنشاء مملكة الرب على الأرض فيما عرف بالدولة الثيوقراطية كتجربة فريدة من نوعها في التاريخ.

كل ذلك التضخم في سلطتها الروحية والزمنية صاحبه فساد مستشري ظاهر للعيان في حياة رهبانها ورجالها، ليرتعوا في الترف بينما يعاني الناس الفاقة والحرمان، ويدعوا للفضائل بينما يتقلبون هم في أوحال الرذيلة، ويدعوا إلى السمو الروحي والخلقي بينما حياتهم مدنسة بكبائر المعاصي والآثام، وفضائحهم تبلغ الآفاق.

وفي ذلك تقول القديسة كاترينا السيانية: " إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة، أو غيرهم من رجال الدين، أو الطوائف الدينية المختلفة،

أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا، سواء كانوا صغارًا في السن أو كبارًا لم تر إلا شرًا ورذيلة، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة .

إنهم كلهم ضيقوا العقل، شرهون، بخلاء، تخلوا عن رعاية الأرواح، اتخذوا بطونهم إلهًا لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة، حيث يتمرغون في الأقذار، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور، ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء، ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون![7]" .

---

[6] اللاهوت المقارن ص 242
[7] قصة الحضارة (21\85)

كل ذلك كسر الهيبة في نفوس أتباعهم، بل ونفروا منهم، واعتبروهم منبت الداء وأصله، لذلك في أول فرصة قامت عليهم الشعوب وجردتهم من كل سلطانهم، ونزعوا القداسة عنهم، وفي أثناء ذلك لم يفرقوا بين الدين الحق والباطل، فاعلنوا الثورة على الدين جميعًا، ووقعوا في خطأ التعميم فاعتبروا أن كل دين ولا شك أصل للاستبداد، ومنبع للفساد والشرور والآثام، وأن تحرر البشرية لا يكون إلا في قضائها على الدين الذي هو رمز التخلف، وسببًا للذل والقهر.

ثانيًا: حركة النقل العلمية إلى الغرب

كانت من جملة الأباطيل التي تروجها الكنيسة لضحاياها من المسيحيين أن العرب والمسلمين برابرة متوحشين، يرسفون في قيود الجهل والتخلف، وأنهم وثنيون يحاربون مسيحي الشرق، ويقتلون حجاج بيت المقدس من المسيحين، وأن الحملات الصليبية هدفها الرئيس تحرير المسحيين هناك- أي في الشرق- من أسر المسلمين البرابرة.

وكان دافعهم لخوض تلك الحرب الدنيوي لا يقل عن الدافع الديني، فقد صور لهم الرهبان أن بلاد الشرق تفيض لبنًا وعسلاً، وأن الغنائم الكثيرة المستحقة في انتظارهم، بالإضافة للغنيمة الأخروية الكبرى.

وعندما اصطدم هؤلاء المساكين بالشرق المتحضر آن ذاك حدثت الصدمة المعرفية التي لم تقل عن تلك التي مني بها الشرق إبان قدوم الحملة الفرنسية على مصر والشام.

فقد وجدوا الفارق الحضاري الضخم بين العرب وبينهم، وأمام هذا الانبهار بعلوم الشرق سواء عن طريق الحملات الصليبية، أو بالاحتكاك مع مسلمي الأندلس ، أو حتى بالنهضة التي خلفها المسلمون في صقلية إبان حكمهم لها؛ كل ذلك أحدث اضطرابًا في الكنيسة ومدى صدقها

و نتج عن ذلك أن بادرت الكنيسة بإرسال بعثات تعليمية كبرى جابت بلدان الشرق لتحدث أكبر حركة للترجمات والنقولات المعرفية شهدها العالم.

هذا بالإضافة لما قامت به قشتالة بعد طرد المسلمين من الأندلس بحملة ثقافية كبرى لنقل إرث المسلمين من العلوم، وافتتحت لأجل ذلك المدارس العديدة، وشغل فيها اليهود دور الوسيط حيث كانت تترجم الكتب من العربية للعبرية، ثم من العبرية للاتينية، وكان مركز هذه الحركة طيلطلة، وزعيمها ريموند أسقف طيلطلة وكبير مستشاري ملك قشتالة آن ذاك.[8]

هذه الحركة العلمية التي بالرغم من إنها بدأت مبكرًا في الغرب إلا إنها لم تجد البيئة المناسبة للنمو والإخصاب في ظل ظلمات الجهل التي كانت تغلف البيئة الغربية، وما إن حدثت تغيرات على الصعيد السياسي بثورة التصحيح البروتستانتية، بجانب التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي واكبتها؛ حتى بدأت بذور تلك الحركة العلمية في النمو والازدهار ممهدة الطريق لعصر النهضة الأوربي الذي كان هو السبيل نحو الحضارة العلمية للغرب الحديث.

ثالثًا: تغير المنظومة الاقتصادية وما تبعه من تغيرات اجتماعية

بسيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور تحولت الكنيسة الكاثوليكية إلى دولة ثيوقراطية، وإبان حقبة البابا جورج السابع و الذى أعلن أن الكرسي الرسولي فوق السلطة الدنيوية في القرن الثاني عشر الميلادي، ، بدأ في تغييرات في الحياه عامة شملت بالطبع الجانب الاقتصادي ,فأقام منظومة لفرض الضرائب والرسوم ,وواكب ذلك الحملات الصليبية والتي عادت

[8] (العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوربية\2-ص294)

إلى أوربا محملة بالذهب، والذى يقول المؤرخون بأن ما استولت عليه يفوق ما استولت عليه أوربا نتيجة احتلالها لأمريكا الجنوبية .

ومنذ تلك اللحظة التي عرفت لدى المؤرخين بمرحلة(التراكم المالي)بدأت الكنيسة بتحليل التعاملات الربوية بشروط معينة، ولكن بالتدريج انتشرت سياسية الإقراض الربوي التي كانت من أشد المحرمات في السابق، وتعاملت بها الكنيسة نفسها!!

ومن ضمن التعديلات التي ادخلتها الكنيسة تطبيق مفهوم(السعر العادل), ويعد ذلك أهم بداية للرأسمالية في أوروبا, فقبل ذلك التاريخ لم يكن مسموحاً بأي شكل من أشكال السوق الحرة، وكان احتكار السوق هو سيد الموقف، ولكن بهذا القانون بدأت سياسة المنافسة الحرة.

وهكذا بدأت الأفكار الرأسمالية تتسرب شيئاً فشيئاً إلى أوربا, حتى تم افتتاح اول مصرف كاثوليكي بالمعنى الكلاسيكي المعاصر في القرن الثاني عشر على طريق الحملات الصليبية في جنوة, ثم فينسيا ,وشيئاً فشيئاً سيطرت هذه المصارف وما تبعها من شركات تجارية كبرى على تجارة شرق وغرب المتوسط.

إضافة لذلك فقد اكتشف الأوروبيون العالم الجديد ونهبوا ثرواته، وحدثت حركة تحويل مالي كبرى من ذلك العالم الجديد إلى أوروبا غيرت موازين المعادلة الاقتصادية للعالم.

ذلك التراكم المالي بالإضافة إلى التغيرات الجوهرية التي حدثت في العقل الغربي مع قيام ثورة التصحيح البروتستانتي، ساهم في بدء ثورة عقلية بدأت في تبني مفاهيم تختلف جذريًا عن تلك التي كانت تشكل فكرها سابقًا.

فلم تعد تثق في آراء الكنيسة، وسعى الأفراد لترك حياة الزهد والتقشف الانقطاع عن الدنيا وما فيها والتي خيمت على العقل الأوربي زمنًا طويلًا، وصاحب ذلك انتشار الطباعة، فاتسعت رقعة القراء والمتعلمين .

كل هذه الأسباب المهمة وغيرها قلبت وجه العالم الغربي، ومهدت له لدخول مرحلة جديدة كليًا عن تلك التي كان يعيشها.

تشكيل العقل الغربي الحديث

كانت الصدمة التي مني بها العالم المسيحي إبان السقوط المدوي للكنيسة، وتكشف الستار عن سوأتها وعورتها السبب الرئيسي الذي أدخل العقل الأوروبي بعد ذلك في حالة من الشك واللايقين في كل شيء صحبه منذ ديكارت وحتى عصرنا هذا، ومازال هذا اللايقين الذي يحيط بالعقل الأوروبي يتسع حتى غلف الحياة الغربية بكاملها ، في مقابل انحسار اليقين الذي تفرزه قوة المعرفة الأبستمولوجية بعدما فقدت سلطتها على العقل الغربي.

كان عصر ديكارت يمثل عصر الشك بامتياز، ولا سيما إنه كان عصر انهيار المؤسسات والتقاليد والثقافة والمعرفة المتولدة عنهما، دون أن تحل قيم صلبة جديدة تحكم خيال الناس وتصوراتهم، وتصيغ لهم قيمهم، وتنظم لهم حياتهم.

وأصبح المثقفون على وجه الخصوص لا يكنون أي احترام لأي معارف يقينية غير تجريبية، فقد أدخلتهم الكنيسة في نفق مسدود لم يستطيعوا الخروج منه!

وأمام هذا الفراغ قام الإنسانيون باستقدام الفلسفات القديمة وأغرقوا البلاد بها لتبدأ نزعات فلسفية بائدة تطفوا على المسرح الفارغ، ولم تلبث إلا وأعاد الفلاسفة البناء عليها وصياغتها في قوالب جديدة مناسبة لروح العصر، وعندما تفقد أي فلسفة من تلك الفلسفات ملاءمتها للعصر، أو لم تعد مناسبة لمقتضياته؛ فإنه سرعان ما تبدأ فلسفة جديدة تنتشل القوم من الهوة التي سيقعون فيها، ولذلك فإن العقل الغربي مر بمراحل عدة.

أولًا: النزعة الانسانية

وقد بدأت هذه النزعة الإنسانية منذ عصر النهضة الأوروبي، وبالتحديد في منتصف القرن الرابع عشر في ايطاليا على يد بترارك، ثم دخلت فرنسا مع بوديه، وبوجيو وغيرهم من الشعراء والمثقفين لتمتد لكامل أوربا بعد ذلك، وفي مستهل القرن التاسع عشر ستصبح هي المسيطرة على الفكر الأوربي الحديث.

وكان هدف الحركة في بدايتها الثورة على فساد الكنيسة وخرافاتها، ومحاولة بث الأفكار العقلانية في المجتمع عن طريق إحياء الفلسفة اليونانية القديمة، ومع انتشار الحركة العلمية في أوربا إبان القرن السابع عشر دعمتها النزعة الإنسانية، ووافق ما كانت تدعوا إليه من مبادئ ما أتت به الحركة العلمية.

ونتيجة لذلك اشتد عود الحركة الإنسانية بعدما سخطت النفوس على الكنيسة التي أغرقت أتباعها في ظلام الجهل والتخلف، وظهر زيف تعاليمها أمام بريق العلم الحديث، فأعجب الناس بالحركة وأفكارها التي تدعوا لنفض غبار الجمود العقلي، وتدعوا للتفكير والتأمل، وهي دعوات محببة للنفوس، وتوافق فطرها لا سيما بعد عقود من شل حركتها، وتثبيط فكرها.

ومع انتشار الحركة العلمية جنبًا إلى جنب مع الحركة الإنسانية بزغ عصر جديد، كان قوامه سيطرة الإنسان على كثير من مساحات الطبيعة، وامتلك أخيرًا زمام نفسه، ولم يعد في حاجة ليطفئ سراج عقله ويتبع راهبًا أيًا كان، فتحرر العقل من أسره وقيوده، وتكشفت أمامه أسرار الكون، فراح ينهل من تعاليم الدنيا الشيء الكثير؛ حتى اعلن أخيرًا إنه مركز الكون وسيده، وأن الإله الكامل قد نزل من علياءه فتجسد في عقله!.

وأصبح الإنسان طبقًا لتلك النزعة، مكتفيًا بذاته\ مستغنيًا[9] عن غيره، ولا سيما الاله الذي كان محور الكون منذ وقت ليس بالبعيد.

وعليه يستطيع ذلك الإنسان المستغني أن يصيغ كل قواعد حياته بنفسه، دون الرجوع إلى أي قوة خارجية(الله)، أو الارتكاز على أي مبادئ أخلاقية، أو الركون إلى أي معايير مجتمعية، فالإنسان سيد نفسه، وأعظم من وجد على هذه البسيطة.

ويطلق المسيري على تلك النزعة أسم "الإنسانية الطبيعية المادية" ويقصد بها" النزعة التي تعتقد أن الإنسان يدور في إطار المرجعية الكامنة في المادة، ويعيش بالطبيعة وعلى الطبيعة، وأن الإنسان مكتفٍ بذاته، مرجعيته ذاته، ومعياره ذاته، ولا توجد أية حدود أو سدود أو قيود عليه، وأنه جزء من الطبيعة، وينطبق عليه ما ينطبق عليها من أوصاف وتفسيرات[10]"

وتسعى نزعة الأنسة إلى ترسيخ مركزية أوربا، ليس بكونها موقعًا جغرافيًا، وإنما بكونها منبع الحضارة بكل مشتملاتها، وفيها يوصف الأوربي ليس بكونه إنسانًا حاملًا للحضارة بل تفترض المركزية الاوربية جدلية الذات والآخر، والمنطق الثنائي للهوية، وتعريف الآخر كالمحرك وراء المنطق الثقافي للإنسانية الكونية. ويعتبر مفهوم الاختلاف بوصفه مفهومًا سلبيًا محوره هذا الموقف الكوني، ومنطقه الثنائي.

وتتساوي الذاتية مع الوعي والعقلانية الكونية، والسلوك الأخلاقي المنظم ذاتيًا، بينما يُعرف الآخر باعتباره النظير السلبي المعاكس. وبقدر ما يترجم الاختلاف إلى الدونية، فإنه يكتسب مفاهيم أساسية ومميتة للأشخاص الذين يصنفون باعتبارهم (آخرين)[11]" .

ومع تطور الحركة وانضمام فلاسفة كبار لها ك أوجست كونت1857م الذي دعا لدين الإنسانية، ونادى بتأليه الإنسان صراحة، مرورًا بفيورباخ

---

[9] (سمى البعض النزعة الإنسانية بالنزعة المستغنية نظرًا لأن مفهوم الإنسانية أطلق على العديد من الفلسفات، وللخروج من هذا المأزق تم تمييز تلك النزعة بأبرز خصائصها وهو الاستغناء الذي يمثل الإنسان فيها)،

[10] (موسوعة اليهودية والصهيونية (1\73)

[11] ما بعد الانسان- روزي بريدوتي-ص29

1872 م الذي نشر في كتاب أصل الدين إلى أن الإنسان هومن يضفي صفاته على الله المقدس الغير موجود نتيجة لبعض العوارض النفسية، ولكن الحقيقة أن الله لا وجود له فيقول " الكائن الروحي الذي يضعه الإنسان فوق الطبيعة، ويعتقد إنه خالقها وموجبها، ليس إلا الجوهر الروحي للإنسان في نفسه"[12]

وانتهاءً بنيتشه 1900م، الذي أعلن موت الإله، وبزوغ عصر الإنسان السوبر مان، وغيرها من المفاهيم التي مازالت جاثمة على العقل الأوربي إلى الآن، بل اتسع مداها لتنتشر في ثقافات أخرى دون فهم مدلولاتها الإلحادية.

ولذلك فإن النزعة الإنسانية في ثوبها المعاصر تقوم على قواعد أساسية كالتطور المفضي للإلحاد، والمذهب العلمي التجريبي، تلك المذاهب التي أوصلتها في النهاية الى ذلك التوصيف المتمايز الذي تضع فيه نفسها موضع المتحكم في الكون وسيده؛ بينما يصبح فيه الآخر أيًا كان وصفه- ما دام غير أوروبيًا- من النفايات البشرية التي يجب التخلص منها أو تطويعها لخدمة السيد الأوروبي الأبيض.

كان المذهب العلمي التجريبي وما صاحبه من اكتشاف قوانين الكون والطبيعة بعد الجهل المطبق الذي كان يخيم على أوروبا بمثابة مرحلة الانبهار والافتتان بالطبيعة وقوانينها للحد الذي نسبوا الإنسان إليها، وبدأت سياسة التغني بالطبيعة الأم، والدعوات إلى الرجوع إلى أحضان الطبيعة، مرورًا بأن الإنسان ليس سوى مادة من مواد الطبيعة وليس بمنفصل عنها!

مما يعني بالمحصلة بأن الإنسان له قوانين معينة وبمجرد اكتشافها نستطيع السيطرة عليه والتحكم فيه، وتطويعه، أو حتى تغيير طبائعه كما أرادت أن تفعل الشيوعية بنزع غرائز التملك والفردية باعتبارها من الغرائز الدنيئة التي غرسها فيه المجتمع الرأسمالي، وهذا الفكر الذي سيطر على العلوم الإنسانية فانتج الدارونية الاجتماعية، وصراع

---

[12] أصل الدين، فيورباخ، ص48

الثقافات، وغيرها، و كان هو التنظير الحقيقي لبداية عصر امبريالي غزت به أوروبا العالم ونهبت ثرواته، واستعبدت شعوبه، وجارت على ثقافته ودينه.

وانقسمت الحركة الإنسانية لثلاث حقب زمنية مختلفة كانت بدايتها تسعى لمركزية الإنسان وإعادة الثقة له، وتصويره على إنه السيد على الأرض وصاحبها، وقطعت علاقته بكل ما هو فوقي ومقدس.

وكانت المرحلة الثانية إبان عصر التنوير والتي سعت لتوسيع حدود المعرفة الإنسانية، والتركيز على لا محدودية العقل، والقطيعة مع كل ما هو ميتافيزيقي باعتبار العقل يستطيع الوصول بالإنسان إلى سبر أغوار الكون فيما عرف بفك السحر عن العالم، فالإنسان كان في حاجة إلى الله نظرًا لجهله، وقلة عقله، ومحدودية علومه ومعارفه؛ فإذا استطاع بعقله اللامحدود وبمعارفه الواسعة تفكيك الظواهر ومعرفة أسبابها، فما هي الحاجة إلى الله؟

وكانت المرحلة الثالثة هي مرحلة القرن التاسع عشر التي سخرت قوتها لتشجيع التقدم التقني والصناعي، وتحول معها الإنسان إلى ترس في آلة يعمل ليعيش، متغافلة عن جميع المعاني الإنسانية التي تصنع من الإنسان إنسان، وهو ما أدى لنشوء الفاشية والشيوعية التي نددت بالإنسانية الاوربية في تشيئها للإنسان، "وسعت الاشتراكية نحو فكر مجتمعي للتضامن الإنساني[13]" في محاولة لإنقاذ الإنسان الأوربي من حالة الاغتراب التي اسقطته فيها الانسانية الاوربية.

---

[13] ما بعد الانسان- ص32

ثانيًا: النزعة العقلية

وفي ظل ذلك البحر المتلاطم من الأفكار والفلسفات المتضاربة من ناحية، وبقايا تعاليم الدين التي لم تفقد كامل المساحة المملوكة لها لا سيما في أوساط المتدينين والعامة، ظهر ديكارت الذي كان يدرس في المدرسة اليسوعية، وفي ذات الوقت بدأ يطلع على ثورة الأفكار الهائجة في الخارج، وبسبب تضارب المناهج الفلسفية في نظرتهم للأمور والحكم عليها، مع انعدام المنهج الذي يستطيع به الإنسان التفرقة بين المعرفة اليقينية والمعرفة غير اليقينية ؛ كان الشك هو وسيلة ديكارت لفلترة جميع ما يشوش عقله من تعاليم لا يتبين صحتها بعد، وساعده في ذلك منهجه الرياضي العقلي الصارم، "فالرياضيات تبدأ بإعلان مبادئ أولى بسيطة واضحة ذاتيًا، بديهيات أساسية يمكن اعتمادها لاستنتاج حقائق أكثر تعقيدًا وفقًا لمنهج عقلاني صارم، وعبر تطبيق محاكمة دقيقة وشاقة على سائر مسائل الفلسفة ، ومن خلال عدم التسليم إلا بتلك الأفكار التي كان عقله يراها واضحة، مميزة، وبريئة من التناقض الداخلي، نجح ديكارت في إقرار وسيلته المناسبة للوصول إلى اليقين المطلق[14] "

هذه الوسيلة التي صكها ديكارت كانت بمثابة الفلسفة الجديدة والمنهج البديل الحاكم على الفكر الاوروبي؛ وهي إقامة الإنسان العقلاني المسيطر على حياته، بديلا عن الإنسان المستباح عبر منظومة سياسية، لاهوتية، طبقية تشرعن بها السلطة الحاكمة ظلم الإنسان، ونبذه وتجويعه، وقتل الإنسان فيه.

أنشأ ديكارت منهج عقلي كان بوابة التحرر من استبداد اللاهوت السلطوي، والولوج لعصر جديد يسعى فيه الإنسان ليكون سيد نفسه عبر امتلاكه لأدوات عقلية منهجية تُسلم لسيادة العقل، قائمة على منهجية (أنا اشك إذا أنا موجود)، فلأول مرة منذ سيطرة الكنيسة على الحياة

---

[14] آلام العقل الغربي ص332

العملية ترتفع الأنية، ويتمخض عنها إثبات وجود الله وليس العكس، فقد بدأ الكيجيتو بإعلان النزعة الذاتية (أنا أشك)بوصفها مستقلة تستمد وجودها من ذاتها (أنا موجود) وليس من المؤسسة الدينية التي كانت مصدر الاعتراف بالذات البشرية، أو حتى الله، وبذلك يكون ديكارت قد حول المعرفة من الارتباط بالمطلق أي بالله، إلى الذات الفردية، لتتضخم تلك الذات الفردية في النهاية، ويصبح الإنسان مركزًا للوجود مع تقليص دور الله وانكماش مساحته لصالح الإنسان، وكانت تلك بداية العلمنة وفصل الدنيوي عن المقدس.

على عكس النزعة التجريبية التي اعتمدت على التجربة والأدوات الحسية المادية، كانت النزعة العقلية التي تقدس المنطق الرياضي وتسعى لفهم الكون باعتباره معادلة هندسية، ومعه الإنسان باعتباره صاحب العقل المقدس، و كجزءً لا يتجزأ من الكون.

وكان العقل بالنسبة للعقلانيين الإله الذي وضعوا فيه الثقة المطلقة، فهو وحده القادر على الفهم، والتفسير، والوصول إلى الحقائق اليقينية.

وهذه النزعة كان رائدها ديكارت(1596 - 1650)، وكانت(1724-1804)، وآخرين من فلاسفة أوربا، وتقوم على الاعتقاد بوجود منبعين للأفكار والتصورات، أولهما: الحس: فنحن نتصور الألوان والأشكال والأجسام لرؤيتنا إياها وإحساسنا بها، فإن أتيت بأعمى كي يصف لك اللون الأحمر مثلًا فإنه لن يستطع ذلك لانتفاء الحس لدية بالألوان وهكذا.

وثانيهما: الفطرة، ويقصدون بالفطرة أن العقل البشري يمتلك مجموعة من التصورات المغروسة فطريًا فيه دون أن يكون لها شواهد من الحس المادي الخارجي، وهي عند ديكارت أفكار مثل الله، والنفس، والزمان، وعند كانت هي الزمان والمكان والمقولات الاثنتا عشر المنقولة عنه.

وسبب وضعهم تلك النظرية في الأفكار الفطرية هو إنهم وجدوا بعض الأفكار والتصورات التي لا دليل عليها من الحس أو المادة، ورغم ذلك منتشرة ومتعمقة في نفوس الناس كالحاجة إلى الأديان، ومفارقة النفس

للطبيعة، وفهم الزمان والمكان ومساحاتهما، وكثير من العلوم الإنسانية وغير ذلك.

وتلك النظرية استطاع جون لوك تفنيدها والرد عليها ومن ثم ابطالها بعدما وسع مجال المحسوسات، ورد تلك الأفكار الفطرية بسب ديكارت إليها، واستطاع هو وأتباعه أن يوسع المجال الحسي حتى يشمل كافة ميادين التصور.

ثالثًا: النزعة التجريبية

تعد النزعة التجريبية هي النقيض للنزعة العقلية، و قد بدأت تلك النزعة في القرن السابع عشر على يد كلا من فرانسيس بيكون (١٥٦١ــ ١٦٢٦م) وجون لوك (١٦٣٢ــ١٧٠٤م)، وديفيد هيوم (١٧١١ــ ١٧٧٦م)، وتقوم هذه النزعة على أساس أن المعرفة مصدها الحس، وإن كانت أفكار الفلسفة التجريبية مبثوثة في كتب الفلاسفة الاغريق مثل ديمقريطس، ثم أبيقور ، ثم انتشر المذهب التجريبي على يد الشكاك؛ وهم فلاسفة اليونان المتأخرون الذين اعتقدوا أن المعارف اليقينية لا يمكن إثباتها بغير الحس .

والنزعة التجريبية تفترض أن العقل البشري يكتسب معارفه من التجارب الحسية الواردة عليه، وأن العقل -بعكس ما يعتقد العقلانيين – ما هو إلا صفحة فارغة لا يوجد بها أي شيء.

وعليه فإن الإنسان لا يعرف الخير من الشر، ولا الحق من الباطل، ولا فطرة لديه لتمييز الحقائق، وإنما يتعلم وتنمو خبرته من كثرة التجارب التي يخوضها في حياته فيتعلم منها.

وقامت النزعة التجريبية أول الأمر على يد جون لوك١٦٣٢ــ١٧٠٤) وإن كانت ارهاصات الفكرة قد ظهرت قبله إلا أن لوك هو من قعد لها، ومنحها الأساس الفلسفي الذي قامت عليه.

ويعد كتابه (مقال في الفهم الإنساني) هو المؤسس لتلك الفلسفة والذي كتب على إثر خلاف قام بين أصحاب النزعة الافلاطونية في كامبردج حول نظرية الأفكار الفطرية التي قال بها ديكارت، ومن قبله افلاطون عام 1670-1671؛ وتتمثل تلك الأفكار في أن المثل العليا والفضائل والأخلاق خصائص فطرية متمثلة في تركيبتنا ومستمدة من الله سبحانه وتعالى.

وجادل لوك تلك النظرية ونقضها؛ باعتبار أن جميع المعارف مستمد من التجربة الحسية، لا من قيم عليا متجاوزة للطبيعة البشرية، وأن (قوة الإدراك الحسي) وهو لقب أطلقه على العقل هو وحده المنوط بإدراك

المعاني والألفاظ، والتناقض والتنافر بينهما، مما يعني أن الحس بمفرده القادر على إدراك العالم من حوله، لأن المعارف لا تحصل إلا من خلال التجربة الحسية ثم يربط بينها العقل، وهم بذلك يرفضون نظرية تفوق العقل.

ورغم إن جون لوك يعد مؤسس مذهب من كبرى المذاهب التي ساهمت في تشكيل العقل الأوربي الحديث إلا" أن بضاعته الفلسفية ضئيلة سطحية، وأسلوبه يبين عن شيء كثير من السذاجة، من شواهد ذلك أنه يكثر من التمثيل، ويسهب في تفصيل الأمثلة كأنها المقصود بالذات، ويسخر ممَّا لا يعرف فتجيء سخريته ثقيلة جدًّا، استمع إليه يقول في حملته على القياس: «لو وجب اعتبار القياس الأداة الوحيدة للعقل والوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة، للزم أنه لم يوجد أحد قبل أرسطو يعلم أو يستطيع أن يعلم شيئًا ما بالعقل، وأنه لا يوجد منذ اختراع القياس رجل بين عشرة آلاف يستمتع بهذه الميزة، ولكن الله لم يكن ضنينًا بمواهبه على البشر إلى حد أن يقنع بإيجاد مخلوقات ذوات قدمين، ويدع لأسطو العناية يجعلهم مخلوقات عاقلة» (م٤ ف١٧ فقرة ٤)"[15] ويتمخض عن هذه النظرية أمرين:

1- الميدان التجريبي هو الحاكم على صدق معارفنا، مما يعني بالمحصلة أن جميع المعارف التي لا تخضع للإدراك الحسي كالمعرفة الغيبية والأخلاق وغيرها لا تعد من قبيل المعارف المعتبرة في شيء.

2- نفوا عن الذهن كل البديهيات العقلية القبلية باعتبارها مرتكزات للعقل البشري، فهم يرون أن تلك القبليات (كما عند المذهب العقلي) أدركها الذهن بعدما خاض التجربة وليس قبل ذلك، لذلك فهم يتبنون المنهج الاستقرائي في التفكير لأنه يصعد من أدنى إلى أعلى، وينطلق من الجزيئات ليثبت الكليات وليس العكس كما هو الحال عند العقلانيين.

---

[15] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة،

ويحمل هذا المذهب أصول نقده في بنيته الرئيسية التي استند إليها؛ فهو قد أثبت ابتداءً أن التجربة هي الوسيلة المثلي لإدراك المعارف، ثم قال إنه لا وجود لمعارف قبلية وأن التجارب هي التي تكسب الخبرة ومن ثم المعرفة!!!

وبمعنى آخر فإنه الأمر لا يخلو من فرضيتين:

- **إن أثبت قاعدة ضرورية بنى عليها المذهب فقد هدم بنيانه بيده إذ إنه قد قرر عدم وجود قواعد قبلية للعقل.**
- **وإن كان قد توصل بالتجربة على أن التجربة هي السبيل الأوحد للمعرفة فهذا محال عقلًا ومنطقًا، لأن الشيء لا يؤكد قيمه نفسه، ولا يستدل بذاته عليه!.**
- **بالإضافة لذلك فإن الإيمان بأن التجربة هي السبيل الأوحد للمعرفة يجعل من اللامنطقي إنكار أي شيء، فإن لم تتوفر التجربة لك فقد تتوفر لي، وإن لم تستطع أن تقوم بها في زمن من الأزمان استطاع غيرك نتيجة لتقدم العلوم، وتتطور المعارف أن يثبتها ويجربها.**

ومعنى ذلك أن هناك أمور تقع في باب المستحيلات عقلًا ولكن لا يؤمن باستحالتها أرباب هذا المذهب لإنكارهم وجود القبليات العقلية، فإن آمنوا بها فقد سقط مذهبهم، وإن لم يفعلوا فقد سقط مذهبهم أيضًا لأن إثبات المتناقضات أو حتى التوقف عن نفيها يدمر حقيقة المعرفة في ذاتها، فالمتناقضان لا يجتمعان.

وينقسم المذهب التجريبي إلى مدرستين في رأيهم حول المعرفة:

1- يرى المذهب الأول أن المصدر الوحيد للمعرفة هو التجربة والحس

2- يرى المذهب الثاني أن التجربة الحسية المدعومة بالإدراك العقلي يشكلان معًا طريقًا نحو المعرفة.

وترجع أهمية تلك النظرية في الميدان الفلسفي باعتبارها الأساس الذي استندت عليه الماركسية في مسألة المعرفة، وقد تبنت الرأي الثاني.

فالتجربة تأتي عند الماركسية في المقام الأول، ثم يليها تكوين النظريات المفاهيم عبر التفسير العقلي للمحسوسات، وليس العكس!

وهذا الأمر يستحيل عقلًا، إذ إنه حال لم يتوفر للمرء مفاهيم كلية أو نظريات عامة يستطيع أن يقيس على أساسها نتائج التجارب التي يحصل عليها ، أو يفسر بها المحسوسات فلن يحصل شيئًا من المعرفة أو النظرية، لا العكس.

وعليه فإن هذه النظرية التي تتبناها الماركسية في المعرفة يتمخض عنها أمور لازمة منها:

1- أن الإدراك الناتج عن التجارب الحسية هو إدراك لظواهر الأشياء ولا يستطيع أن ينفذ إلى باطنها ليشكل قانونًا معرفيًا ثابتًا، وذلك للأن كثرة التجارب مع تغير المعطيات والظروف سينتج حتمًا معارف مختلفة ومتغيرة وستكون المعارف الناتجة عن تلك التجارب اعتباطية لحدٍ كبير.

2- إن اختلاف الإدراكات بين البشر مع اختلاف الظروف التي ستحدث فيها هذه التجارب سيفضي في النهاية إلى نظريات مختلفة تمامًا، والنظرية من سماتها أنها تسعى لتفسير معطيات الواقع بشكل واضح ودقيق وشامل، فإن تعددت النظريات لنفس الواقع فقدت وظيفتها وخرجت عن مسمى النظرية.

3- أن هذه الطريقة في التفكير تقضي على الكيان الفلسفي وتهدمه، لأن الفلسفة في حقيقتها منبتة الصلة عن التجربة، ولها فضائها الخاص الذي يسعى لتفسير الوجود عبر وضع قوانين عقلية منهجية يسير على هداها، ويسترشد بها في طريق بحثه عن مبادئ كبرى ونظريات حاكمة يفسر بها القوانين الكلية التي تحكم الوجود وتؤثر فيه.

لذلك هاجم أنصار المذهب التجريبي الفلسفة باعتبارها وهمًا لانفصالها عن العلم التجريبي لذلك قال انجلز" إن الايدلوجيا عملية يقوم بها المفكر، عن وعي وشعور من جانبه، ولكنه شعور باطل حقًا. فالبواعث الحقيقية التي تدفعه، تظل غير معروفة له، وإلا لما كانت عملية ايدلوجية

مطلقًا، ومن هنا نراه يتخيل دوافع باطلة أو ظاهرية دون تمحيص أو بحث عن عملية أخرى أبعد، مستقلة عن الفكر[16]".

ونتج عن ذلك قيام مدارس تتبنى المنهج التجريبي في الفلسفة عن طريق وضع نظريات فلسفية عامة ناتجة عن ما توصل إليه العلم في ميادينه المختلفة، وأبرز تلك المدارس:

- **المدرسة الماركسية**

وتنسب الماركسية إلى كارل ماركس(1818- 1883) الذي كان لفلسفته دور رئيسي في تغيير شكل العالم في القرن العشرين، وتسعى هذه الفلسفة باختصار شديد إلى تفسير المشكلات التي تواجهها البشرية عبر التحليل المادي لها، ثم وضع الحلول لها على ذلك الأساس وسميت تلك الطريقة بالمادية الديالكتيكية.

كما يقول ستالين "تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل: إن العالم بطبيعته مادي، وإن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وأن العلاقات المتبادلة بين الحوادث تكييف بعضها بعضًا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية، وهي قوانين ضرورية لتطور حركة المادة، وهو ليس بحاجة لأي عقل كلي[17]".

وبحسب تلك النظرية يتمحور الوجود بكليته حول المادة، وهنا تصبح المادة أساس العالم الذي ينبثق عنها تصور معرفي يصيغ حياة البشر، ويحدد موضعهم ومركزهم من الله، والطبيعة، وأنفسهم.

وعليه فإن الدين في رأي الماركسية ليس منهاج قويم يهتدي به الناس في تيسير شئونهم، ولا معتقدًا يؤمن به البشر لحاجاتهم الروحية، وإنما هو مجرد حيلة نفسية ابتكرها التعساء والمقهورين لعجزهم عن التغيير، ولتخفيف من وقع المأساة عليهم، فكما يقول ماركس : " إن البؤس الديني لهو تعبير عن البؤس الواقعي، والاحتجاج على هذا البؤس

---

[16] (التفسير الاشتراكي للتاريخ، ص122

[17] (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ،ص28)

الواقعي معًا. الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم تبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعب، إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى، لنقد هذا الوادي الغارق بالدموع" [18]

فالدين إذا مسكن الحكومات المستبدة التي تضعه للشعوب في كأس حياتها المرير حتى تستطيع من خلاله تثبيطهم، وتقويض عزائمهم؛ لذلك فالدين بحسبهم نتاج الصراع الطبقي للمجتمع.

والصراع بحسبهم قانون الوجود الأوحد، وأساس تطوره في كافة المناحي، وهو يعمل بنفسه في كافة الجوانب؛ لذلك ظهرت لديهم الحتمية التاريخية .

وهذه النزعة مفادها أن الإنسان يسير وفق قوانين التاريخ، فهو لا حول له ولا قوة، مما يعني بالمحصلة أن حوادث الكون، وفي المركز منها الإنسان الذي من المفترض إنه هو فاعلها ليست على الحقيقة سوى حركة تاريخية مادية لا يستطيع الإنسان منها فكاكًا، فالإنسان مسير على الحقيقة طبقًا لحركة التاريخ.

وتؤمن هذه النظرية بالمبدأ القائل: "إن العالم بطبيعته مادي، وإن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وإن العلاقات المتبادلة بين الحوادث، وتكييف بعضها بعضًا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية، هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وإن العالم يتطور تبعًا لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة لأي عقل كلي[19]".

وكانت هذه النظرية هي المسير والمبدأ الرئيسي للفلسفة الماركسية التي أنشأت بها فهمًا فريدًا للكون، والحتمية التاريخية مأخوذة في الأساس من الحتمية المادية الفزيائية، والتي ترى الكون يسير في دوائر محددة إما ناحية الصعود التام كما قال فوكوياما في أطروحته نهاية التاريخ- وقد راجع الأطروحة إبان الأزمة المالية العالمية 2007-2008- وإما في

---

[18] كارل ماركس ، نقد فلسفة الحق عند هيجل(ص16-17).
[19] المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص28

دوائر متتالية كالبداءة والحضارة، ومن ثم الشيخوخة كما قال توبيني – وقد قال ابن خلدون بتلك الفكرة عن التاريخ، ولذلك يصفه البعض بقوله عن التاريخ بانه يتبنى مبدأ الحتمية التاريخية- وما يهمنا في تناولنا لتلك النزعة هو موضوع الإنسان منها الذي تم تجريده من إرادته ووصمه بالجبرية في أعتى صورها، فهو مسير طبقًا لحركة الزمان والمكان لا يملك من أمره شيئًا.

وظهرت الاشتراكية كثورة على الرأسمالية التي سيطرت على العالم في ذلك الوقت وخلفت آثارًا اجتماعية خطيرة، قُسم على أساسها الناس (البرجوازية) لطبقة تملك كل شيء، وتسعى لاستغلال باقي البشر (البروليتاريا) عبر تملكها ومراكمتها لرأس المال وأدوات الانتاج، ولذلك فهي تحتكر قوة العمل وتهضم العمال حقهم –بحسب ماركس-.

وأرجعت الاشتراكية أصل مشاكل النظام الرأسمالي كلها إلى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، "فكل ما يحدث في المجتمع الرأسمالي تنبع جذوره من القاعدة الاقتصادية، ومن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج. فتزايد البؤس، وشبكات الاحتكار، وفظائع الاستعمار، وجيوش العاطلين عن العمل، واستفحال التناقض في صميم المجتمع، كل تلك الأمور نتائج حتمي وحلقات من التسلسل التاريخي المفروض على كل مجتمع يؤمن بالملكية الخاصة[20]"

لذلك يرى ماركس أن العلاقات الاقتصادية هي المحرك الوحيد لموكب البشرية في كل الميادين[21] هذه العلاقات التي تصيغ بعد ذلك شكل المجتمع في كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

فبحسبهم "الوضع الاقتصادي لشعب ما، هو الذي يحدد وضعه الاجتماعي، والوضع الاجتماعي لهذا الشعب، يحدد بدوره وضعه السياسي والديني، وهكذا دواليك.

ولكنكم ستتساءلون عما إذا لم يكن للوضع الاقتصادي من سبب أيضًا؟

---

[20] اقتصادنا، ص197

[21] (اقتصادنا، ص35)،

لا ريب أن لهذا الوضع سببه الخاص به، ككل شيء في هذه الدنيا، وهذا السبب هو الصراع الذي يخوضه الإنسان مع الطبيعة[22]" .

وتسعى الماركسية إلى تكوين المجتمع الشيوعي، وهذا المجتمع هو مثالًا لتحقيق العدل عبر تساوي أفراده في كل شيء، فليس هناك غني أو فقير، فالكل فيه سواسية في كل شيء، والثروة فيه موزعة بشكل عادل بين الجميع، حيث تذوب الفوارق الاقتصادية، ومعها تزول الفوارق الطبقية، ومن خلال هذا وتلك ينشأ المجتمع السعيد.

تلك النظرية التي صكها ماركس وانجلز ووضعوا بها أساس المجتمع الشيوعي المرتقب القائم على محو الملكية الخاصة عبر تأميم جميع وسائل الانتاج حتى لا تتوافر القاعدة الاقتصادية (الملكية الخاصة) التي تؤدي حتمًا-بحسبهم- إلى نشأة مجتمع رأسمالي جشع، وتحرير المجتمع من الحكومات باعتبارها أدوات للتسلط والقهر ووليدة التناقض الطبقي!، ففي مجتمع يقوم على التساوي في كل شيء، وتكون قاعدته الاقتصادية قيمة العمل، ويزول منه التناقض الطبقي لا يحتاج إلى ضابط يضبطه، أو حكومة تسوسه.

ورغم تلك الفلسفة الحالمة التي روجتها الاشتراكية عن مدى كفاحها ضد الظلم الاجتماعي، ومحاولتها انتشال الإنسان من هيمنة الرأسمالية الجشعة، إلا أن تطبيقاتها على الأرض أظهرت كم أن أهوال الرأسمالية أخف وطأة من بشاعات الاشتراكية ودعواتها.

وبدأت الأحزاب الاشتراكية تسعى لتكوين المجتمع الشيوعي، وتطبيق رؤيتها أول مرة إبان حرب روسيا وفرنسا عام 1871، وعندما سقطت الحكومة الفرنسية، ثارت الاحزاب الاشتراكية مكونة ادارة الكومون ، وحاولت تطبيق منهج الشيوع

وبقيام الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 نتيجة خسائر روسيا في الحرب العالمية الأولى فقد فقدت روسيا 2مليون قتيل، إضافة لتدهور قطاع الصناعة، وتشريد العمال، وارتفاع معدلات البطالة، وغلاء

---

[22] (المفهوم المادي للتاريخ، ص46

المعيشة، وقمع المحتجين على الأوضع المعيشية بصورة دموية فيما عرف في التاريخ باسم يوم الأحد الدامي يوم 22يناير 1905.

كل تلك العوامل ساهمت في ثورة عارمة اجتاحت روسيا، واستطاع لينين أن ينظم الاشتراكيين من منفاه ، ولم يكن الاشتراكين سوى مكون صغير من الثوار، ولكن لحسن تنظيمهم استطاعوا تكوين تشكيلات عسكرية عرفت بالجيش الأحمر، استطاعت في الفوضى العارمة أن تكسب الأمور لصالحها.

استمرت الحروب الاهلية بين الجيش الاحمر وقوات القيصر 3سنوات، انتصر الجيش الاحمر واعدم القيصر وعائلته، واحرق البلاشفة كل المدن التي لم تؤيدهم ونكلوا بأهلها، فاكتظت السجون بالمعتقلين، وانتشرت أسوء أساليب التعذيب وأشنعها، فصلب المعارضين وفعل فيهم البلاشفة ما فعلته محاكم التفتيش بالمسلمين في الأندلس، وفشا القتل لأدنى الأسباب وخيم الرعب على قلوب الجميع، وانقلب حلم الأمل لأسوء الكوابيس المروعة.

وبسيطرة الاشتراكين بدأوا يسعون خلف حلمهم في تكوين المجتمع الشيوعي، فنزعت الملكيات الخاصة، وأعلنوا التأميم ووضعت الدولة يدها على جميع ما يمتلكه الأشخاص من ملكيات.

ولأن روسيا لم تكن انخرطت بشكل كبير في التصنيع في ذلك الوقت؛ فكان أغلب المجتمع يعتمد الزراعة في اقتصاده وتصريف شئون حياته، مع الأخذ بالاعتبار مناخ روسيا القاسي الذي يضن على أهله العاملين بالزراعة بالأقوات، فيمنحهم القليل الذي يقيم أودهم، ويسند صلبهم في تلك الظروف المريرة السياسية والمناخية.

وأمام أحلام البلاشفة التي لا تعرف المنطق ولا الرحمة، صودرت جميع أراضي الفلاحين ومحاصيلهم، وحيواناتهم، ولم يترك لهم شيء يعينهم على الحياة.

أصدر لينين قرار عام 1920 يقضي بعقاب الفلاح الذي لا يستطيع الوفاء بالتزاماته من المحاصيل التي يجب توريدها للحكومة، فكان يمنع منه بذور الزراعة بالإضافة إلى إنه كان ينكل به أشد التنكيل، ويعاقب كمجرم، وتستخدم ضده كافة ألوان التعذيب على مرأى ومسمع من الناس حتى يكون عبرة لهم.

نتج عن هذا مجاعة كبرى ضربت البلاد بدأت تباشيرها عام 1921 وتشرد خلالها 29 مليون مات منهم 5 مليون جوعًا، و كان البلاشفة لا ينظرون لتلك المجاعة كتعبير عن فشلهم، ولكنهم رأوا فيها وسيلة لتحقيق أهدافهم.

تلك المجاعة التي رغم استمرارها لحوالي العام إلا إنها خلفت آثارًا مدمرة على الإنسان الذي زعمت الاشتراكية إنها انتفضت لنصرته، وبحسب ما نشرته صحيفة الديلي ميل البريطانية فإنه خلال تلك المجاعة التي دُبرت بواسطة الحكومة، فقد وصل الحال بأن أكل السكان بعضهم، بل كان الآباء يطبخوا أطفالهم ويأكلوهم من شدة الجوع!.

ولم تكن تلك أبشع الجرائم التي ارتكبها الاشتراكين في الشعوب التي حكموها، بل تعد المجاعة السوفيتية التي حدثت بين عامي 1932-1933، وبحسب المؤرخين فقد افتعل ستالين هذه المجاعة التي قضت على أكثر من عشرة ملايين نسمة انتقامًا من الفلاحين الذين رفضوا الانصياع لسياسته!

واستمرت سياسية الاشتراكين في محاولتهم لتكوين المجتمع الشيوعي المزعوم ومع رفض الناس لسياستهم في سلب الممتلكات في سبيل تكوين الشيوعية افتتحت معسكرات الاعتقال ليقضي فيها اكثر من 390,000 نحبهم، بينما قتل ستالين 799455 مواطن في عمليات إعدام مباشرة، ليقدر عدد ضحايا حكمه بستين مليون نفس.

وسياسة الاشتراكين في روسيا لم تكن فريدة من نوعها في الجرم والاستبداد، بل إن ضحايا تلك الفلسفة المضادة للفطرة البشرية،

والمعادية لله خلفت أهوالًا بشعة في كل مكان وطأته، والأرقام التي تحدثنا عن أكثر من 70 مليون قتيل تحت حكم الزعيم الصيني ماو تسي تونج، و حوالي 50 مليون قتيل تحت حكم ستالين كاشفة.

الليبرالية

يقول دنينين

" لم يكن إنجاز الليبرالية ببساطة مجرد رفض شامل لما سبقها، ولكنها في كثير من الحالات بلغت غاياتها من خلال إعادة تعريف الكلمات والمفاهيم المشتركة، ومن خلال عملية إعادة التعريف تلك استعمرت المؤسسات القائمة بافتراضات أنثروبولوجية مختلفة جوهريًا"

وهكذا قامت الليبرالية على العبث بكثير من المفاهيم، ولا سيما تلك التي تغنى الناس بها زمنًا طويلًا باعتبارها الأحلام الكبرى التي سعوا لتحقيقها، فما أبسط التجارة بالأحلام، وما أروجها من تجارة إذ استغلت كمطية لتحقيق أهداف أخرى.

وهكذا تاجرت الليبرالية ب(الحرية) كقيمة عليا، كغيرها من المفاهيم التي استخدمتها الليبرالية لتصوغ حياة أفراد المجتمع الحديث.

فقد تحولت الحرية من مفهوم يعني ببساطة التخلص من الطغيان السياسي واستبداد الحكم، إلى مفهوم يعني الانعتاق من كل ضبط ذاتي يحكم رغبات الفرد ويحد من شهواته.

وأمام هذا التحول الذي كان تدريجيًا بحيث أفقد الأفراد اتزانهم أمام سكرة الفرح التي أعقبت وفاء الليبرالية بوعودها في التحرر من الاستبداد السياسي بتدشينها للعهد الديمقراطي كبداية أولى للانعتاق من كافة الضوابط التي تحد من حرية الفرد بمعناها الشامل.

لذلك قامت الليبرالية بترسيخ مفهوم الحرية الفردية المنفلتة كبديل وحيد للطغيان السياسي والديني الذي كان بمثابة الكابوس المخيف الذي جثم على صدر العالم الأوروبي طويلًا.

وكان مما رسخته الليبرالية في نفوس أتباعها أن أي تفريط في الحرية- بالمعني المرن الذي عرفوه بها- ينذر بالعودة لعصور الظلام مرة أخرى، مما حدا بالناس لتبني المفهوم الجديد للحرية، وهذا كان نذير بداية تهديم كافة الروابط المؤسسية، والعلاقات الاجتماعية، والضوابط الأسرية لصالح الحرية!.

وبنيت هذه الفلسفة على فكرة مفادها أن الحرية الحقيقية تتحقق عندما تختفي كل القيود، لتتحول أدوات الضبط الاجتماعي، ومعاييره الأخلاقية من نظم تحمي المجتمع وتدافع عن أفراده في مواجهة غلواء السلطة وتعدي الطبيعة ، وتوفر لأصحابها معاني الأمن المجتمعي والإنساني؛ لقيود يجب كسرها والتخلص منها.

وتحول بالتالي الدين من علاقة روحية توفر الأمان الوجودي للإنسان وتدعم أسس الفضيلة في المجتمع، وتمثل ستارًا للتعايش الإنساني؛ لفكرة غير عقلانية تدعم استبداد العقول، وتقيد الأفراد في طور تحولاتهم نحو الحرية المنشودة.

وبهدم كافة الروابط التي كانت تحافظ على الجماعة البشرية من التوحش والطغيان، تحررت الرغبات العدوانية في أعتى صورها وهو ما شجع عليه فلاسفة الحداثة كهوبز وميكافيلي وغيرهم.

و باعتبار أن تلك الرغبات الكامنة هي طبيعة الإنسان الحقيقية والتي حاول كبتها مرارًا عبر تبني الفضيلة المزيفة، والمثال الحالم الذي صوره الدين له، وأن الحل الوحيد للتحرر الكامل يكمن في إيمان الأفراد بسلطة العقل، وحكمته، ومدى نجاحه في الضبط الفردي للغرائز والشهوات، ولصحة حكمه على الأمور جميعها.

وإن غالبت الرغبات ضبط العقل لها فإن المؤسسات التشريعية وسلطة القانون –والتي هي نتاج العقل كذلك – ستعيد التوازن للحياة وتكبح جماح الرغبات المتطرفة.

وبذلك تحل النزعة العقلية محل النزعة الدينية التي ساد فيها الجهل والظلم والاستبداد وتلونت بألوان قاتمة من الدماء رسمت لوحة مرعبة لما يكون عليه المرء تحت الحكم الديني، والالتجاء إلى سلطة الرب!

لذلك قامت فلسفة العصر الحديث على التحرر التام من سلطة الدين في المقام الأول، و كما تقول حنة أردنت " إن تحرر العصر الحديث و لائكيته، وهو عصر ابتدأ لا برفض الرب ضرورة، بل برفض رب أب في السماء، فهل ينبغي أن ينتهي هذا العصر بطرد ضروري وحتمي للأرض أم لكل كائن حي؟[23]"

وهكذا صاغت الليبرالية تصورات جديدة حكمت خيال الناس تنصب جميعها على فكرة الحرية الفردية المنفلتة من أي ضابط دون أن تمتلك في الوقت ذاته أي معيار حقيقي للضبط الاجتماعي، ولا سيما بعدما حررت النفس البشرية وحولتها لحالة الطبيعة بحسب هوبز – أي بعدما أطلقت أسوء الرغبات المكبوتة من عقالها ونحت سلطة الدين جانبًا.

ويرجع إيمان الناس في الغرب بتلك الفلسفة وتعمقها في وجدانهم هو سيطرة الأهواء على الناس والذي لا يتجلى في الرضوخ للأهواء الظاهرة، والميول المكشوفة، وإنما في الشروط النفسية والثقافية والبيئية وأوهام العصر التي تتحكم بكل علاقة بين الذات المفكرة وموضوع التفكير[24] "

لذلك فإن العلاقة العدائية مع الدين في الغرب لها سياقها التاريخي المحمل بالصراعات الدموية، بينما في العالم الإسلامي يُنظر للدين باعتباره أساس التحول الحضاري، وشرط للنهوض الإنساني.

---

[23] حنة أردنت الوضع البشري ص22

[24] عبدالكريم بكار ،التنمية المتكاملة، ص75

ولذلك فإن المسلمين اليوم وبعد الهجوم المنظم أيديولوجيا على الدين بمفهومه الشامل ومحاولة حصره في طقوس تعبدية فردية- باعتبار أن السياق الزمني الحالي يتعالى على المقدس الذي كان دلالة على زمن سحيق ولى وانتهى- ما زلوا يحنون إلى عصور الخلافة الراشدة باعتبارها عصور الهدى والرشاد، ويأملون بالعودة إليها باعتبارها الجزء المشرق من تاريخهم.

وذلك لاعتقاد المسلمين الجازم بالرغم من التشوه الذي أصاب بنيانهم المعرفي أن الإسلام دين رباني يحيط بكليات الحياة جميعها، وأن منهجه الشامل موافق للفطر البشرية، فلا هو يقيد ويمنع الغرائز التي جبلت عليها النفوس حتى يدنس النفس التي تميل إليها كما يحدث في الرهبانية، ولا هو يطلقها من عقالها حتى تهوي بصاحبها في أعماق التسفل فتحط منه كإنسان كما يحدث في فكر الحداثة بالتعالي على المقدس، ليتم في النهاية إنكار للإنسان، وظهور نظريات ما بعد الإنسان.

ولإيمان المسلمين أن الدين الرباني الذي يضع فيه الإله المنهج يكون هو الأصلح للإنسان في كل زمان ومكان، لأن الإنسان مهما تفتق ذهنه فهو محدود بحدود خبرته، وحدود زمانه ومكانه، وحوادث الزمان متغيرة، وتجاربه متجددة؛ فمن عاش في عصر لم يعش في غيره، ومن أحاط علمًا بعلم ضلت عنه الكثير من العلوم لمحدودية عمر الإنسان وكذلك محدودية عقله، فضلًا عن العوارض البشرية التي تعتري الإنسان من النسيان، والتحيزات الذهنية والمعرفية التي تؤثر على أحكامه ومن ثم قراراته، مما يجعل أي منهج بشري ناقص لا يصلح لأن يكون إطارًا كليًا يحكم دنيا الناس، ويصوغ معايشهم.

وبالتالي فإن السياق التاريخي المختلف بين المسلمين في علاقتهم بالدين يختلف تمامًا عن نظيره الغربي وذلك لأمور أهمها: اختلاف كنه الدين نفسه؛ فالدين الإسلامي منهاج كامل شامل يحكم أطر الحياة على ميزان من العدل والرحمة، ويضع قواعد كلية تنبثق عنها تصورات جزئية حياتية تلائم دنيا الناس في كل عصرٍ ومصرٍ ويهتم بها الفقهاء والعلماء.

بينما في التصور المسيحي فإن الرؤية الدينية تقتصر على التعبد والتنسك وتنفصل عن الحياة الدنيوية بمعناها الشامل من تدبير معايش الناس وتأطير لحياتهم.

فلما حكم التصور الثيوقراطي العالم الغربي، وتسلطت الكنيسة بالتحالف مع السلاطين على رقاب الناس باعتبار أن الحاكم ظل الله في الأرض، لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ الله[25]" شرعوا من عند أنفسهم مناهج لحياة يكونوا هم سادتها، دون الرجوع لأي قيم كلية دينية حاكمة، فقد : "كان الدين أو النص طوال القرون الوسطى سائداً في توجيه الإنسان في سلوكه وتنظيم جماعته، وفي فهمه للطبيعة. وكان يقصد بالدين (المسيحية) وكان يراد من المسيحية الكثلكة) وكانت الكثلكة تعبر عن (البابوية)، والبابوية نظام كنسي ركز (السلطة العليا) باسم الله في يد البابا، وقصر حق تفسير (الكتاب المقدس) على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى، وسوى في الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وأفهام الكنيسة الكاثوليكية[26]...".

فتحول المجتمع لطبقتين لا ثالث لهما ؛سادة (وهم الملوك وأترابهم من النبلاء ورجال الدين) وأقنان[27]، وكانت قوانين الكنيسة الخاضعة للأهواء المحضة هي التي تحكم حياة المسيحين بدعوى أن الكنيسة هي ممثلة الله في الأرض، وأن الاعتراض عليها هو اعتراض على منهج الله ومحاربة لسلطانه، ليصل بهم الأمر لأن يبيعوا لرعاياهم السذج النار والجنة، وتنتشر صكوك الغفران في منافذ بيع للكنيسة الكاثوليكية، و كانت تلك الصكوك السبب المباشر في قيام ثورة التصحيح البروتستانتية على يد مارتن لوثر عام 1517م) ، لتتحول حياة الغربيين في تلك الفترة لجحيم مستعر.

---

[25] رسائل بولس لأهل رومية(13-1)

[26] (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، (ص 279) من الطبعة الثامنة.

[27] (جمع قن، وهو لفظ أطلق على عامة الشعب وهو مساوي للفظة عبد، وكان هؤلاء الأقنان يعاملون معاملة العبيد فيباعون ويشترون ضمن الاقطاعيات التي كانوا يعملون فيها، ولا يوجد لديهم أي حرمة أو حقوق)،

ومن أهم العلامات الفارقة في التجربتين الإسلامية والمسيحية هو أن المسلمين يفرقون بين الدين الذي هو منهاج الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، باعتبار واضعه هو الرحمن جل وعلا، وبين المتدينين الذين هم مجرد بشر ناقصين، وبطبيعتهم خطائين، يحاولون التماهي مع منهج الله الكامل، وعليه فإن أي نقص أو خطأ في أفعالهم أو تصوراتهم لا ينسب إلى الدين بل إلى ضعف نفوسهم، ولذلك تصك القاعدة الأصولية (الحق لا يعرف بالرجال ولكن أعرف الحق تعرف رجاله)، وعليه لا يوجد رجال دين بالمعنى الذي شاع في أوربا إبان العصور المظلمة، بل علماء ومتفقهة يخطئون ويصيبون.

ورجال الدين أو الكهنوت في التجربة المسيحية تعنى احتكار التحدث باسم الله وتفسير كتابه المقدس؛ لذلك كانت الاناجيل لا تكتب إلا باللغة اللاتينية المقدسة حتى لا تكون قراءتها وفهمها في متناول العامة، ورجال الدين هؤلاء هم المتحالفين مع السلطة والتي كانت تحكم باسمهم، لذلك كانت الدولة الدينية بمفهومها الثيوقراطي حالة خاصة بالغرب لم يشهدها الإسلام في أي فترة من تاريخه.

وبناءً على استغلال الكنيسة لسلطتها الدينية لتحوز ملذات الدنيا بأكملها، وباعتبارها لسان الله الناطق كذلك تشوه مفهوم الله عند المسيحيين باعتباره في حالة عداء وصراع مع الإنسان حتى ندم الله -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا- بخلقه لهذا الإنسان المفسد في الارض : "وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ فِكْرِ قَلْبِهِ يَتَّسِمُ دَائِماً بِالإِثْمِ، فَمَلأَ قَلبَهُ الأَسَفُ وَالْحُزْنُ لأَنَّهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ . وَقَالَ الرَّبُّ: أَمْحُو الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالزَّوَاحِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي خَلَقْتُهُ[28]".

ليصفوا الله بناءً على هذا التصور بالنقص ؛ فهو لا علم له بما سيكون عليه هذا الإنسان، بينما كان الله في الدين الإسلامي منزه عن كل نقص، متعالي عن كل عيب، له كل صفات الجمال و الكمال سبحانه وتعالى.

---

[28] الإصحاح6 : العدد 5-8)

ولأنه كما قلنا أن الإدراك البشري لا ينفصل أبدًا عن خبراته السابقة، كما إنه محكوم بالتحيزات الذهنية والمعرفية؛ فقد أدت هذه التجربة الشنيعة إلى الثورة على الدين بكامله، ومحاولة التملص منه بكل الطرق الممكنة فأدى ذلك لإنتاج نظريات فلسفية تقدس الانعتاق الذي أسموه الحرية، وتدعو له.

وانبثقت عن تلك النظريات والفلسفات أُطر كلية تحكم حياة الناس في كافة مناحي الحياة، وتصيغ لهم طرائق للحياة يكون فيها الهوى هو المقدس الوحيد للنفس البشرية في مسيرتها على الأرض.

و بعدما رسخت تلك الأفكار، استدعي الأمر وضع قيد وحيد حددته الليبرالية كحاجز يوقف توغل الأفراد على حقوق غيرهم، ويحد من غلوائهم؛ وهو الدولة وما تملكه من سلطات لتطبيق القانون باعتباره الأساس الوحيد الصحيح الذي يستطيع أن يمثل ضابطًا حرًا للأفراد باعتبار أن تشريعاته هي من وضع الأمة، والتي هي صاحبة السيادة الوحيدة.

هذه الفلسفة التي أعلنت القضاء على الرب فيما سبق سكت بمقولتها هذه وسيلة للقضاء على الإنسان باعتباره مجموعة من الفضائل الاخلاقية، وسلبت منه القدرة على تحديد الخير والصلاح فضلًا عن إيتائه. وبالتالي فإنها استطاعت وبحق كما وصف هوبز أن تجعل (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان).

فالليبرالية في حقيقتها قدمت أوضح الصور لما تخيله فلاسفتها الأوائل عن النفس البشرية الرديئة والحيوانية، واستطاعت أن تجسد ذلك أمرًا واقعًا من خلال فلسفتها.

إن الليبرالية لا تمثل مجرد فلسفة سياسية كما يعتقد البعض، بل انها رؤية شاملة لفلسفة الوجود، وتقدم تصورًا واضحًا للأسس الثلاثة الوجودية (الله-الطبيعة-الإنسان).

وجوهر هذه الفلسفة يقوم على الصراع والعداء مع جميع الأسس الوجودية، ففي البداية أسقطت الله من المعادلة باعتباره فكرة خرافية ابتدعها الإنسان المتخلف لعجزه عن تفسير ما يجري حوله، ثم أصبحت مجرد وسيلة يستخدمها الملوك والجبابرة لحكم الناس باعتبارهم وكلاء الرب، وفي النهاية أصبح الرب هو الشرير في معادلة صراعه مع الإنسان، يقول برتراند رسل: «إنَّ الآلهة في الأمم كلّها تزعم أنَّها خلقت العالم؛ أمَّا آلهة الأوليمب فلا يتقدمون لأنفسهم بمثل هذه الدعوى، وغاية جهدهم أن يفتحوا العالم غزوًا ... فلماذا يؤدون أي عملٍ شريف؟ إنَّهم وجدوا أنّهم أيسر لهم أن يعيشوا على الضرائب يفرضونها، وهم يصعقون بالصواعق من لا يدفع لهم ما يستحقون؛ إنّهم رؤوس غزاة، وقراصنة تجري فيهم دماء الملوك؛ وهم يقاتلون ويأكلون ويلعبون ويعزفون الموسيقي؛ إنهم يسرفون بالشراب ويقهقهون بالضحكات سخرية بالحدّاد الأعرج الذي يقوم بخدمتهم؛ إنَّهم لا يخشون شيئًا إلا مَلِكَهم، وهم لا يكذبون أبدًا إلا فيما يمس الحب والحرب».

وقد صاحب التاريخ الأوربي قديمه وحديثه نظرة عدائية وشكوكية للدين منذ الاغريق القدماء الذين صورا الآلهة بأنها في عداء دائم مع البشر، ونعتوها بأسوأ الأوصاف التي يوصف بها أوغاد البشر وأسافلهم، مرورًا بالسفسطائيين – رغم نقد السفسطائيين في التاريخ الاوربي باعتبارهم أعداء الحقيقة إلا أن مقولاتهم المركزية تمثل قواعد الفكر الغربي الحديث- الذين ادعوا أن الدين من اختراع البشر كغيرها من الأكاذيب، مرورًا بفلاسفة النهضة الذين عدوا الدين هو السبب الرئيسي في عصور الظلام المريرة التي مرت بها أوربا، وانتهاءً بفلاسفة القرن التاسع عشر الذين عدوا الدين أفيون الشعوب و أداة للسيطرة الطبقية على العالم، وكما قال ماركس إن الدين سيختفي باختفاء آخر فقير من على الأرض!.

أما في نظرتهم للطبيعة فلم تختلف زاوية النظر عن تلك النظرة العدائية التي ترى في الطبيعة عدو للإنسان، ولذلك فالإنسان الأوروبي يسعى للسيطرة على الطبيعة، وترويضها، وإخضاعها وغيرها من المصطلحات التي تبين مدى عمق العلاقة العدائية التي ينظر بها الغربي الحديث للعالم

الذي يعيش فيه، فهو لا يرى العلاقة مع العالم من حوله إلا كعلاقة عداء وصراع، ويحكم تلك العلاقة منطق المعادلات الصفرية فأحدهما غالب والآخر مغلوب!.

وفي كتابه الإمبريالية البيئية يقول كروسبيcrosby إنه في أي مكان وصل إليه الأوربيون، كانوا يبدئون فورًا وبصورة متعمدة في تغيير البيئة الطبيعية المحلية بهدف تحويلها لتأخذ شكل البيئة التي تركوها خلفهم، كانت هذه العملية بلا نهاية، إذ حولت كميات ضخمة من النباتات والحيوانات والمحاصيل وطرق البناء والمناطق الخاضعة للكولونيا لية إلى أماكن جديدة فيها أمور جديدة، كالأمراض وانعدام التوازن البيئي والاجلاء القسري العنيف للسكان المحليين المغلوبين على أمرهم.[29]".

أما نظرة تلك الفلسفة للإنسان فترى في الآخر الشر المطلق –الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، أو أدنى خلقيًا -كما في النظرة الداروينية – وبالتالي يجوز قتله وتسخيره لخدمة الإنسان الأعلى في السلم التطوري، وهو الغربي بالطبع.

أو ترى في الآخر إنه عبء يجب التخلص منه بنفيه، أو قتله، أو ابادته كما حدث في التاريخ الأوربي الحديث، سواء في العالم الجديد الذي قام على أشلاء السكان الأصليين في كلا الأميركتين، واستراليا، أو كما حدث ويحدث من احتلال استيطاني أو احلالي كما في فلسطين وجنوب افريقيا.

أو النظر للآخر على إنه مجرد مادة استعمالية كغيرها من المواد التي يجب تسخيرها لخدمة هذا الأوروبي في مناحي الحياة المختلفة بعد أن يتم تجريده من انسانيته وسلب موارده.

وهذه النظرة ليست مقتصرة على الآخر\العدو\المختلف، وإنما تمتد لتشمل كل إنسان بمعناه العام؛ ليصبح الآخر أيًا كان مجرد وسيلة لتحقيق رغبات الأنا اللاهثة خلف المتعة ولا يشبعها شيء أبدًا، وعليه تصبح

---

[29] قصور الاستشراق ص120 وائل حلاق

الأسرة نوع من الأسر الذي يجب التحرر منه ومن التزاماته، ويصبح الأطفال قيد على حرية الحركة فيجب عدم إنجابهم أو التخلص منهم بأي وسيلة كانت، وعليه تشرعن الدول الأوروبية الاجهاض، وتنشأ صناديق الأطفال[30] ، وبناءً على هذا تزداد معدلات الشيخوخة مقابل معدلات الأطفال، وتترسخ ثقافة الاستقلالية، واعتماد الطفل على ذاته منذ سن صغير، وتخلي والديه عنه عندما يصل لسن المراهقة؛ كل ذلك حتى لا يتحمل الآباء أعباء تحد من حريتهم في طريقهم للعدو خلف المتع المستحقة بصكوك الحرية التي جلبتها لهم الليبرالية.

وفي المقابل يصبح الآباء في تلك الفلسفة مصدرًا للمال، ووسيلة لإشباع حاجات الطفل المادية وفقط، ولا يعد من حقهم تلقينهم أي قيم أو مبادئ خلقية أو روحية لأن ذلك يعد جورًا على الحرية الطبيعية التي يولد بها البشر، واعتداءً على حقهم في الاختيار الحر بعد ذلك.

وهؤلاء الآباء عندما يكبرون بدورهم يذهبون اختيارًا لدور العجزة والمسنين التي تنتشر في طول البلاد وعرضها بعدما فقدوا صلاحيتهم في إضافة شيء للحياة بالمعنى النفعي المادي، بينما يفضل آخرون إنهاء حياتهم باختيارهم في المشافي ليكون (الموت رحمة) بتعبيرهم هم، عن حياة يشكلون فيها عبئًا على أنفسهم، وعلى الآخرين الذين ملوهم بدورهم.

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لأفراد الأسرة النووية الصغيرة فالحديث عن علاقات عائلية أبعد كالأعمام والخالات يعد ضربًا من الترف إذا أن هؤلاء (البعيدين) قد سقطوا من الحساب منذ وقتٍ طويل.

وعليه فإن هذه الفلسفة وما يتمخض عنها من قوانين تقدس الفردانية المتحررة من الواجبات والحقوق تجاه العائلة؛ تفسد أواصر العلاقات بين العائلات، وتهدم حتى الأسر النووية الصغيرة مما يفضي في النهاية لهلاك المجتمع الإنساني لذلك يقول باومن إن "الحداثة فككت المجتمع

---

[30] وهي صناديق يوضع فيها الاطفال فور ولادتهم حال عدم رغبة الأهل بهم، ومن ثم تأخذه الملاجئ :ظهرت هذه الفكرة1952 بهدف توفير مكان آمن للأطفال اللقطاء بعدما زادت نسبتهم وتوفى عدد كبير منهم بسبب إلقائهم في القمامة أو في الشوارع، وبادت ألمانيا بتنفيذ هذه الفكرة منذ عام 2000 التي ينتشر فيها اكثر من مائة صندوق بطول البلاد)

بمعناه العضوي التضامني، وجعلت مشهد الوجود الجسدي هو مسرح الحياة اليومية[31]".

إن فلسفة للعالم تقوم على هذا الافتراض المريض لهي نظرة هادمة للعالم، وداعية لخرابه وتدميره، لذلك ليس من العجب في شيء أن يصبح معنى السيطرة على الطبيعة مساوي لمعنى الاستغلال قصير الأمد، والتلوث البيئي، والتغير المناخي، وكل ما من شأنه أن يحقق الإشباع الفوري للجيل الحالي حتى على حساب الأجيال اللاحقة والكوكب كله.

لذلك تنفق تلك الدول مليارات الدولارات لاستكشاف الفضاء باعتباره الملاذ الآمن بعد أن يستكملوا مهمتهم في تخريب الأرض، تلك المهمة التي بدأتها منذ زمن ليس ببعيد ونرى مدى نجاحهم فيها واضحًا للعيان!.

[31] ص13" الحب السائل

العلمانية

نشأت العلمانية في المجتمع الغربي- بحسب علماء الاجتماع- بسبب تحول المجتمع من سمته الاقطاعية إلى السمة الصناعية، وكل مجتمع حسب رأيهم تسيطر فيه الآلة يستغنى تدريجيًا عن الله!

ويفسرون ذلك بأن المجتمع الصناعي-الذي نشأ في الغرب- أعاد ترتيب المجتمع على أساس مؤسسي، فبعدما كانت الكنيسة هي المؤسسة الكبرى والوحيدة التي تصيغ دور الأفراد والجماعات، وتحدد وظائفهم لثقلها الديني والمالي عن طريق تنظيم الاقتصاد وجباية الضرائب، أصبح هناك مؤسسات أخرى كبيرة لها نفوذ مالي، وتلك المؤسسات أصبحت تصيغ حياة الأفراد الذين يعملون فيها، وأصبحت تدير مركزهم المالي؛ مما يعني بالمحصلة سحب البساط من تحت يد الكنيسة ليستقر تحت يد المصنع، وهكذا ينسحب الإله تدريجيًا ليصبح أحد مجالات الحياة وليس مركزها الرئيس.

وبذلك يضعف الدين عبر مراحل ثلاث:

1- **بعد أن يكون هو المؤسسة المركزية التي تدير المجتمع، وتتحكم في سياقاته، وتحكم علاقاته؛ يتحول لمجرد مؤسسة ضمن مؤسسات المجتمع، ولكن ما تزال له الهيبة وله ثقل في المجتمع وعلى المؤسسات الأخرى.**

2- تتنامي المؤسسات الأخرى بينما يظل الدين قابعًا في مساحاته، لا يتخطى حدودها بسبب حاجة الناس للمؤسسات الأخرى في معايشهم، بينما تصبح المؤسسة الدينية مجرد هيئة تخدم باقي المؤسسات والأفراد بشكل روحاني، واستشاري دون أن يكون لها مبدأ المبادرة والتقدم.

3- وهنا تترسخ العلمنة عندما يتحول الدين لمؤسسة هامشية تقتصر على الجانب الروحي للأفراد، وتنسحب من كافة المساحات الأخرى وعلى رأسها تنظيم الحياة الاجتماعية.

ويعرف تشارلز تايلر العلمنة باعتبارها تطلق على مفاهيم ثلاثة

أولها: أن العلمانية هي "وضع تكون الفضاءات العمومية مفرغة من الله تعالى، بالإضافة إلى افراغ الدين من الدوائر الاجتماعية المستقلة"، ويعني بهذا الكلام أن هذا العصر هو عصر متعالي على المقدس، فالدين وتدخلاته في الحياة السياسية، أو حتى مجرد تنظيمه للشئون الاجتماعية هو عودة لعصور ما قبل الدولة الحديثة.

فالسياق التاريخي الذي ذكرناه يوضح المأزق الذي وقع فيه الغربي نتيجة لاتصال السلطة الزمنية بالسلطة الروحية، وأن العلمانية ما هي إلا فك هذا الترابط بين السلطتين، والقول بغير ذلك –طبقًا للعمانية- هو جر أذيال العالم للخلف من جديد.
وهذا لا يعني القضاء على الدين تمامًا بحسب وجهة نظرهم، وإنما يعني حصر الدين في الفضاء الخاص بالأفراد، أي اقتصاره على الطقوس التعبدية الفردية، دون أن يخرج خارج حدود الفضاء الخاص للأماكن الخاصة بالأفراد.

ثانيهما: المعنى الثاني وهو فصل الكنيسة عن الدولة، وهذا المعنى يقصد به أن تنظم الكنيسة بعض الطقوس التعبدية في إطار مساحات خاصة دون أن تصطدم بالفضاءات العمومية للدولة، وهذا المعنى أوسع من سابقه.

فالأول يعني موت الكنيسة نهائيًا، والثاني يقصر وظيفتها على بعض الشئون الروحية في سياق محدد لا تخرج عنه.

ثالثهما: وهو رأي تايلر ويقول فيه إننا بتنا نعيش في العصر العلماني بعدما سيطرت الحداثة على طرائق معيشتنا، وليس بأي من المفهومين السابقين، وإنما بمفهوم جديد وهو أن الإله الذي كان متعالي على الزمن وخارجه، أصبح منطويًا تحت لوائه.

ويعني هذا أن الإله الذي كان مسيطرًا على حياة الناس ومعايشهم في زمن دولة الكنيسة، أصبح اليوم مجرد فكرة يحتويها الزمن، إن آمنت بها فلن تؤثر كثيرًا على نمط حياتك في الفضاء العام الذي تقوده الدولة؛ فالله في الزمن الحديث محصورًا في قالب الفكرة المجردة دون أي تبعات أخرى، وطبقًا لذلك فتعاليم الله معطلة ومجردة من كل فعالية، فالاقتصاد نحن كبشر من نضع مناهجه وليس هناك قيود مفروضة كالربا مثلاً كما كان في عصر الكنيسة.
وفي الحياة الاجتماعية لن يملي الله عليك كذلك أي قواعد أخلاقية لإدارة نظام معيشتك وعلاقاتك مع الآخرين، فالله فكرة كأي فكرة أخري، لا يستلزم الإيمان بها أي قيود أو توابع على السياق العام، وإنما تكيفها أنت المؤمن بها حسبما تشاء.

فالدين بذلك المعنى الذي صاغه تايلر لا يعتبر ذلك الإيمان الغيبي المتجاوز، وإنما يصبح مجرد فكرة مثل مثيلاتها من الأفكار التي يؤمن بها المرء، وتصوغ له حياته بشكل ما.
وهذا التعريف هو بلا شك نزول بالدين عن مرتبة المقدس الذي يعلو ولا يعلى عليه باعتباره (فكرة) دنيوية، ليصبح الإنسان هو المركزي في تلك الحلقة بتبنيه مفهوم الإله أو تفضيل بدائل أخرى عنه، متساوية معه وربما أفضل منه!.

وبمعنى آخر يصبح هناك الكثير من الأفكار التي نتبناها وتخط حياتنا يمكن أن نطلق عليها (دين)، فلم يعد الدين ذلك التشريع الإلهي الذي لا يستطيع أن يتجاوزه أحد، وإنما يصبح طريقة ونهج يختارها الإنسان بإرادته الحرة دون أن يكون هناك أي ضريبة على تبديل تلك الخيارات إن أراد الإنسان ذلك.

ومن الآراء المثيرة التي أتبناها حول العلمانية هو ربطها بالدولة، مما يعني أن السياق التاريخي الذي نشأت فيه الدولة القومية الحديثة في أوربا هو ذات السياق الذي نشأت فيه العلمانية باعتبارها عهد جديد يؤصل لقيام دولة بالمعنى السياسي المستقل عن الكنيسة، وقيام المواطن بالمعنى السياسي المستقل عن المسيحي المؤمن في العصور الوسطى.
ومعنى هذا الكلام أن الدولة أرادت أن تحل محل الدين بصيغة ملتفة، لذلك يقول كارل شميت " جميع المفاهيم في الدولة الحديثة هي مفاهيم لاهوتية معلمنة"، و يوافق الرأي طلال أسد فيقول " العلمانية هي اشتراع يعيد بواسطته توسط سياسي ما ممارسات معينة ومتمايزة للذات مبنية على أساس الطبقة والجندر والدين ويتعالى عليها[32]" .

ويعني ذلك أن الإله كان هو المتعالي على الكون في عصور سابقة، أما الآن فالدولة هي المتعالية على الناس، فتصيغ لهم واقعهم، وتعيد تعريفهم لأنفسهم عبر تسميات وصفات تحدد بها هوية المواطنين المنضوية تحت لوائها، ثم تضع القوانين والتشريعات التي كانت وظيفة الإله سابقًا فتحدد الحلال والحرام بمسميات قانونية، وغير ذلك من الاجراءات الكثيرة التي تعيد بها تسيدها وضبط المواطنين المنضوين تحت لوائها، وتشكيلهم طبقًا لفلسفة تتبناها سابقًا بحيث تحصل منهم في نهاية الأمر الإيمان بها كمواطنين صالحين، والكفر بما عداها من آلهة أخري\دول أخرى، وفي حال ثبت من مواطن العكس أصبح عقوبته الموت لخيانته، وهي ذات التهمة التي كان يعاقب بها المرتدون والهراطقة والرافضين لسلطة الإله فيما سبق.

وهي بالتالي احتلت محل الإله، فالإله لم ينتهي عصره كما يعتقد البعض وإنما قد حل في الدولة التي سطت على اختصاصاته!
وترجع إشكالية تلك العلمانية مع الإسلام في إنها تحصر الإسلام في تصور معين تميله عليه، حتى يتفرغ الإسلام من مضمونه ولا يعدو أن يكون سوى مجموعة من الطقوس الجوفاء.

ومن وجهة النظر الإسلامية، فإن الدين هو في طبيعة الإنسان وفطرته، وليس شيئًا مضافًا إليه بالصدفة.

---

[32] (تشكلات العلماني، ص25)

وهو ليس ترفًا، بل هو علة وجود الإنسان. والدين وحده هو الذي يسبغ على الحياة البشرية كرامتها، التي تتيح للإنسان أن يحيا كامل الحقيقة، أو الفطرة، أو الطبيعة، التي أسبغها الله عليه، والتي وحدها توفر المعنى الغائي للحياة البشرية.
والدين في نظر الإسلام يعتبر ضرورة للوجود الإنساني، ودونه يعيش الإنسان دون ذاته، ويكون إنسانًا بصورة عرضية.
ولا يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته بشكل كلي إلا بالإيمان بالدين، وبقبول الميثاق الأصلي المعقود بين الإنسان والله تعالى.
ومن الصعب جدًا على العقلية الإسلامية أن تتفهم الإلحاد، وأن تتفهم كيف يمكن للبشر أن يعيشوا دون دين، وأن تستوعب كيف يمكن للبشر أن يواصلوا حياتهم على مداها دون أن يشعروا بحضور الحقيقة السامية التي هي الله تعالى.
ومن هذا المنطلق يصعب على كثير من المسلمين أن يروا الناس في العصر الحديث في الغرب خارج نطاق التصنيف كمسيحين أو يهود أو اتباع غير متدينين لديانات أخرى، وأن يروهم كأناس لا يدينون بأي دين على الإطلاق .
فالغالبية العظمى من المسلمين مستمرة في رؤيتها للدين باعتباره ركنًا أساسيًا راسخًا للحياة البشرية"[33]

فالعلمانية في كل صيغها وتعريفاتها تحصر الدين في الفضاء الخاص، ولو تساهلت كثيرًا فإنها تبيح للدين ممارسة شعائره بحرية دون أن يتجول في مساحات أخروية، أو يحاول التوغل في مساحات اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية تعتبرها الدولة من ضمن حدودها.

وبمعنى آخر فإن الإسلام الذي هو عقيدة يؤمن بها الناس قلبًا، وشريعة يطبقها الناس كمنهاج حياة يغطي كافة المساحات في حياتهم؛ ترفضه العلمانية رفضًا قاطعًا لأنها تعتبره عودة إلى عصور الكنيسة الظلماء، دون أن تفرق بين المنهجيين أو التجربتين.

[33] دليل الشباب المسلم في العصر الحديث، ص17

الديمقراطية

يقال أن الديمقراطية نشأت في الغرب نتيجة انتشار حركة التنوير العقلانية، وسيطرة القيم الليبرالية الناتجة عن انتشار الحرية، واندحار الفكر الأصولي الذي تسبب في عقود ظلام مديدة في أوروبا، وعليه كانت الديمقراطية هي الثمرة اللذيذة التي لم يأتي الزمان بمثلها ،ولم يتفتق العقل البشري ليبدع ما هو أفضل منها!

تعبر الديمقراطية في النظام السياسي عن فكرة المساواة ،فجميع المواطنين متساويين في الحقوق السياسية، وعليهم ذات الواجبات.

ولكن إذا عكسنا منظار الرؤية قليلاً لتبين لنا أنه هنا بالتحديد تكمن الكارثة الكبرى!

فالمساواة لا تعني دائماً العدل ،بل في بعض الأحيان قد تجسد الظلم البين كما في هذه الحالة.

النظم الديمقراطية تجعل الناس متساوين في حقوقهم السياسية بغض النظر عن مستواهم العلمي، أو الفكري، أو الثقافي.

وهذا يقود في المحصلة إلى سيطرة نخبة قليلة تستطيع قيادة الدهماء إلى ما تختاره من قرار سياسي بفضل قدرتها على امتلاك رأس المال الذي تستخدمه في توجيه الإعلام، والذي بدوره يقود الجماهير نحو اختيار تلك النخبة.

وهنا تتجسد المصيبة الكبرى للنظام الديموقراطي.

ولكن دعونا نتفق أن المقابل للاستبداد لا يساوي بأي حال من الأحوال الديموقراطية، ومن يعتقد ذلك فقد وقع في خلط كبير.

فالاستبداد يقابل الحرية ،والحرية لا ترادف بالضرورة الديمقراطية بل قد تقابلها كما هو الواقع في العصر الحديث.

فالاستبداد في العصور الملكية أو عصور ما قبل الدولة الحديثة كان أفضل حالاً من ديمقراطية اليوم على مستويات عدة، وأول هذه المستويات هو مقاومة الاستبداد ذاته!

ففي ظل النظم السياسية التقليدية، ومع وجود تفاوت كبير في الطبقات الاجتماعية كانت مقاومة عامة الشعب للسلطة السياسية شديدة.

وكان يُنظر للطبقة الحاكمة مهما بلغ عدلها ومحبتها عند جموع الشعب على إنها تسعى لمصالحها الشخصية في المقام الأول.

وعليه كانت الأمة متيقظة، تقاوم كل تغول للسلطة الحاكمة على مساحات الشعب .

أما في ظل النظام الديموقراطي فإن الطبقة الحاكمة تحكم باسم الشعب، وبالتالي يظن الجميع أن الدولة تمثله ،وفي ظل تلك الرؤية الضبابية تختل المساحات، وتدريجياً تحتل السلطة كل المساحات التي كانت مملوكة للشعب سابقًا دون أدني مقاومة منه أو انتباه كذلك، لأنه لن يقاوم نفسه بكل تأكيد!!

وما يحبب الناس في النظم الديمقراطية هو تخيلهم أن هذه النظم تحقق لهم كثير من المنافع والامتيازات.

ففي النظم الديمقراطية تسمي الدولة نفسها (دولة الرفاه) أو(دولة الرعاية) ،فهي تتكفل بالمواطن فتقدم له الاعانات، ومعاشات الضمان الاجتماعي ،وكثير من الخدمات ذات الجودة العالية والتي تحتكرها الدولة بالطبع.

وفي حقيقة الأمر فإن الدولة لا تفعل ذلك إيماناً منها برفاهية المواطن، أو سعيًا من جانبها إلى إسعاده وإمتاعه.

الهدف الاول والحقيقي وراء ذلك هو جعل المواطن في حالة من العجز والاحتياج الدائم للدولة.

وعجزه عن سد احتياجاته الأساسية دون الدولة يجعله غير مستعد أبداً لمقاومتها أو الثورة عليها، لأنها ملاذه الآمن وملجأه الوحيد، وبذلك تكون الدولة حققت النجاح الذي تريده بوأد سبل الثورة عليها، لذلك يقول فردريك باستيا :"يرغب الجميع في العيش على نفقة الدولة لكنهم ينسون أن الدولة ترغب في العيش على حساب الجميع".

وبعد توسع سلطة رأس المال انكمش دور الدولة، وتنامت معدلات العولمة التي بزغ نجمها مع الحقبة الامبريالية، ومع اكتشاف الأسواق الجديدة توسعت سلطة رأس المال لتصطدم بالدولة؛ حتى حدثت المعركة المحتومة بين السلطتين لتتنحي سلطة الدولة جانباً تاركة المواطن الفرد وحيداً أمام توحش السوق واستغلاله، وانسحبت الدولة بعيداً لتحافظ على بقايا سلطتها المفقودة، لتكتشف أخيراً بأن أخص خصائص سلطتها قد سلب منها، أما سيادتها فأصبحت رهنًا بمزاج السوق وتقلبات أهواء أصحابه؛ فاكتفت حينها بأن تلملم بقاياها وتحافظ على باقي مكاسبها فلم تجد غير المواطن لتفرض سلطتها المسلوبة عليه، وحينها أصبح المواطن وحيداً بين سندان الدولة ومطرقة السوق.

وإن كانت السلطة (القدرة على فعل الاشياء) والسياسة(القدرة على تحديد الاشياء التي يجب فعلها)[34] منذ الأزل في زواج كاثوليكي مقدس لا تنفرط عقدته إلا بموت أحدهما فإنه في سابقة غريبة من نوعها انحلت

---

[34] حالة الأزمة، زيجمونت باومن

عرى السياسة عن السلطة في الدولة الحديثة لتصبح رهناً بمزاج السوق المتقلب، وصانع تسويات للأزمات التي يصنعها دون أن تكون قادرة أبداً على حلها.

وهو ما عبر عنه روبرتو أونفر بقوله "تظل مثلنا العليا ومصالحنا دائمًا رهينة للمؤسسات والممارسات التي تمثلها في الحقيقة، وبعد المغامرات والصراعات المفجعة للقرن العشرين، وسقوط العديد من آمالها اليوطوبية تجد الإنسانية نفسها مربوطة إلى ذخيرة محدودة للغاية من الخيارات المؤسسية لتنظيم كل أجزاء حياتها الاجتماعية[35]".

لتتحول الديمقراطية بذلك المعنى من اختيار القادة السياسيين الذين يحققون مصالح الأمة، إلى اختيار مدراء الشركات الأكثر سيطرة على عقول الجماهير من خلال سطوتهم الاعلامية والفكرية، وتتحول الدولة\السياسة إلى السوق\الاقتصاد، وحينها تنتهي قيم المواطنة وتبدأ قيم الاستهلاك.

و بفضل الديمقراطية وما يعنيه ذلك من حكم الشعب لنفسه اكتسبت الدولة الحديثة القدرة على التشريع ،وسن القوانين وهو مالم يكن موجوداً من قبل.

فجل ما كانت تفعله السلطات في ظل النظم التقليدية هو تطبيق القوانين الموجودة بالفعل "القانون العام" لا خلق قوانين جديدة .

ويكمن الخطر في هذه الحالة في أن القوانين التي تنشئها الدولة هي إما قوانين مستوردة (في حالة الدول العربية ما بعد الاستعمار) أو قوانين مخترعة من جانب طبقة لها أنماط ثقافية مختلفة عن جموع الشعب (في حالة الدول الغربية) ، فضلًا عن تغير المشرعين طبقًا لتغيرهم الدائم واختلاف أهوائهم.

---

[35] يقظة الذات، ص214

وهذا يؤدي في النهاية إلى اعتباطية القانون ذاته، فما يكون مجرم بالأمس يكون مباح اليوم، وينتج عن ذلك سيولة كبيرة فيما هو حق و صواب، أو باطل و خطأ .

هذه السيولة بدورها تؤدي إلى فساد الشعب تدريجياً وعدم إيمانه بأي مبدأ أخلاقي، أو التزامه بأي قانون وضعي وهذ ما يحدث الآن.

وحين ذلك تتحول الدولة لمعسكر كبير، فبدلًا من اللافتات التي روجتها عن نفسها كدولة رعاية، و دولة رفاة اجتماعي ، تتحول إلى معسكر كبير، وتسعى لمراقبة المواطن في كل وقت، وتسعى لفرض السيطرة بكل وسيلة ممكنة، و كما يقول الدكتور سيف الدين عبد الفتاح "أصبح الكمين يعبر عن حالة مرورية وأمنية في آن واحد بعدما كان يعبر عن حالة عسكرية محضة" .

وكما في دولة الأخ الأكبر في رواية ١٩٨٤لجورج أورويل يكون جميع المواطنين موضع اشتباه ،فهم تحت المراقبة دائما وأبداً.

ففي ظل الدولة ما بعد الويستفالية واحتكارها لمفاهيم مثل الأمن، والنظام العام، وسلطة القانون يصبح المواطن دائماً عرضة للاشتباه، وله دور محدد يؤديه في هذه الحياه ولذلك هو مراقب دائماً سواء من أجهزة الدولة الأمنية أو التقنية، وتدريجياً يتولد عن ذلك النظام دولة (الأخ الأكبر) التي تحصي على الناس أنفاسهم وهمسهم.

ويصبح مجرد رفض النظام، أو الخروج حتى عن مراقبة الدولة جرم كبير يستوجب العقاب كما حدث مع روبي ريدج عام 1992.

ومن المفارقات الجديرة بالنظر إنه في ظل النظام الامبراطوري القديم كانت الممالك تسعى لتوسيع حدودها، ومنافسة بعضها البعض، وما يعنيه ذلك من ثروات أكبر، ورعايا أكثر تفرض عليهم الضرائب ليصب ذلك في خزائن الأسرة الحاكمة.

وعليه كان يُنظر لتلك الحروب التوسعية من جانب الشعب بأنها حرب الملك فقط ،فلا يشارك فيها الشعب لا بعدة ولا عتاد(إلا إذا كانت حروب عقدية وكان المتطوعين من الشعب يشاركون طوعًا لا قسرًا، أملا في ثواب أخروي)، ولا جنود ولا رجال ويتحمل كلفتها الملك وحده سواء بالسلب أو بالإيجاب.

أما في ظل النظم القائمة، فباسم الديمقراطية تقتطع نفقات الحروب من قوت الشعب، ويختطف الشعب قسراً ليشارك فيها تحت مسمي (التجنيد الاجباري) دون أن يكون للشعب في النهاية ناقة ولا جمل في كل هذا الصراع .

ولكن لابد أولاً وأخيراً من تلك الحروب لفوائد عدة أهمها

أولاً: تصريف فائض القوة العسكرية لتدعيم بنى اقتصادية بعينها، في مقابل تدمير بنى اقتصادية أخري، وفرض السيطرة على العالم من جانب الفاعلين الأساسيين.

وثانياً: إشغال الشعوب عن معاركها الحقيقة وتركيز بقعة الضوء دائماً على الحرب المشتعلة لأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

وثالثاً: وهو الأهم؛ مقاولات الحروب مفيدة ومربحة للنخبة لكي تزيد ثروتها المتضخمة بالأساس.

منظور نقدي

بينما يرى البعض أن النظام الديمقراطي جيد ولا تكمن الإشكالية فيه، بل تكمن في كيفية تشغليه بالأساس، فإن كان الشعب واعي وذكي استطاع تشغيل الآلة باحترافية وتلافي أعراضها الجانبية المدمرة كما يقول سيدنى هوك "النظام الديموقراطي جيد لكن لابد أن يُتعامل معه بفاعلية كبيرة، أحد المتطلبات الإيجابية لديمقراطية فعالة هي عدم ثقة زائدة بالقيادة، وشك عنيد لكنه ليس أعمى بكل المطالب بتوسيع السلطة،

وتأكيد الطريقة النقدية في كل مرحلة من مراحل التعليم والحياة الاجتماعية

هذا الشك، مثل أشكال أخرى من اليقظة ،قد يبدو أحياناً مزعجاً للزعماء المقتنعين بنواياهم الحسنة، وهذا الشك ،على أي حال، ليس بنواياهم بل بالتبعات الموضوعية لسلطاتهم"

بينما يرى آخرون أن الاشكالية تكمن في الآلة نفسها التي أصدرت منتجات مدمرة كان على رأسها النظام الديمقراطي، كما يرى ليثموثي ميتشل "لا يشير الاستعمار في حركة المعرض إلى مجرد وجود واقع استعماري أوروبي ،بل إلي تطور مناهج جديدة للسلطة السياسية، وهذه المناهج هي جوهر كل سلطة سياسية حديثة.

يوتوبيا النهاية

رسخ العصر الحديث فكرة مركزية الإنسان –ثم عاد فهمش الإنسان- وأوهمه بالكمال المطلق، والسيطرة التامة على نفسه والعالم من حوله، وأن النقص البشري وما يستتبعه من خطايا يقترفها الإنسان كان من زمن قديم ولى وانتهي، فاعتقد المرء في نفسه الكمال المطلق، ووثق في عقله أيما ثقة.

ثم جاءت الحداثة فهدمت سلطة العقل، وهمشت الإنسان، وأسقطت المبادئ، ومحت القيم، وأصبحت مشكلة العصر الحديث أن الإنسان لم يعد يجد النماذج التي يهتدي بها في رحلته الطويلة، بل أصبحت سياسة الحياة الاعتباطية هي التي تؤطر للحدود، وتضع النماذج بعدما تفرض نفسها على أرض الواقع.

ولأن سياسة الحياة متغيرة، فلم يعد هناك نموذج ثابت يستطيع الفرد السير على خطاه، لقد تركنا بمفردنا تمامًا، وأصبح واجب كل منا أن يبني

نموذجه الخاص، ويبني نفسه، ويجعلها مرنة بشكل يجعلها تتأقلم مع كل نموذج يفرض نفسه على الحياة.

هذه الاعتباطية التي صارت تحكم الحياة جعلت الجميع يمقت الحرية باعتبارها مصدرًا الشرور، وإن كان الجميع يتغنى بها باعتبارها موضة العصر الحديث وصانعته، فالمناقشات الحديثة حول الحرية، والتي لا تكون فيها الحرية مفهومة أبدًا باعتبارها حالة موضوعية للوجود الإنساني فيها، إما لأنها تقدم وسائل غير محلولة حول الذاتية لإرادة محددة بشكل تام أو غير محددة، وإما لأنها تقدم بأنها نتيجة لحالة الضرورة، وجميعها توضح أن الاختلاف الموضوعي والملموس بين أن نكون أحرارًا وأن نكون مسيّرين بواسطة الضرورة لم يعد مدركًا[36]"

ولأجل أن يجد الإنسان حائط صد أخير في تلك الفوضى سعى دور كايم لإعادة تشكيل النسق الاجتماعي معبرًا عنه في هيئة المجتمع المتماسك والقائم على قيم المحبة والتعاون بعدما تهاوت الانساق الدينية والاجتماعية القديمة، فحاول إعادة ترميم المجتمع كوحدة واحدة يلتجأ إليها الإنسان كملاذ أخير في وجه شرور الطبيعة من جهة، والسلطة من جهة أخرى.

يقول كايم " الفرد يخضع للمجتمع وهذا الخضوع شرط تحرره، فالحرية بالنسبة للإنسان انعتاق من القوى الطبيعية الهوجاء العمياء، ويتحقق ذلك بوضعها في مواجهة مع القوة العظيمة الذكية التي يملكها المجتمع، فيعيش الإنسان تحت حمايته، ويأوي إليه، وعندما يضع نفسه تحت جناح المجتمع، فإنه يجعل نفسه أيضًا إلى حد ما مستسلمًا للمجتمع، إلا أن استسلامه يحرره، فما من تناقض في ذلك".

ولكن النسق المجتمعي الذي دعا إليه كايم، والذي تحقق ردحًا من الزمن قد تساقط نتيجة دعوات الحرية المتزايدة والتي تعني الانعتاق من كل القيود، وفك كل الروابط، وهدم كل الانساق المعرفية، والدينية، والاجتماعية.

---

[36] الوضع البشري، ارندت ص90

وبدأت تباشير جديدة استفتح بها أنبياء العهد الجديد عصرهم لينتهي الكيجيتو الديكارتي الذي أسس لعصر النهضة ((أنا أفكر، إذاً أنا موجود)) ليتحول ((أنا أملك، إذاً أنا موجود))، كان ذلك العهد الجديد هو عصر الحرية في كل قطاعات الحياة، وعلى رأسها الأسواق المفتوحة، والخيارات المتاحة للجميع مدعومين بحرية الحركة وسرعتها، وتحطم كل القيود وانفلاتها.

ذلك العصر الذي بشر بنهاية الالتزام تجاه كل الأشياء، ليعلن أخيرًا آلان تورين في نهاية الحقبة الحداثية أن " نهاية تعريف الكائن البشري بأنه كائن اجتماعي تتحدد هويته بمكانه في المجتمع الذي يحدد سلوكه وأفعاله"

لتتحول الفلسفة الغربية من (أنا افكر ، أنا موجود) ل (أنا أملك، أنا موجود)، وفي بعض البلدان (انا اعمل، انا موجود).

كما أصبح يقع على عاتق الفرد في المجتمع الحديث أن يصنع هويته بنفسه، فقد مضى العصر الذي يولد به الإنسان وله هوية محددة، إنه عصر التفرد الذي يقرر فيه كل فرد مصيره، وهويته، وحتى جنسه ولونه وجنسيته، فقد تهدمت كافة الأسوار المنيعة التي تفصل بين المتضادات، وأصبحت الحدود هلامية، ومتحركة، ومتجددة على الدوام .

وبتحول الإنسان) الذي يسير بالقيم الاخلاقية المميزة للإنسانية، إلى (المواطن) الذي يهمه مصلحته الشخصية من خلال مصلحة وطنه إلى (الفرد) الذي لا يهمه سوى مصلحته الشخصية ولو على حساب وطنه.

ولذلك تشتد أصوات حقوق الإنسان وهي دعوة عريضة بأن يطلق كل إنسان وشأنه، وليفعل الجميع ما يريد، إنها دعوة للقضاء على الكائن البشري في صورته الإنسانية.

وكما يقول أولريش بيك " يصدر عن القواعد الاجتماعية في أفولها (أنا) عدوانية مرعبة، عارية تبحث عن الحب والمساعدة. وفي بحثها عن نفسها وعن التئام اجتماعي حنون تتوه بسهولة في غابات الذات....

ومن يفتش في غابات الذات لم يعد بمقدوره أن يدرك هذا الانعزال، "هذا الحبس الانفرادي للأنا" ، حكم جماعي[37]"

فعندما يقوم النظام على تقديس المصالح الشخصية، وغلبة النزعة الفردية والتي هي النتاج الحقيقي للإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

هذه الفلسفة تؤدي في نهاية الأمر لتضخم الأنا المفرط، مما يؤدي لتدمير روح الجماعة وتشظي المجتمعات، فما دام معيار الحكم على الأمور هو مصلحتي الشخصية فما الذي يجعلني أضحي بها في سبيل مصلحة آخر لا يهتم هو لشأني، ولن أستفد من مساعدتي له سوى ضياع منفعة عاجلة لي؟!

هذه الفلسفة فتحت الباب أمام كل الشرور في كافة ميادين الحياة بداية من السياسة مرورًا بالاقتصاد وانتهاء بالاجتماع البشري ونزولا حتى أدنى لبنات المجتمع.

وإن مجتمع محكوم بتلك النزعات لهو مجتمع فقد شرط وجوده الاجتماعي والإنساني ، ويسعي إلى الهاوية حتمًا.

---

[37] الحداثة السائلة، ص84

الفصل الثاني

الانسان في بعده الحضاري

"إن تاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنت حروبًا ظالمة استئصالية استعبادية ضد شعوب أقل تعليمًا، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم، إن المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثر على الأهداف أو الأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم."

علي عزت بيجوفيتش

الحضارة والثقافة

تعرف الحضارة لغة على إنها الإقامة في الحضر، أي في المدينة، فالْحَاضِرُ) ضِدُّ الْبَادِي وَ (الْحَاضِرَةُ) ضِدُّ الْبَادِيَةِ وَهِيَ الْمُدُنُ، وَالْقُرَى وَالرِّيفُ، و(الْحِضَارَةُ) بِالْكَسْرِ الْإِقَامَةُ فِي الْحَضَرِ.[38]

والحضارة في الانجليزية civilization ،والتي تعني التمدن ، أي السكن في المدن، وهي بذلك توافق ذات الدلالة في العربية، فدلالة كلمة حضارة في اللغة هي كما وردت في لسان العرب: "الإقامة في الحَضَر، والحَضَر والحَضْرَة والحاضِرة : خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف"

وعرفها مجموعة من المفكرين الألمان مثل راتناو، وتوماس مان، كيسرلنج بأنها "المظاهر الفكرية التي تسود أي مجتمع"، وهي بذلك تكون موازية للثقافة لاقتصارها على الجانب المعنوي فقط[39].

ودلالة كلمة الحضارة في الاصطلاح تحيل إلى العمران الناتج عن الاستقرار، وما يقتضي ذلك من النهوض بأعباء ذلك العمران، وابتكار وسائل تعين على ذلك، سواء كانت وسائل مادية تعين الإنسان على التكيف مع ظروف بيئته، أو وسائل فكرية تعينه على تنظيم المجتمع الذي يتسع بمرور الأيام، ويتعقد.

ويعرف ابن خلدون الحضارة بأنها الصيغة العليا للترف الإنساني، فيقول "إن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وإن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها فالبدو هم: المقتصرون على الضّروريّ من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ... وأنّ الحضر المعتنون بحاجات التّرف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شكّ أنّ الضّروريّ

---

[38] (مختار الصحاح \ص75)

[39] أضواء على الحضارة الإسلامية، مجلة أمة الإسلام العلمية، ص3

أقدم من الحاجيّ والكماليّ وسابق عليه ولأنّ الضّروريّ أصل والكماليّ فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر، وسابق عليهما.[40]

بينما يعرف ويل ديو رانت الحضارة بأنها عنوان التقدم البشري بعدما تتوفر أسبابه ، فيقول إن الحضارة : "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، ويرى أن الحضارة تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها. [41]

و أصل الثَّقافة في اللُّغة العربيَّة مأخوذ من الفعل الثلاثي (ثقف) بضمِّ القاف وكسرها. وتُطلق في اللُّغة على معانٍ عدَّة، فهي تعني: الحذق، والفطنة، والذَّكاء، وسرعة التَّعلم، وتسوية الشَّيء، وإقامة اعوجاجه، والتَّأديب، والتَّهذيب، والعلم، والمعارف، والتَّعليم، والفنون[42].

والثقافة بمعناها الاصطلاحي الحديث لا يمت بصلة للمعنى اللغوي، نظرًا لأنها مفهوم حديث ارتباط ظهوره ودلالته بالمفهوم الاصطلاحي للكلمة في الانجليزية.

وفي الانجليزية كلمة culture مأخوذة من الكلمة اللاتينيةcultura ، وأصلها من الفعل colere وتعني حرث الأرض وتنميتها، وتعني الاستقرار في الأرض والنهوض بشأنها بالزراعة، واستخدمها البعض بالمعنى المجازي لا سيما بعد ارتباطها بالعلوم الإنسانية لتدل على تنمية العقل، وهذا هو الاتجاه الحديث الذي استخدمها بمفهوميها المادي والعقلي، وأصبحت بالتالي كلمة culture تدل على الثقافة، وليس الحضارة.

---

[40] (تاريخ ابن خلدون 1 / 152).
[41] (قصة الحضارة، ج1، ص3).
[42] [1] معجم مقاييس اللُّغة، مرجع سابق، ج1، ص382

ويعرف تايلور الثقافة بأنها " ذلك الكل المركب الذي يشتمل على معرفة العقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف، وكل القدرات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع".

ويرى مالك بن نبي بأنها مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد من مجتمعه، كالعادات والتقاليد وهي جوهر الحضارة[43]"

وبالتالي تعد الثقافة هي البنية الفكرية التي يحصلها المرء من جماعته التي يعيش في كنفها، وبالتالي فإن الثقافة هي المرآة العاكسة لحضارة الأمة، فمفهوم الحضارة أوسع من مفهوم الثقافة.

وبينما تقترب أغلب التعريفات سواء تلك التي ذكرنها، أو لم يتسع المقام لذكرها على أن الحضارة هي الصورة المثلى من العمران البشري، وهي غاية ما يصل إليه الإنسان من إبداع للمنتوجات المادية والتقنية، أو الإبداع الفكري الإنساني المتمثل في الأدب والفنون والثقافة كما يقول أحمد السايح: لفظ الحضارة في مفهومه الحديث، ومفهومه العالمي المعاصر، قد أصبح أكثر اتساعا، مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي.

وإذا كان أصل كلمة الحضارة في اللغة العربية: هي الإقامة في الحضر. فإن المعاجم اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هي: الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي، والاقتصادي في الحضر.

وبعبارة أخرى أكثر شمولا، هي: الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافة، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية.

ولهذا كانت الحضارة هي: الخطة العريضة -كماً وكيفاً-التي يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة، والحضارات الحديثة والمعاصرة.

---

[43] نظرات في الفكر الإسلامي، ص253

ومنها الأطوار الحضارية الكبرى، التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات، من مرحلة إلى مرحلة .[44]

ونستطيع أن نميز الحضارة الإسلامية بأنها" ما قدمه المجتمع الإسلامي للمجتمع البشري من قيم ومبادئ، في الجوانب الروحية والأخلاقية، فضلًا عن ما قدمه من منجزات واكتشافات واختراعات في الجوانب التطبيقية والتنظيمية"[45].

ولهذا التعريف تتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها في اهتمامها بالإنسان في كافة أبعاده الروحية، والخلقية، والمادية على العكس من الحضارات التي غّلبت النزعة المادية والتقنية وأغفلت الجانب الروحي والقيمي للإنسان.

وذلك لأن الحضارة تعكس نشاط الإنسان في الحياة، فهي تصور وممارسة مبنية على جملة من المبادئ والقيم والأهداف في شتى المجالات[46].

ويرى المفكر على عزت بيجوفيتش أن النظرة القائلة بأن الحضارة غاية التقدم الإنساني مضللة على نحو كبير، فهو يفرق بين الثقافة والحضارة، فيرى أن الحضارة هي الإبداع المادي التقني، والثقافة هي الإبداع الإنساني الفكري، فيقول " "الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان، أو تأثير الأنسان على نفسه , بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي . الثقافة معناها " الفن الذي يكون به الإنسان إنسانا " , أما الحضارة فتعني " فن العمل والسيطرة و صناعة الأشياء صناعة دقيقة " الثقافة هي " الخلق المستمر للذات " أما الحضارة فهي " التغيير المستمر للعالم" وهذا هو تضاد : الإنسان والشيء , الإنسانية والشيئية .[47]"

---

[44] (الحضارة الإسلامية، ص: 70).
[45] أضواء على الحضارة الإسلامية، مجلة أمة الإسلام، ص3
[46] مجلة جيل الدراسات المقارنة، العدد3يناير 2017، ص3
[47] الإسلام بين الشرق والغرب، ص107-108

وتسترعي تلك التفرقة بين الثقافة والحضارة الانتباه، ولا سيما أن الكثير من المفكرين لم يفرقوا بين الحضارة والثقافة، باعتبار أن الحضارة بوتقة كبيرة تحتوي الثقافة في داخلها، فكما يقول أنور الجندي في معرض حديثه عن الحضارة الإسلامية " وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة، فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة للحياة، وله نظامه التشريعي الكامل، وله نهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع[48]"

ولكن ما جعل بيجوفيتش يميز الثقافة عن الحضارة[49]- وهي تفرقة جديرة بالاعتبار ولكنها في رأيي تنطبق على حالة خاصة جداً، وفريدة جدًا- هي حالة الثقافة داخل الحضارة الغربية المعاصرة.

تلك الحضارة التي قامت على تفكيك وتدمير كافة المنظومات الثقافية، لا كي تحل ثقافة بديلة لها معايير واضحة المعالم يسترشد الناس بهداها في أمواج بحر الحياة المتلاطمة، وإنما فعلت ذلك لأن أساس قيام الفلسفة الليبرالية- والتي هي أساس فلسفة الحضارة الغربية المعاصرة- تقوم على التفكيك الدائم والمستمر كما في فلسفة جاك دريدا ، والسيولة لكل ما هو صلب بتعبير باومن، وعدم الانتماء والحيونة الكاملة كما في فلسفة هوبز، والاستبدال السريع لكل ما هو قديم من عادات وتقاليد، ومفاهيم إنسانية، وأسس روحية.

لذلك فإن الحضارة الغربية المعاصرة تعلن الحرب على كل أشكال التقدم الإنساني، فمن الخداع الكبير أن يقدم للناس التقدم التقني والتكنولوجي الباهر على إنه غاية ما يصل إليه الإنسان من إبداع وتحضر.

فقصر التحضر والتقدمية على بناء الآلات مع الانحدار المستمر لكل ما هو إنساني وأصيل لبنية الإنسان الروحية والنفسية ما هو إلا إحدى حلقات مسلسل التدليس المستمر للحضارة الغربية.

---

[48] الحضارة في مفهوم الإسلام، ص3

[49] فرق الألمان بين الثقافة والحضارة في القرن التاسع عشر، فاعتبروا الحضارة مجموع النتاج المادي لأمة ما، بينما الثقافة فتتمثل في القيم والمثل والمبادئ، ولكن هذه التفرقة لم تخرج خارج ألمانيا، ولم يؤيدها أحد من العلماء

الحضارة في المنظورين الغربي والإسلامي وتجلياتها

يعد التاريخ الإنساني ليس سوى سلسلة من تاريخ الحضارات المتعاقبة، فالأمم التي لم تستطع مقاومة التحديات المختلفة الطبيعية، والسياسية، والاجتماعية والاقتصادية حكم عليها التاريخ الإنساني بالهلاك، ولم تستطع بالمحصلة تكوين حضارة ومن ثم إضافة فصل لها في تاريخ البشرية

وبالتالي فإن الحضارة تكمن فلسفتها في مقاومة التحديات، والتغلب عليها، ورسم خطة متناغمة مع الكون حتى يستطيع شعب تلك الحضارة التأقلم مع الطبيعة من ناحية، والتآزر مع بعضه البعض من ناحية أخرى لحفر تاريخ مبتكر من التقدم الإنساني يضاف لتاريخ الإنسانية.

وإن كانت الحضارة تنشأ بسبب التحديات المختلفة فإنها كذلك تعكس فلسفة الأمة ورؤيتها للكون وللعالم من حولها، فإن سألنا أنفسنا عن ماهية الحضارة الغربية فإن الإجابة على هذا السؤال ترجع لرواد الفلسفة الغربية الحديثة، والتي قامت على أساس نظريات توماس هوبز وجون ستيوارت ميل، وتقوم هذه النظريات على الشك بالإنسان باعتباره بوصف هوبز (ذئب) مليء بالرغبات التي لا حدود لها، ورغم ذلك فإنهم يفترضون أن هذه الرغبات جزء لا يتجزأ عن الذات الإنسانية، وبالتالي يجب حماية الذات المحتوية على تلك الرغبات وعدم التعرض لها، أو تحجيمها أو الحد منها أو التأثير عليها.

ولكن يتم حمايتها في حدود؛ فلا يجوز لها أن تتجاوز إلى التسلط على الغير بصورة عنيفة، وهذه الفلسفة تتجسد في المثال المنتشر (أنت حر ما لم تضر).

ولذلك كان لابد من تأسيس الدول القوية ووضع الدساتير، وفرض حقوق الإنسان، وإبرام الاتفاقيات الدولية وغير هذا الكثير لضمان أمرين:

-أن يحقق الإنسان كل رغباته بشكل حر

-أن لا يعتدي الإنسان على غيره أثناء تحقيقه لرغبته(منع العنف الظاهر)

وعليه يصبح الهوى، أو ما يطلقون عليه الرغبة هي الدافع الوحيد الذي تقوم الفلسفة الليبرالية على أساسه، وتسهر على حمايته.

فالحضارة الحديثة هي حضارة الهوي الذي أضحى الإله الحقيقي المفرود بالعبادة وفي سبيله تنشأ الدول، وتوضع الدساتير، وتصك الاتفاقيات والمعاهدات، ويصل الأمر إلى محاصرة الشعوب وافتعال الحروب، وصدق الله العظيم حين قال" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ"[50]

قال المفسرون في تفسير هذه الآية أنه لا يوجد إنسان لا دين له، لحاجة الإنسان الطبيعية للتأله بمعناه الشامل, والإنسان الكافر بالدين الذي لا يضبطه شيء إنما هو في الحقيقة يعبد هواه ونفسه "فلا يهوى شيئا إلا ركبه, لأنه لا يؤمن بالله, ولا يحرِّم ما حَرَّمَ, ولا يحلل ما حَلَلَ, إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به[51]"

وبناءً على تلك الفلسفة فلا يجب أن يحاسب الإنسان إلا في ضوء احترام تلك الرغبة أو عدم احترامها، وبمعنى آخر فإنه لا وجود للقيم، ولا للخير، ولا للشر، فكل تلك الأمور نسبية وترتبط بشكل أساسي برغبة كل فرد، وهواه.

ولذلك نجد مواثيق حقوق الإنسان التي أقرتها الأمم المتحدة تولي أهمية عظمى للحقوق الفردية للحد الذي ساهمت فيها بتشظي الأسر كوحدة أولى للمجتمع، وأدت تلك الحقوق-بزعمهم- إلى انعتاق المرء من ربقة الإنسانية، فعندما يكون كل ما يرغبه المرء مباح كالشذوذ والانفلات الإباحي، وحرية تناول مغيبات العقول كالمخدرات والكحوليات، وحرية الإنجاب دون زواج، وحرية الإجهاض ....إلخ والقائمة تطول، فما الذي بقى للإنسان كإنسان؟

---

[50] (سورة الجاثية، آية 23)

[51] تفسير الطبري.

ولا نستغرب هذا إذا كنا نعلم إنهم لا يفرقون بين الإنسان وغيره، فالبشر بداية من داروين الذي اعتبر الإنسان سليل القردة العليا، ومرورًا بوصف هوبز أن البشر "ينبثقون من الأرض كالفطر، ويكبرون من دون أي التزام بعضهم لبعض"، فأرادوا بذلك إزالة القداسة من على البشرية حتى لا يشعروها بالذنب إن هي انحطت في مدارك البهيمية والحيوانية.

والرغبة ليست شيء قاصرًا على الأفراد فحسب فهنالك رغبات للشعوب والأمم تبتغي تحقيقها، وتلك الرغبات لا تخضع للتقييم، أي لا يجب أن نقول أن هناك رغبة صحيحة وأخرى فاسدة، رغبة خيرة وأخرى شريرة، فقد تجاوزت الليبرالية المنحنى الأخلاقي منذ زمن بعيد، فهنا رغبة وحسب تبغي الجماعة تحقيقها، والجماعات كما الأفراد إما تحقق رغباتها بطريقة سلسلة سلمية، وإما بطريقة عنيفة.

وإن كانت الحكومات تغل يد الأفراد كما ذكرنا آنفًا من التغول على رغبات الغير عبر منظومة قانونية وعسكرية، فإن الدول كذلك من المفترض إنه يحكمها إطار من القوانين الدولية التي تكف بعضها بأس بعض فيما يعرف بفكرة السيادة؛ وبموجبها تصبح حدود الدول مناطق محرم اجتياحها على الغير إلا في حالة السماح من الدولة تلك صاحبة السيادة، وفي حال تعدت إحدى الدول على سيادة أخرى وهاجمتها كما حدث في اجتياح العراق للكويت1991، فإن الدول تتكاتف لصد هذا العدوان وردع المهاجم.

ولكن القانون الدولي أعور يرى بعين واحدة وفي اتجاه واحد!، لذلك فإن قاعدة السيادة واحترام الدول تطبق على البعض دون البعض، ولذلك لم يحرك العالم ساكنًا إبان الاجتياح الأوربي للعراق، وقبلها أفغانستان وغيرها من الدول التي تنتهك سيادتها سواء بشكل مباشر باجتياح عسكري دولي، أو بشكل غير مباشر عبر تجنيد انفصاليين تابعين لدول كبرى يحققوا أهدافها بضرب سيادة دولهم.

ولذلك فإن كانت القيم الأخلاقية التي تحكم حركة الحياة الإنسانية أصبحت خارج الإطار الزمني الحديث؛ فإن غلبة القوة هي القانون حين ذاك، وذلك هو المشاهد في العلاقات الدولية بصورة أكبر من العلاقات الفردية.

ولكن ما الذي جعل الفكر الغربي ينتقل هذه النقلة الكبرى من التصور المسيحي للإنسان باعتباره متوج بالمجد والشرف، كما جاء في الإنشاد الثامن عندما سئل النبي داود عن ماهية الإنسان، ليتحول لكائن حيواني منعتق عن أي قيمة أخلاقية ومتجاوز لأي قيمة روحية؟.

ترجع إجابة هذا السؤال للتاريخ الغربي الذي سطرت فيه التجربة الكنسية عصرًا يموج ببحار الدماء، ويعج بالظلم والاستبداد، وتحوم حوله أبوام البؤس والفقر والجهل والتخلف، ليصبح مسمى تلك الفترة بعصور الظلام.

كانت تلك الخلفية التاريخية التي تحرر منها الغرب أخيرًا ملازمة وناتجة للفكر الديني الذي سيطر على أرواح الناس، وسرق أقواتهم، وانتهك أعراضهم، فتحولت تلك الفترة بكل ما فيها من حسن وقبيح إلى عقدة لازمت الغربيين وسعوا جاهدين لإعلان الحرب على كل ما كان فيها.

ولذلك بدأ الفلاسفة في الغرب ينظرون لعصر جديد يتلافى مخلفات عصور القرون الوسطى البائدة في الغرب التي قامت على نظرية الحق الإلهي، والذي أفضى إلى حروب مريرة فضلًا عن إغفاله للإنسان ولحقوقه؛ فكانت رؤية العصر الجديد تقوم على فكرة الإنسان\الفرد العاقل، بديلا عن الإنسان\ النحن الذي يغرق دائمًا في الصراعات الدينية والقومية دون أن يكون له فيها ناقة ولا جمل.

سعى العصر الجديد لتكريس أفكار التحرر وحقوق الإنسان الفرد، والعقلانية المنعتقة من أي قيد، والتحرر من سلطة الدين بالكلية كما صكتها اللائكية الفرنسية، وأسس التحرر السياسي والقانوني، وقبول الاختلاف دون ترهيب، .

أصل العصر الجديد إذا لمنظومة الإنسان الفرد المنفصل عن أي منظومة تحد حركته وفكره أيًا كان نوعها، وذلك بالتوازي مع ترسيخ حق الإنسان، وتوسيع مساحاته ليصل إلى مساحة كان لا يشغلها سوى الله في عقود سابقة.

دافعه في ذلك اسقاط عهود الخوف والترهيب التي انتابت المجتمعات الاوروبية، فكان الإنسان فيها فريسة لهواجس تبث فيه تذكره بضعفه، وخواره، ومحدودية عقله ، للوصول لعهود يكون الإنسان فيها هو السيد، صاحب العقل اللامحدود الذي يملك زمام الطبيعة من حوله ويسعى للتحكم فيها .

وبقدر ما سعت الحضارة الغربية الحديثة للتخلص من آثار الماضي المدمرة واعتمادها على العقلانية في تحديد مساراتها، إلا إنها هي ذاتها لم تلتزم بالتعقل حول مسائل الدين والتدين، وأدت بها مشاكلها السابقة مع الكنيسة إلي إعلان المعاداة مع الدين بشكل كامل كما حدث في السياق الإلحادي الشيوعي، وبنسخة مثيلة له في اللائكية الفرنسية، وبصورة أخف وطئه في باقي السياقات الغربية.

وذلك بالرغم أن العقلانية تفترض تحرير مناط النزاع، وتفكيك المشكلة، ومعرفة أسبابها الحقيقية، فهب لو أن لدينا إنسان مريض بعدوى تنتقل إلى غيره فلن يكون العلاج إطلاقًا بقتله حتى لا تنتشر العدوى، وإنما بمحاولة معرفة مكمن الداء وفهم المسببات الحقيقية له، لا بقتل المريض وإعلان الحرب على كل مريض آخر يعاني من نفس الداء.

وهو للأسف ما فعلته الحضارة الغربية في تعاملها مع الروحانيات، ومحركها في ذلك أزمة نفسية استحكمت عليها عوارضها حتى سدت منافذ العقل والتعقل؛ فسقطت في غلو العداء مع ما رأته إنه سبب المشكلة، وانسلخت من الدين باعتباره سبب البلاء، ومكمن الشقاء.

والناظر إلى الوضع الذي عاشه الغرب في القرون الوسطى واستطاع تحليله بشيء من التجرد والعقلانية-باعتبارها منهج الغرب في التعامل مع الأمور- لوجد أن المنتفعين من رجال الإكليروس بالتحالف مع رجال

البلاط قد استخدموا الدين وسيلة ومطية لتحقيق أغراضهم، فالمشكلة لم تكمن أبدًا في الدين بمعناه العام، وإنما في بعض الرجال الذين يزخر بهم كل عصر، وكل مصر، ويستخدمون كل الوسائل نفيسها وخسيسها للوصول إلى مآربهم، لا يوقفهم في ذلك مدى شرف الوسيلة المستخدمة، ولا مدى حقارتها، فهم يسعون لتحقيق أغراضهم ليس إلا، وبالتالي فإن كان الدين وسيلتهم في ذلك الوقت؛ فقد يكون قد ظُلم معهم كما ظُلم من كان يُحكمون باسمه!

وتكمن مشكلة الحضارة الغربية من وجهة نظري في افتقارها للمنهج والذي دفع رجال الدين بالتعاون مع السلطة لاستغلال تلك النقطة، ووضع مناهج تنسب زورًا للإله ويكونوا هم أصحاب الاستفادة الوحيدة منها.

لذلك صك الفلاسفة الذين عانوا من فترة عصيبة مخارج اعتمدوا فيها على مناهج عقلية مجردة، دون أن ينسوا تأثير خلفيتاهم السابقة، ولأن العقول محدودة ومتفاوتة في الآن ذاته، فقد أسسوا لبنيان ناقص ومشوه، فأسسوا بذلك لمجتمع عدائي، يعلن الحرب على كل من حوله، ويفتقر لمنهج واضح يعمل على توازن الإنسان، و يضبط سواءه النفسي..

ولذلك يعد من الخبل نقل تلك التجربة باعتبارها أساس للتقدم الحضاري إلى الشعوب التي تصنف إنها في أدني السلم الحضاري بهدف استنهاضها من كبوتها، وتصدير تلك الحضارة المزعومة إليها.

بينما كانت الحضارة في المنظور الإسلامي تقوم على بناء الإنسان باعتباره خليفة الله في أرضه، فحررت فكره أول الأمر، فقضت على عبادة الأوثان، وعبادة الأهواء، والخضوع للملوك والزعماء، ورفعت منزلة الإنسان وكرمته بالتوجه نحو السماء لا بالخضوع الذليل نحو الحجر والشجر والطغاة من كل جنس.

وهو ما بينه أفضل بيان ربعي بن عامر في مخاطبته لكسرى عندما قال " ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد لعبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا لسعة الآخرة، ومن جور الأديان لعدل الإسلام".

فالإنسان الخاضع الذليل لا يستطيع أن يقيم حضارة بمفهومها الشامل التي ترتقي بالإنسان ، والإنسان الذي يعبد هواه لا يرتفع أبدًا عن التفكير في غرائزه ولذاته إلا بالقدر الذي يخدمها ويصب في صالحها، وقد حرر الإسلام الإنسان من كلا الذلين، ذل الهوي، وذل الأوثان.

وذل الهوى يدفع بالإنسان إلى الأنانية المتضخمة، فيعبد ذاته، ويقدم مصلحته الفردية على مصلحة المجتمع، وجماعته الضيقة، والإنسان الذي لا هم له سوى مصلحته الشخصية، ولا يلتفت إلا لذاته لن يقيم حضارة، ولا تقوم على يديه دولة.

وذل الأوثان يقيد العقل، ويحط من صاحبه، فمن يسجد لحجر أو لشجر يعاني في الحقيقة من انفصال تام عن الواقعية الإنسانية التي ترى في الإنسان جوانبه الثلاثة المادية والفكرية والروحية فترتفع وترتقي به، وقد رأينا أقوامًا في عصرنا الحالي يسجدون للأحجار، ويعبدون الفئران والبقر ورغم ذلك يتقدمون في مناحي العلم التقني؛ ولا تعارض لأن التقدم التقني لا يعني بحال الصعود بالإنسان في مدارج الإنسانية الحقيقية، بل قد يكون سبيله للهاوية، لأن مقدار العلم الكبير لا يرفع من شأن الإنسان القيمي، وبالتالي فإن ما يخرج به هذا الإنسان من منتوج حضاري نهاية الأمر سيكون مجردًا من كل قيمة أخلاقية، وبالتالي لن يضيف شيئًا حقيقيًا للبشرية؛ بل سيكون ما ينتجه سبب هلاكها ودمارها لأن العلم إن لم يجد بوصلة توجهه سينحرف ويودي بصاحبه نحو الهلاك، وتاريخ الشعوب الغربية أكبر الشهود على ذلك.

وكانت أول لبنة وضعها الإسلام في بنيان حضارته هي أول آية نزلت، قال تعالى " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [52]"، كانت تلك الدعوة لنفض ظلام الجاهلية، وبداية لعهد يشيع العلم والفكر، فالله الحق لا يعبد أبدًا بالجهل، وخليفة الله المكرم لابد أن يقرأ الكثير، ويتفكر في آيات الله، ويتدبر الحكمة المنزلة، ويفهم سنن الله في الكون، ويعقل طبيعة وظيفته، وينظر إلى العبرة والعظة في كل ما يحصل حوله، فالله أجرى الأمور بمقادير والحكيم من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، والحكيم من يبصر

[52] الأعلى، آية 1

آيات الله البينات فيما حوله، وفي من حوله، فقد خلق الله الكون وبث فيها العبر والآيات التي يعقلها السعيد، ويغفل عنها الشقي.

فالإسلام جعل العلاقة بين الإنسان وبين الكون علاقة تسخير وإعمار، فلن يستطع الإعمار إلا إذا علم قوانين التسخير، وسنن الله في خلقه، وتجنب إفساد الكون، وهدر مكوناته فيما لا ينفع، وبذلك انتقل العرب من حياة السذاجة البسيطة إلى أوج الحضارة العلمية، فالإسلام يتطلب قدر من الحضارة ولابد؛ فالصلاة التي هي كتابًا موقوتًا على المؤمنين تتطلب المعرفة الدقيقة بحساب الوقت، وهذا يقود إلى علم الفلك، والزكاة، والمواريث، وغيرها تتطلب الإحاطة بعلم الحساب...إلخ، وهكذا كانت العبادات في الإسلام تسعى لانتشال عقل المسلم من بساطته وجهله وسذاجته التي كانت تنفره من العلم في عصور سابقة إلى أعظم حضارة علمية شهدها التاريخ.

تلك الحضارة الإنسانية التي أظلت تحتها جميع الأمم، والأعراق، والشعوب، والقبائل، فامتدت دولة الإسلام من الأندلس شمالًا إلى مجاهيل إفريقيا جنوبًا، ومن اند ونسيا شرقا إلى المغرب غربًا، فلم يشعر إنسان بالغربة والوحشة تحت حكم الإسلام لأنه لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوي .

وهكذا حمل دستور الإسلام وحضارته على عاتقيه إصلاح الإنسان، وتحضره، والزود عنه وحمايته، وسطر تاريخ الإسلام آلاف الصفحات عن أقوامٍ ليسوا من العرب ولكنهم ارتفعوا بالإسلام فحكموا دول المسلمين قرونًا عدة وحازوا من التقدير في قلوب المسلمين الكثير كالترك، والمغول، والبربر، والفرس، وحتى المماليك والعبيد وغيرهم.

فقد حمل الإسلام رسالة إنسانية كبرى ترتفع وتعلو عن القوميات الضيقة، وتسمو عن العرقيات المهلكة، وتحوي في بوتقتها كل إنسان دون النظر إلى جنسه، أو لونه، أو عرقه، وذلك ما سطره النبي صلى الله

عليه وسلم فقال " - إن أُمِّرَ عليْكم عبدٌ حبشيٌّ مجدَّعٌ فاسمعوا لَهُ وأطيعوا ما قادَكم بِكتابِ اللَّهِ[53]".

ومن قوانين الاستخلاف والتعمير وأهمها إصلاح الإنسان، والارتقاء به حتى يكون مؤهلا لمهمة الخلافة التي أوكلها الله إليه

فغاية الحضارة الإسلامية العظمى أن تحرر ارادة الإنسان من كل ما يشوبها حتى تتوجه إلى خالقها، وأن تضفي على الإنسان معنى العزة والكرامة التي ترتفع به إلى آفاق السمو والتحضر.

وقد سعت الحضارة الإسلامية منذ أن خط الوحي الشريف أوائل الآيات المباركة أن تكون العلاقة بين الإنسان وسائر ألوان الوجود علاقة تكامل تحكمها سنن الله في خلقه، فجاء تعامله مع الطبيعة موافقًا للفطرة، فحافظ عليها واستفاد منها دون إفساد أو اهلاك، ففاضت رحمة ذلك الإنسان في ظل تلك الحضارة العادلة حتى ألقت بعدلها على الدواب والسوائم والطير وليس أدل على ذلك من قولة عمر بن عبدالعزيز عندما فاض بيت المال بأموال الزكاة ولم يجدوا من يأخذها لاندثار الفقر؛ " أنثروا القمحَ على رؤوسِ الجبال لكي لا يقال : جاعَ طيرٌ في بلاد المسلمين ".

هذا هو منهج الحضارة الإسلامية التي وسعت كل الوجود برحمتها عندما سادت العالم، وشتان بينها وبين الحضارة الغربية التي يكفي أن يكون في تاريخها أسوء حربين عالميتين راح ضحيتها ملايين البشر فضلًا عن تدمير كافة الحواضر والمدن الأوروبية؛ ليكونوا هم شهودًا على أنفسهم في مدى براعتهم في الظلم والطغيان.

وهو ما أوضحه .ألبرت أشفيستر في مقدمة كتابة فلسفة الحضارة ليكون سؤالًا كبيرًا لم ينتبه إليه الكثير فقال: "كيف وقعنا في هذه الحالة من الافتقار إلى نظرية في الكون؟

---

[53] صحيح ابن ماجه، صفحة : 2328

السبب هو أن نظرية الكون المؤكدة للحياة والعالم الأخلاقية لم يكن لها أساس ثابت مقنع في الفكر. ولطالما حسبنا أننا وجدنا مثل هذا الأساس. لكنها فقدت قوتها دون أن نكون على علم بذلك، حتى اضطررننا أخيرًا منذ أكثر من جيل إلى الاذعان إلى نقص كامل وافتقار إلى أية نظرية في الكون على الاطلاق"[54] .

ففي الحقيقة لا تملك الحضارة الغربية فلسفة متماسكة إطلاقًا حول مكونات الوجود و أهميته في تشكيل حضارة بمعناها الشامل، وما صكه فلاسفتها من نظريات ومناهج ليس سوى تفكير في مخرج للأزمة الأليمة التي عايشها الغرب دون أن يكون هذا التفكير موضوعيًا أو حتى أخلاقيًا.

[54] فلسفة الحضارة، ص9

العولمة ..الخديعة الكبرى

يعد تاريخ العولمة القصير شاهد ي على ما ترنو إليه الحضارة الغربية، فقد ظهرت العولمة في عقد السبعينات مدفوعة بوصفها حقيقة داروينية لا ترتقي إليها الشكوك، لقد كانت تجربة تحاول في وقت واحد تشكيل الساحات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على حدِ سواء [55].

وفي واقع الأمر لم تكن حجة تصدير التقدم، وانتشال الأمم المتخلفة من براثن هوة التدني الحضاري إلا خديعة كبرى أراد بها أباطرة المال، والمتنفذين السياسيين تحويل العالم لسوق واسعة لبيع نفاياتهم الصناعية، وتكديس الأرباح المتراكمة، فضلًا عن تفكيك بنى العالم الاجتماعية وتدمير الثقافة بوصفها مسؤولة عن حوكمة الشهوات الاستهلاكية والجنسية بموجب مزاعم باسم الحرية والمساواة[56].

وكان سحر العولمة الخادع يقوم على إنشاء مدينة اليوطوبيا العالمية، حيث ستختفي كافة الفوارق، وتنمحي كافة العوائق، ويحل عهد السلام الحالم على الجميع.

تلك الخدعة التي يكذبها قانون الله في كونه ذلك لأن التدافع سنة كونية أمضاها الله على الدنيا منذ خليقة آدم عليه السلام، فكان الصراع الأول بين آدم عليه السلام وإبليس اللعين، ثم أصبح بين قابيل وهابيل من ناحية، وبين بني آدم والشيطان من ناحية أخرى.

فقد كتب الله التدافع كسنة من سنن الكون باقية ما بقي الزمان لتصلحه وتجدد من شأنه، فكما يرى المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت أن التنافس هو السبب الرئيسي للعمران البشري، فلولاه ما زرع الزارعون، ولا

---

[55] انهيار العولمة واعادة اختراع العالم، ص23
[56] لماذا فشلت الليبرالية، ص87

صنع الصانعون، ولا سعى شخص لإرهاق نفسه والعمل والابتكار؛ لأن الخمول والكسل محبب للنفس.

لذلك جعل الله التنافس أو التدافع سنة الكون تمضي على الأفراد كما تمضي على الدول والشعوب والأمم، قال تعالى " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[57]" .

ويقول صاحب الظلال في تفسير الآية " لقد كانت الحياة كلها تأسن وتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستبطنة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة ... وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا"[58]

لذلك فإن الحديث عن السلام الدائم بين الدول، وانصهار العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه في بوتقة واحدة يلفها السلام والوئام، ويختفي منها الصراع والنزاع، لهو دجل النصابين الذين لهم أهداف أخرى ولكنهم يتخفون بقناع الخراف ليخفوا من تحتها أنياب الذئاب.

والداعون أنفسهم للعولمة باعتبارها مد أواصر الترابط العالمي[59]، والذي بدوره يساعد في تقزيم الفروقات حتى يقضي عليها في النهاية، ويحل السلام الدائم والشامل نتيجة لتوحيد مشاكل العالم من ناحية "فعلى سبيل المثال الشبكات المالية التي تربط حساباتنا المصرفية بالسوق الرأسمالية العالمية، أو التهديدات البيئية العالمية المشتركة(مثل الاحترار العالمي الذي نواجه) يدركها الناس كما لو إنها تقربنا بصورة أوثق"[60]، إلا أن

---

[57] البقرة، 251
[58] الظلال (1\271)
[59] العولمة والثقافة، ص11
[60] الثقافة والعولمة، ص14

الأمر لا يعدو أن يكون مزحة سخيفة لأحد المحتالين ابتدعها كي يفتح العالم أجمع أما سياسة السوق الرأسمالية؛ فتزيد أرباحه من ناحية، ويحقق أهداف جيوسياسية لا تقل خطورة عن الغزو العسكري المباشر- بل تفوقه- من ناحية أخرى.

وأبسط الأمثلة على سخافة الخدعة أنه رغم الدعوة للانفتاح وتبادل الثقافات، وكثير من القيم العولمية التي تحض في النهاية على الانفتاح الاجتماعي ومد أواصر القربى، والتواصل الإنساني، نجد أن المجتمعات آخذة في حالة سريعة من التحلل و التشظي الاجتماعي، وانهيار الأسر ، حتى أصبح علماء الاجتماع يعيدون صياغة مفهوم المجتمع لا باعتباره شبكة العلاقات التي تحكم الناس في موطن معين، ولكن أصبح المجتمع يعني الموطن الذي يشترك فيه جماعة من الناس ويتشاركون المأكل ولكن لا تربطهم علاقات اجتماعية مشتركة.

وهنا ننتقل للهدف الحقيقي من العولمة والانفتاح وهو سياسية الغزو الفكري المقنعة تحت أستار مبهرجة لا تخفي من حقيقتها القبيحة شيء.

وتنبع أهمية أي غزو فكري لأمة ما للسيطرة عليها واستغلالها بطريقة سلمية وسلسة حسبما تريد الأمة الغازية.

ولم يكن الغزو الفكري وليد التاريخ الحديث كما يعتقد البعض فهو قديم قدم الحضارات، فقد ورد أنه لما اجتاح الاسكندر الأكبر (356-323ق.م) بلاد الشرق، فارس والهند ومصر كتب له أستاذه ارسطو (384-322ق.م) ينهاه عن هذا الغزو؛ لأن من شأنه القضاء على تمييز الجنس اليوناني حين يحتك اليونانيين بالشرقيين .

ولكن جاء رد الإسكندر قائلًا إنه يغزو الشرق "لأجل أن يجعل الثقافة والفكر اليونانيين هما فكر العالم وثقافته [61]" ومن المعلوم أن من أهداف أي حضارة غالبة هي بسط سلطان أفكارها على الشعوب المنطوية تحت لوائها سواء فعلت ذلك بحسن نية وسلامة طوية كما فعلت الحضارة الإسلامية ذلك من نشرٍ للعلوم وللفنون في أرجاء البلاد التي فتحتها

[61] حصان طراودة الغارة الفكرية على الديار السنية، ص11

بغرض تطبيق تعاليم الدين الحنيف ونشر نور النبوة والرسالة المحمدية، أم فعلت ذلك بسوء نية بهدف تعبيد الناس لفلسفاتها وأغراضها الدنيئة حتى لا يثور عليها ثائر ولا يخرج عليها متمرد؛ فمن المعلوم أن الفكر يسبق الفعل؛ فإن استطاع أحدهم تشكيل وعيك والتحكم في تفكيرك فقد استطاع ضمان نطاق الحركة والفعل الذي ستستطيع أن تتحرك فيه؛ وبالتالي يستطيع حينها أن يتنبأ بثوراتك وهفواتك ويحجمها ويحتويها.

وقد كان هدف الغزو الفكري لديارنا المسلمة الحل الأخير للحملات الصليبية التي بدأت في غزو العالم الإسلامي أواخر القرن الحادي عشر بهدف السيطرة على مقدرات وثروات الشعوب المسلمة من ناحية ولأن سنة الله في التدافع ماضية من ناحية أخرى.

ولما فشلت الحملات الصليبية وأرجأت أوروبا فشلهم حين ذلك في تقدم المسلمين الحضاري والمادي والفكري الذي أنبهر به الصليبيون في ذلك الحين، جردوا سلاح القلم حتى نقلوا من علوم المسلمين ومعارفهم فيما سمي بعصر الاستشراق ما يعينهم علي المسلمين بعد ذلك.

وانتظروا مليًا حتى جاء عصر الأنوار والنهضة الأوربية وما تبع ذلك من حقبة إمبريالية سعت للسيطرة على كافة أرجاء العالم وغزوه، واستطاعت أن تحتل بعض الجيوب، وتنشأ عدة مستعمرات ساحلية على أطراف المدن دون أن تستقيم لها الأمور لا سيما في العالم الإسلامي؛ فتنبأت حين ذاك أوروبا إلى أن أمر الغزو أكبر بكثير من الاحتلال العسكري المباشر والفكري المباشر.

ولأن أوروبا أدركت حقيقة الدور الريادي للفكر كمحرك للشعوب وإنه مصدر قوتها ومحركها ودافعها الأول سعت بكل السبل لتحويل تلك النقطة لصالحها عبر تقويض منافذ الفكر المختلفة، وإعادة هيكلتها بما يخدم مصالحها في نهاية المطاف، وسلكت في سبيل ذلك عدة مسالك وأنفقت فيه الغالي والنفيس

والغزو الفكري: هو مصطلح حديث يعني مجموعة الجهود التي تقوم بها أمة من الأمم للاستيلاء على أمة أخرى أو التأثير عليها حتى تتجه وجهة معينة[62]

و الغزو الفكري ببساطة هو أن تتبنى أمة من الأمم ثقافات وتقاليد وأفكار أمة أخرى بعدما تنسلخ وتتنكر من هويتها، ولا يكون ذلك إلا بإحدى وسلتين:

أولهما: أن يفرض ذلك الغزو من قبل سلطة احتلال فتسعى لطمس هوية الشعوب التي تحتلها فتعمم ثقافتها وتسعى إلى طمس كل التقاليد ومسخ كل الأفكار التي يؤمن بها الشعب الذي تحتله، فتمنع التعليم والمعاملات الحكومية بلغة الشعب الأصلية وتحل بدلًا من ذلك لغتها، وتعمم لباسها وتقاليد معيشتها وتنشر أفكارها على حساب عادات وتقاليد الشعب الذي تحتله ...إلخ، ويكون هدف تلك السياسة هو إلغاء الفوارق بين الشعب صاحب الأرض والمحتل، وبذلك يضمن المحتل انعدام مواجهته وطرده فيوطن نفسه في الأراضي التي احتلها وينهب خيراتها على النحو الذي يريد دون أن يجد من يعارضه ،فالغزو الفكري واحد من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيًا إذا أمكن، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب وإن كان- في نفس الوقت- هو أقسى نجاح الغزاة[63].

ثانيهما: أن يشعر الشعب المستضعف بالنقص والخوار في ذاته فينعكس ذلك على كل ما يتبناه من أفكار ومبادئ وعادات وتقاليد وبدلًا من أن يصلح من نفسه؛ فإنه يحيل نقصه وهوانه على ما يؤمن به ويعتقد أن الغلبة والقوة التي في عدوه إنما تأتي مما يتبناه من قيم حضارية وثقافية فيسعى إلى تقليده وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله " المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله و عوائده، والسّبب في ذلك أنّ النّفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه

---

[62] (1 مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، للعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز (يرحمه الله) : 3/ 438.)
[63] (الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص179).

إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتّصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم".

المسلم في ظل الحضارة الغربية

سعت الحضارة الغربية منذ صعودها على قمة السلم الحضاري لاستغلال العالم أجمع عبر وسيلتين:

أولهما: تفريغ العالم من موارده الاقتصادية في حملة كبرى ابتدأها العالم المتحضر بسلسلة حروب بربرية حطت على جميع العالم، ونهبت موارده، واستعبدت شعوبه بشتى الوسائل لم يكن أولها تجارة العبيد الذين قامت على أكتافهم القواعد الاقتصادية للبلاد الجديدة، ولم يكن آخرها تصميم منظومات كبرى لاختراق العقول والتلاعب بالشعوب حتى تتحول لمكبات نفايات ثقافية وسلعية لمنتوجات العالم المتحضر!

وثانيهما: تصميم حملات كبرى تستطيع التسلسل عبر كل المجالات، وتسطو على كل المساحات لتحتل العقول، وتسطو على الأذهان حتى تملك عقول وقلوب المسلمين باعتبارهم ممثلين لأقوى الأديان التي تحمل في منهاجها منافس قوي للحضارة الغربية، يستطيع إذا امتلك المزيد من الإمكانات، وأتيح لاتباعه الفرصة أن يقضي على الحضارة الغربية ويقوض أسسها.

ولذلك فإن المسلم في الحضارة الغربية لا مكان له ما دام معتصم بإسلامه، وهو إما يختار أن تشن عليه الحرب بصورة مباشرة كما حدث في الحقبة الإمبريالية، وإما أن تشن عليه حربًا ناعمة، أو ما يطلق عليها مجازًا الغزو الفكري.

وفي كلتا الحالتين يجب أن يتم تفريغ المسلم من إسلامه، وإفقاده فاعليته حتى تقبله تلك الحضارة، وإلا فإنها ستعلن الحرب الضروس عليه بلا هوادة.

ويعتبر الغزو الفكري من أخص الخصائص التي تتميز بها الحضارة الغربية باعتبارها حضارة لا تقبل الآخر، ولا تحتمل وجود الاختلاف، وإن ادعت غير ذلك.

ونقصد هنا بالغزو الفكري الممنهج الذي تعده الدول لأهداف محددة لينصب في النهاية في صالحها، وتسعى من خلاله لتقويض أسس المجتمع أو الشعب الذي تستهدفه، ومن ثم تفرض ثقافتها عليه.

و إن كان للأمة الإسلامية تاريخ مثير مع الغزو الفكري إن صحت العبارة، واعتبرنا أن كل تأثر مقصود أو غير مقصود بالآخر يدخل تحت مسمى الغزو، لما يملكه من القدرة على سلب القواعد الفكرية المؤسسة لحياة الإنسان، واستبدالها بأخرى غريبة عن دينه وثقافته.

وقد بدأ الغزو الفكري في الأمة الإسلامية على عدة مراحل:

1- ألم أول غزو فكري بالأمة الإسلامية زمن المأمون عندما ترجمت كتب الفلسفة اليونانية في بلاد المشرق وافتتن بها بعض المسلمين وضمنوها مناهجهم حتى أدخلوها في العقائد الإسلامية فيما عرف بعد ذلك بعلم الكلام،

ولم يطل الوقت حتى تكونت فرق عقدية كاملة تستمد من الأسس الفلسفية اليونانية والفارسية وغيرها بنى تحتية لعقائد تدعي النسبة للإسلام في الظاهر وتهدمه في الباطن كالمعتزلة والشيعة الإسماعيلية والاثنا عشرية والفلاسفة الدهرية وغيرهم الكثير.

ولم يلبث الأمر حتى أحدث الأمر فتنًا طاغية ألمت بالأمة بسبب تغول الأفكار التي أدخلها المتكلمون من المعتزلة فيما عرف بفتنة خلق القرآن التي ثبت فيها الإمام أحمد بن حنبل ونفر قليل من العلماء حتى كشف الله الغمة، وإن كانت تلك الأفكار استطاعت أن تلج إلى العالم الإسلامي بينما كان في بداية مسيرته الحضارية الزاهية وفي ظل عصر أقل انفتاحًا من عصرنا التكنولوجي الراهن وأحدثت به تلك الصدوع الكبيرة، فما بالنا بعصرنا الذي أفلت فيه شمس الحضارة الإسلامية وانفتح العالم ليرى المسلمون كم ابتعدوا عن ركب الأمم والحضارات؟!.

2- وكان الغزو الثاني الذي بدأ في التغول إلى عقول المسلمين إبان القرن العاشر الهجري، وتزامن مع سقوط الحواضر العلمية الإسلامية

كالأندلس[64] والقاهرة[65] ، وبغداد[66] ، وغزو العالم الإسلامي من قبل الاستعمار البرتغالي[67] ، وتزامن السقوط المدوي للعالم الإسلامي مع الصعود السريع للعالم المسيحي وساعده على ذلك اكتشاف العالم الجديد وتدفق الثروات إلى اوروبا، وسقوط الكنيسة مع سيطرة النزعة العقلية التي اعقبت عصر الإصلاح الديني، وبداية عهد الاقتصاد الماركنتيلي[68] في العالم الأوربي.

كل تلك العوامل ساعدت بالنهوض السريع للقارة العجوز على مستويات عدة ومع الضعف الذي ألم بالمسلمين بدأ المستعمر الأوربي باحتلال بلدان العالم الإسلامي ليس على المستوى المادي فحسب- أي السيطرة على البلاد ونهب المقدرات المادية- وإنما بالسيطرة على العقول والقلوب بداية من التنصير الإجباري الذي حدث بعد حروب الاسترداد في الأندلس مرورًا بسياسات التبشير والمدراس الإرسالية في الشام والأناضول ومصر، وانتهاءً المنهاج الاستشراقية التي غيرت وجه الثقافة في العالم العربي، وساهم كل ذلك في تصنيع صورة ذهنية جديدة للإنسان المسلم تختلف تمامًا عن تلك الصورة التي كان يمتلكها المسلم منذ بزوغ الرسالة المحمدية وحتى لحظات أفول العالم الإسلامي.

3- الغزو الفكري الثالث والأخير والذي نعيش فيه الآن والذي بدأ بنهاية الحرب العالمية الثانية وقام على أسس ايدلوجية وفلسفية شملت كافة مناحي الحياة وتتلخص تلك الأسس في فكرة عنصرية مفادها أن الرجل الأبيض هو الإنسان الأسمى والمتحضر الوحيد وعليه عبء نقل حضارته بصورتها إلى كافة بقاع الأرض حتى ولو بالقوة المفرطة، ويعني ذلك أن كافة الحضارات والثقافات الأخرى ليست سوى شكل من

---

64 سقطت مملكة غرناطة آخر معقل للمسلمين عام 1492م-898ه

65 سقطت دولة المماليك عام 1516 بعد هزيمتهم بمعركة مرج دابق على يد العثمانيين

66 أصاب بغداد ما أصاب غيرها من حواضر العالم الإسلامي حيث سقطت تحت الحكم الصفوي عام 1495م

67 بدأ الغزو البرتغالي عام 1415 باحتلال سبتة وتلتها حقبة استعمارية فيما سمي بحقبة امبراطورية ما وراء البحار البرتغالية نظرًا لأنها كانت تحتل المدن الساحلية فقط على طول الساحل الافريقي وساعدها في ذلك خبرتها وتفوقها الملاحي وكان الهدف من احتلال السواحل فقط دون التوغل في المدن هو ما تعلموه من الحملات الصليبية قبلهم التي كانت تهلك كلما توغلت في المدن نظرًا للمقاومة الشعبية التي تلقاها من عموم المسلمين، فكان أسلم طريق لهم هو البقاء على السواحل لتأمين الامدادات من ناحية ولسرعة الهروب من ناحية أخرى في حالة تغيرت موازين القوى

68 لاقتصاد الماركنتيلي يقصد به المذهب السياسي—الاقتصادي الذي ظهر بالعالم الأوربي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وكان الممهد الرئيسي للفكر الرأسمالي المعاصر، ويطلق عليه البعض الرأسمالية التجارية، نظرًا للنزعة التجارية التي سيطرت على العالم الأوربي آن ذاك

أشكال الهمجية التي لابد من القضاء عليها وعلى من يصر على تبنيها بالطبع- وفي القلب منها الحضارة الإسلامية ولاشك- وهذا واضح لا غبار عليه فيما يروج له الغرب الآن من أن كثير من الشرائع الإسلامية ليست سوى درب من دروب البربرية التي لم تعد توائم مجتمع حقوق الإنسان الحديث كالحدود وذبح الأضاحي وجهاد الطلب وغيرها، ومما يؤسف له أن من يقول هذا الكلام مسلمون أبًا عن جد ولكنه الغزو الفكري الي فعل فعلته وغير الخريطة الإدراكية والمفاهيمية للمسلم المعاصر حتى بات يخجل من دينه وينتقده.

تكمن خطورة الغزو الفكري في إنه الأداة الأهم في ترسيخ الفلسفة الليبرالية، ونحن هنا إن كنا نركز على الغزو الفكري لديار الإسلام إلا إن الفلسفة العولمية التي يجري نشرها على قدم وساق في بلدان العالم أجمع ما هي إلا أشد أنواع الغزو الفكري الذي لم تر البشرية مثله في أزمان سابقة.

وساعد نجاح فلسفة عولمة البشر وقولبتهم في قالب موحد سمته الأساسية المزيد والمزيد من الاستهلاك، للرغبات، والمتع، والمنتجات اللامتناهية، التكنولوجيا الرقمية التي احتلت مساحات واسعة من حياة البشر حتى استطاعت أسرهم والتحكم فيهم.

وتتنوع أساليب الغزو الفكري طبقًا لمقتضيات كلا من العصر والثقافة، ولكن الأساليب القديمة التي سادت في العصر الكولونيالي لم تندثر حتى الآن وإن كانت قد أعادت تكييف نفسها لتلائم مع العصر الجديد.

ورغم ذلك فإن كل تلك الأساليب تتقاطع فيما بينها لترسم في النهاية لوحة مرعبة ترسم آثار مرور الغرب المدمر، سواء كانت هذه آثار قد خطها بوسائله هو كالاستشراق كحدث فريد في التاريخ الإنساني، أو حتى كان ناتجًا عن سياساته المختلفة، و التي حاولت من خلالها الشعوب المقهورة أن تعبر عن نفسها وإن كان بصورة مختلة كما يحدث في عملية إحياء الهويات القديمة والتشدق بها.

الغزو الفكري وأساليبه

سلك الغزو الفكري مسالك عدة في السيطرة على عقول الأمم المخالفة له بهدف تفكيك بنيتها الثقافية، وتشكيل صورة ذهينية توافق ما يريده منها الغرب، وقد سلك في سبيل ذلك كافة الوسائل التي أتيحت له ببراعة فائقة، ونحن هنا نلقي ضوءًا خافتًا على أهم تلك الوسائل التي أحدثت شرخًا كبيرًا في هوية المجتمع المسلم، ونالت من مناعته الفكرية.

1- اللغة والهوية

تعد اللغة هي أداة الفكر الأولى لذلك أمتن الله بها على آدم عليه السلام بتعليمها إياه دونا عن باقي خلقه قال تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين [69]"، فاللغة هي الفعل الأرقى الذي يميز الإنسان عن الحيوان ليس باعتباره وسيلة للحديث ونقل الأفكار فحسب بل إنها مستودع الهوية وصانعة كيان الأمة وشخصيتها وإلا لما كان الله تعالى اختص اللسان العربي وشرفه ليكون الناطق بكلامه سبحانه وتعالى.

ويقول اللغوي الأمريكي سابير "يرى أن اللغة تؤثر تأثيرًا كبيرًا في طريقة تفكيرنا، وهي التي تحدد طريقة تفكير وتصرف أي مجتمع من المجتمعات، بل إن المجتمع لا يستطيع أن يرى العالم إلا من خلال لغته[70] "

ويقول وورف أن اللغة " ليست وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل إنها هي نفسها التي تشكل تلك الأفكار، ونحن نقسم ما حولنا من العالم بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغتنا أو كما يقول أحدهم: إن العالم يخلق بواسطة اللغة [71]"

---

[69] البقرة، اية 31

[70] De Saussure : op.cit,p181

[71] Sapir(E):An introduction to the study of language york1991,p207

"what a nice horse Ahmed has"

قد تكون أفضل الترجمات لهذه الجملة هي" يا له من حصان جميل عند أحمد"، ولو ترجمت دلالياً بما توحيه في اللغة الانجليزية لقلنا يا له من حصان جميل يملكه أحمد، وهذا الاختلاف له أهمية كبرى، فقول العربي (عند) مختلف عن قول الانجليزي (يملكه) احمد، فبينما الملكية التي يشار إليها في الجملة الانجليزية توهم بدوام العلاقة بين المالك وما يملكه، نرى (العندية) في الجملة العربية متضمنة معنى الزوال لأن العندية مجرد صلة مكانية قد تكون اليوم ولا تكون غدًا[72] "

هذه الجملة البسيطة التي يستطيع صياغتها طفل السادسة تشكل وعي أمم كاملة؛ لست أعني الجملة بالطبع ولكنني أعني البنية النفسية الكامنة في الدلالة اللغوية التي يستقبلها العقل، فبينما يفهم الطفل الغربي أن أحمد امتلك حصان جميل مجردًا من الزمان والمكان، ملكية تامة فيبني على ذلك فلسفة كاملة، ولذلك فإننا بتتبع الحضارة الغربية على مدى العصور نجدها حضارة مادية تعظم الأشياء وتكدسها، عكس ذلك الأثر النفسي الذي تحدثه ذات الجملة ولكن بدلالة مختلفة في العربية، فعلاقة العندية علاقة تجاور مؤقت؛ فالحصان عند أحمد الآن وقد لا يكون كذلك غدًا أو بعد غد، وهذا يعني تجاوز السياق المادي لسياق آخر أكثر بعدًا من الناحية الفلسفية.

هذا المثال البسيط يدلنا على أهمية اللغة في تشكيل فكر ووعي الشعوب ولذلك ليس من العبث أن تسعى الدول المحتلة إلى فرض لغتها على الشعوب التي تغزوها بالاحتلال العسكري المباشر، أو حتى تنشر مدارسها ومؤسساتها الثقافية في الدول التي تحتلها بشكل مستتر.

بل يكون هدف ذلك تكوين طائفة نخبوية كما تسمى ترفع رايات المحتل الفكرية والثقافية بطريقة غير مباشرة ولا يرتقي إليها شك من السذج والعوام.

---

[72] عربي بين ثقافتين.ص14

وقد فعل المحتل الغربي ذلك بإنشائه المدارس التبشيرية في أرجاء الخلافة العثمانية؛ تلك المدراس التي فرخت فيما بعد أساطين الدعوة إلى التغريب في طول البلاد وعرضها وروجت لثقافة الغرب ودعت لسقوط الخلافة الإسلامية، وأمثال هؤلاء أحمد فارس الشدياق و سلامة موسى ولويس عوض وغيرهم من دعاة التغريب الذين احتلوا المنابر الاعلامية وتبوؤوا كبرى المناصب التي تصلهم بآذان الجماهير الإسلامية حتى تتلاعب بوعيهم ومن ثم هويتهم.

وعندما لم تؤتي تلك الاستراتيجية ثمارها المتوقعة منها سلكوا سبيلًا آخر أشد خبثًا وأكثر دهاءً وهو الدعوة إلى العامية وإحياءها وجعلها لغة النشر والأدب بدعوى التيسير والتسهيل على أفهام البسطاء، وهذه دعوى خبيثة ابتدئها كبار المستشرقين إبان العصر الإمبريالي وأنشئوا لها المعاهد والجامعات المتخصصة وعلى رأسها: مدرسة نابولي للدروس الشرقية عام 1737[73] ، ومدرسة باريس للغات الشرقية الحية عام 1759 على يد المستشرق سلفستر دي ساسي بالاشتراك مع السوري مخائيل الصباغ الذي ألف كتابًا في العامية المصرية والشامية بعنوان " الرسالة التامة في كلام العامة والناهج في أحوال الكلام الدارج"[74] عام 1886 .

ثم بعد ذلك حمل لواء الدعوة إلى العامية وجعلها لغة الشعر والقصة والأدب عملائهم في الشرق فكتب محمد عياد الطنطاوي كتاب(أحسن النخب في معرفة لسان العرب)، وتبعه أحمد فارس الشدياق بكتاب (أصول اللغة العربية المحكية) وغيرهم الكثير.

والهدف وراء الدعوة للعامية واحيائها مع إغفال العربية هو الفصل عن التراث الذي هو أصل الهوية ومنبعها، فالمعاني والمفاهيم العربية ليست مجرد كلمات تلوكها الألسنة بل هي أوعية ومستودعات للمعاني تكمن فيها فلسفة الأمة وهويتها؛ فإذا فرغت هذه المفاهيم وجردت تلك المعاني وأصبحت جوفاء وسطحية الدلالة بحيث لا توقع في نفس المتحدث ما

---

73 تاريخ الدعوة للعامية ص9

74 تاريخ الدعوة الى العامية ص11

يراد من دلالتها أصبحت الأمة هشة الفكر، ومتلفة الثقافة، ولا تحمل هوية حقيقية، لذلك تنحدر اللغة وتتدنى المنتجات الفكرية والأدبية في عهود الاستبداد وإبان زوال الدول وانحدارها نظرًا للهشاشة الفكرية العامة التي تصيب اللغة ومن ثم تصيب الفكر.

والهدف الثاني من إحياء العاميات المبتذلة يكمن في فصل المرء عن لغة العلوم، فاللغة العامية فقيرة من حيث كمية الكلمات ودلالاتها فضلًا عن أن العلوم لا تكتب بها أبدًا، فاللغة العربية كانت لغة العلوم في العالم حتى القرن السادس عشر، ولغة العلم في العالم العربي حتى القرن العشرين، فإذا اعتاد المرء التعلم بالعامية سقطت منه اللغة العربية الرصينة التي هي أداة للعلم والفكر وبذلك أضاع العلم وفقد الهوية في ذات الوقت.

2- الاستشراق

تعد الدراسات الإنسانية هدفاً مهماً للأيديولوجيات في تحقيق أهدافها المتباينة، ولذلك تسعى جميع الأيديولوجيات على اختلاف مراميها إلى التعمق في بحوث الدراسات الإنسانية لتبرير سبل وجودها من ناحية، ولتحقيق أهدافها من ناحية أخرى.

يبرز هذا النسق في شكل جلي في قضية الاستشراق.

والاستشراق هو اهتمام الغرب بدراسة تاريخ الشرق وواقعه عن طريق الوسائل والمناهج المعرفية التي نشأت وتطورت في الغرب.

أما لماذا يدرس الغربيون الشرق من كافة الزوايا دراسة مضنية ؟!

فالإجابة هي: هناك أهداف عدة يسعى إليها الغرب من وراء ذلك وتطورت هذه الأهداف تبعاً لتغير المرحلة.

أولاً: الهدف العلمي

كان هدف الاستشراق في البداية ولاسيما بعد صدمة الحروب الصليبية التي أظهرت مدى جهل وتخلف الغرب أن يتعرفوا على العلوم الإسلامية ويحاولوا نقلها إلى الغرب وهو ما قد كان!!!

فلم يكن العرب كما هم الأوروبيون اليوم يحتكرون العلم، ويصادرون التقنية ،ويقتلون علماء الدول الأخرى، بل علي العكس كانت الأندلس والقاهرة وبغداد وغيرها من حواضر المسلمين تحتضن كل طالب علم أياً كان توجهه أو دينه أو ثقافته.

ثانياً: الهدف الديني

كان غالب المستشرقين الذين أتوا إلى ديار المسلمين تدفعهم الحمية الدينية، ويحركهم ثأر الهزائم النكراء التي تعرضوا لها على أيدي المسلمين، عازمين على رد الصفعة للمسلمين بأخبث الطرق وأشدها تأثيراً في الوقت ذاته.

وعليه بدأ هؤلاء بدراسة الإسلام من كل جوانبه ،كما درسوا تاريخ الأدب العربي، والسنة النبوية، وعادات الشعوب العربية، وقبائلهم، وأعرافهم، ثم بدأ الهجوم على كل ذلك فشككوا في صحة الرسالة النبوية، وزعموا أن الحديث النبوي ما هو إلا تأليف المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، واعتبروا أن الفقه الإسلامي مستمداً من القانون الروماني، وطعنوا في سيرة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، واستندوا في ذلك على الخلافات السياسية التي وقعت في العقود الأولي ليظهروا الصحابة بمظهر الساعين وراء السلطة، المتجردين من كل مبدأ وغاية.

ثالثاً: الهدف السياسي

لم يكن الاستشراق بهذه التسمية يُعرف قبل مرحلة الاستعمار، ونظراً لتأثيره الواضح إبان تلك الحقبة وكثرة المستشرقين ظهر هذا المصطلح متشح بثوب البراءة والطهر، ولكنه لم يكن في حقيقة الأمر إلا رداءً لكافة أنواع العهر.

فقد نشأ ما أطلقوا عليه (علم الاستشراق) قبيل الاستعمار، وكان لزامً لتبرير سياسة الغرب الإمبريالية، وفلسفته الاستعمارية للشرق، فقد كان العالم الأوروبي في ذلك الوقت يتقدم حضارياً بوتيرة متسارعة، حتي شعر بأنه السيد الأوحد في هذا العالم، وأن الكون ما خلق إلا له وحده، وعليه فإن حكم العالم حق خالص له، من حقه أن يسوده، ويحكمه ويسيطر على موارده أنى وكيف شاء.

ومن هنا بدأ مشروع الاستشراق الذي يؤصل لهذه النظرية ومفادها أن الغرب كان ولا زال مركزاً للعالم، وأن أوروبا هي شعلة الحضارة دائماً وأبداً، وأن الرجل الأبيض هو الأذكى والأدهى علي مر العصور والأزمان وله وحده حق حكم العالم وقيادته.

وكان لهذه النظرة المستعلية أن تجد تبريراً لها من خلال الأيديولوجيا التي أُنتجتها في ذلك الوقت لأن الدراسات الإنسانية لا تؤيد هذه النظرية الاستعلائية، ولذلك فقد أيدوا وساندوا الكثير من الفرضيات العلمية رغم أن أساسها العلمي واه جدًا ولكنها في ذات الوقت تعد بنية تحتية لأفكارهم في الجانب السياسي والثقافي كنظرية دارون.

فقد تحولت النظرية من الجانب البيولوجي في التطور لتنحي منحى مختلف في جانب التطور الثقافي والاجتماعي، وعليه يقسم البشر إلى عرق أدنى سيندثر ولا قيمة لوجوده ولا ثقافته ولا خياراته في الحياة، وعرق أعلى مهيمن سيكتب له البقاء ويجب تصدير ثقافته ومفاهيمه للعالم وهو ما نطلق عليه الغزو الثقافي.

كانت تلك النظرة المستعلية مواكبة لحركة الاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق إبان مرحلة الاستعمار المباشر، أما بعد تلك المرحلة فلم تعد تلك النظرة متسقة مع ما تنادي به القوي الغربية من قيم، وما تزعمه من مبادئ، فكان لابد من صياغة فلسفة جديدة تلاءم المرحلة الجديدة، ولكنها تراعي مصالح الغرب الاستعمارية في الوقت ذاته.

وإن كانت الأيديولوجيا في وقت سابق هي التي تبرر هيمنة الغرب ،فإن سطوة الغرب وسيطرتهم على مجالات العلوم الانسانية اليوم تم

تطويعها لصياغة نظرة جديدة تجعل من الرجل الأبيض محوراً لهذا العالم، وتجعل من أوروبا مركزاً للتاريخ والثقافة والإبداع .

وعليه نستطيع القول أن العلوم الانسانية ليست محايدة كما يظن البعض، ولم يكن الغرض من إنشائها في المقام الأول خدمة البشرية، أو محاولة الارتقاء بها، وإنما تم الاهتمام بها ورعايتها لرسم صورة ذهنية تخدم مصالح الغرب في المقام الأول بعدما انتهت صلاحية العلوم الاستشراقية بصورتها القديمة، مما يعني أن الكثير من العلوم ليست محايدة كما يظن البعض وإنما هي مسخرة لخدمة أهداف محددة.

3- التبشير وأهدافه

إن افترضنا أن الاستشراق كان البنية التحتية المؤسسة للحضارة الغربية، فإن التبشير بآلياته المختلفة هو الممهد الحقيقي والبنية الأساسية للاستعمار.

فالعالم المسيحي لا يستطيع أن يقدم رؤية فلسفية للوجود قائمة على مكانة الإنسان المسيحي من العالم، بل الخلفية المسيحية تحط من شأن الإنسان باعتباره مرتكب للخطيئة، ولا يمتلك كذلك تأصيل لتلك الرؤية الشاملة ينتجها له السياق المسيحي، "لذلك كان الإنسان الغربي دومًا في حاجة إما لمؤسسة مثل الكنيسة، أو إلى عملية تنظيمية فلسفية تأخذ شكل الايدلوجيا حتى تساعده على تحديد إدراكه الذاتي[75] .

وإن كان التبشير والاستشراق هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة وموجهان لذات الغاية ونفس الهدف، إلا أن الاستشراق كان منصبًا في البداية على ترجمة علوم العرب ونقلها للغرب، ثم تشويه جزء كبير منها وبث الشبهات فيها، وهو الجزء المتعلق بتاريخ العرب وثقافتهم ودينهم.

---

[75] العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية، ص123

بينما كان هدف التبشير هو نقل تلك الشبهات التي وضعها الاستشراق للعرب إما لتحويل العرب عن إيمانهم بمبادئهم، أو لتجنيدهم لخدمة أجندات الغرب والعمل لصالحهم حتى دون وعي منهم.

من أبرز هذه الشبهات التي تم بثها بشكل واسع أن الاسلام انتشر بحد السيف، وهذه المقولة التي أحدثت شرخًا كبيرًا في نفوس المسلمين فبدأوا يكيفون جهاد الطلب بصيغة تنفي عنه (سبة السيف)، وفي بعض الأحيان ينكرونه تمامًا! هذا بالنسبة للدعاة، أما بالنسبة للعامة فقد كان وقع الأمر أشد وطأة عليهم، وهذه الشبهات المتتالية هي التي جعلت البعض ينجرف تدريجيًا مع أفكار الغرب باعتبارها إنسانية وتقدمية أكثر من الإسلام! .

وقد بدأت سياسة التبشير في عهد الدولة العثمانية وبالتحديد عام 1569 وهو ذلك العام الذي توسعت فيه الامتيازات العثمانية لتشمل ارسال البعثات الدينية الكاثوليكية إلى بلاد الدولة العثمانية وخاصة الشام!

وتلى ذلك إرسال العديد من البعثات التبشيرية التي كانت الاسفين الذي يدق في نعش الدولة العثمانية على مهل.

فلم يكن عمل التبشير كله- كما يعتقد البعض- منصبًا على التعليم، وغزو العقول، وتدمير الهويات' وإنما كان هدفه الآخر غير المعلن هو عمل استكشافي لخدمة الاغراض الاستعمارية للمحتل.

وربما يعد أكبر الاعمال المهمة التي قامت بها المدارس التبشيرية ونعاني من آثارها حتى اليوم هو صناعة جيل يدين بالولاء للدولة التي تتبعها المدرسة أو الجامعة، فضلًا عن الولاء للثقافة الغربية نفسها، والاستهانة بالقومية، واللغة، والدين[76].

وقد استطاعت تلك المدارس والجامعات تفريخ جيل كبير من قادة الرأي والنخب الفكرية ورجال السياسة الذين تولوا دفة القيادة بدلًا من المحتل الأصلي، ولكن الإشكالية تكمن في أن هؤلاء القادة الجدد قد تشربوا

[76] (موسوعة العلوم الإسلامية: تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال ما بين الحربين العالميتين. ص160

التعاليم الغربية ونقلوها إلى المجتمعات العربية دون أن ينتبه الكثير من العرب المتلقين إلى الخدعة الحاصلة في الأمر.

فقد كان العرب يتوخون حذرهم من كل ما يأتي من المحتل الأصلي نظرًا لأن المحتل لا يرتجى منه خير، ولابد أن يكون السم مدسوسًا في كل عسل المحتل، ولكن عندما يتم تقديم ما يطلق عليهم (النخب) وهم قد تلقوا أسمى انواع التعليم ويتحدثون عن هموم الوطن والمواطن فإن العربي الساذج الذي خرج للتو منهكًا ومهزومًا من تحت حكم استعماري لا يرحم يجد في ذلك القائد المثقف اللبق خلاصه الوحيد، وبطله المنقذ، وربما المسكن الذي لا بديل له بعدما دب المرض في جسده، وفقد كل ما يملك تحت وطأة الاحتلال.

ولم يكن كل هذا الجيل الذي خرج من عباءة المحتل يضمر السوء والشر ويسعى لعمالة مبطنة لخدمة أغراض صانعيه، بل إن كثير منهم كان يرى بصدق أن إصلاح المجتمع لا يتم إلا بتبني بعض صيغ المجتمع الأوربي على الأقل[77] .

ولكن ما لم ينتبه له هؤلاء هو بإغفال واقع تاريخ كامل له خصوصيته الزمانية والمكانية والحضارية، ومحاولة استيراد تلك التجربة لواقع آخر يكاد يختلف جملة وتفصيلًا من حيث سبب المشكلات ومنشأها[78]!.

وربما نستطيع هنا أن نقول بأن التبشير قد أتم مهمته بتشويه جانب كبير من العقلية التي سيطر عليها حتى لم تعد ترى في هويتها وتاريخها ودينها مصدرًا للعزة، ولا طريقًا نحو الصدارة وتصويب الأمور، وإنما قادتها الهزيمة النفسية إلى أن ترى في عدوها مصدرًا للقوة التي لا تتأتى إلا بسلوك مسلكه.

وإن كان التبشير كنشاط غربي قد بدأ منذ عهد الدولة العثمانية إلا إنه تم تنظميه، ومأسسته في القرن العشرين وبالتحديد في مؤتمر التبشير العالمي في ادنبره (استكلندا) عام 1910 وأصدر تقريرًا عن النواحي

---

[77] (الفكر العربي في عصر النهضة، ص89، حوراني)
[78] (مسير أم مخير، ص150، حجازي)

المختلفة التي يجب أن يهتم بها المبشرون، وتم طباعتها في عشر مجلدات[79].

وإن كان التبشير يوحي بأن عمله هو نشر الدين المسيحي، والدعاية له إلا أن الحقيقة أن تلك الحجة التي تتستر بها البعثات التبشيرية في عملها كخدم للسياسة الغربية، كشفتها المؤتمرات التبشيرية المتعاقبة التي أوضحت بصراحة منقطعة النظير أهداف التبشير في التمهيد للاستعمار والقيام بأهدافه، والمجالات التي يعمل فيها، وكيفية عمله، ونطاق انتشاره، و غيرها الكثير، ولم يكونوا يجرئوا على نشر تلك التقارير إلا لعلمهم أننا أمة لا نقرأ، وإن قرأنا وفهمنا فلن نفعل شيء فقد انتشر فينا الوهن للحد الذي أفقدنا فاعلية العمل والحركة، وهو ما أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال: - يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكم الأممُ من كلِّ أُفُقٍ ، كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها ، قيل : يا رسولَ اللهِ ! فمِن قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ ؟ قال لا ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ ، يُجْعَلُ الْوَهَنُ في قلوبِكم ، ويُنْزَعُ الرُّعْبُ من قلوبِ عَدُوِّكم ؛ لِحُبِّكُمُ الدنيا وكَرَاهِيَتِكُم الموتَ"[80].

وقد اخترق المبشرون المجتمعات الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ فقد انشئوا المدارس التي تتغير أسمائها حسب مقتضيات العصر، فقديمًا تسمى المدارس الإرسالية-التبشيرية ثم بعد الاستقلال تتغير لتتسمى بالمدارس الدولية ويصبح ارتيادها علامة دالة على رقي الطبقة الاجتماعية!

وترجع أهمية السيطرة على التعليم في احتلال عقول النشء وكما عبر عن ذلك دانيي في تقريره بمؤتمر لجنة التعليم للمجلس التبشيري المتحد الذي انعقد بالقدس عام 1935 " كان التعليم وسيلة قيمة إلى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية والعبادة المسيحية في نفوس الطلاب"

وإن كانت النخب ترى في الغرب مصدرًا للرقي وعلامة دالة على الثقافة المتحضرة فترسل أبناءها طوعًا إلى تلك المدارس، وفي أحيان كثيرة إلى بلاد الغرب أنفسهم حتى يتلقوا أسس المدنية الصحيحة، فلا نعجب أن

---

[79] التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص14

[80] : صحيح الجامع، الصفحة : 8183

تكون كافة النخب في البلاد النامية تسعى لخدمة أغراض غير بريئة وتعادي في كثير من الأحيان مصالحهم الدينية والوطنية.

وكذلك أنشأت البعثات التبشيرية المستشفيات والمصحات العلاجية، وانشئت أول مصحة علاجية تبشيرية في سيواس التركية عام 1859م لاعتبارهم الطب مشروعًا مسيحيًا طبقًا لما قاله الطبيب بول هاريسون في كتابه الطبيب في بلاد العرب " إن المبشر لا يرضى عن إنشان مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها ، لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونسائها نصارى". [81]

وكذلك تلج السياسية التبشيرية المجتمعات المسلمة عبر الأنشطة الاجتماعية والخدمية، والتي تنتشر في كافة البلاد النامية عبر جمعيات ومؤسسات تقوم بتوصيف نفسها بأنها ساعية لتخفيف حدة المعاناة والفقر عن الطبقات الفقيرة، وناشرة للتعليم المجتمعي في بلاد يدق الفقر مضجعها، فنجد في كتاب مؤتمر العاملين المسيحين بين المسلمين الهدف الحقيقي من تلك الأعمال الرحيمة " نحن نعنى بالعمل الاجتماعي المسيحي بتطبيق مبادئ يسوع المسيح في جميع الصلات الإنسانية. إن المسلمين يدعون أن الإسلام يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر ؛ فعلينا أن نقاوم الإسلام دينًا بالأسلحة الروحية. فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعاليم المباشرة للإنجيل ويساعده ويتمه."[82]

أما المعونات المختلفة التي تنفقها تلك المؤسسات فهي تصب كذلك في صالح أهداف التبشير الكبرى ففي كتاب ألفه جماعة من البشرين تحت عنوان "أسس جديدة للتبشير" كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير، ويجب أن يبقيا كذلك. أما أعمال الخير فيجب فيجب أن تستعمل بحكمة فلا تنفق الأموال إلا في سبيلها: يجب أن تعطى الأموال أولًا للبعداء، ثم يقل دفعها تدريجيًا كلما زاد اقتراب هؤلاء للكنيسة (أي كلما

---

[81] الطبيب في بلاد العرب، ص277

[82] التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص191

زاد الأمل في انضمامهم إلى المذهب الجديد) فإذا دخلوها منعت عنهم أعمال الخير، ثم يجب ألا نبالغ في الناحية الخيرية على أي حال."[83]

وهكذا تصب جميع الأعمال الخيرية والتعليمية الغربية سواء التي تأتي من المؤسسات التبشيرية أو غيرها في صالح مصالح أيدولوجية واستعمارية كبرى.

4- الحركات القومية والشعوبية

كان العالم القديم مقسم إلى امبراطوريتين كبيرتين، الإمبراطورية الإسلامية المترامية الاطراف من الشرق مرورا بأسيا ووصلاً إلى شبه الجزيرة الألبيرية،

وفي الغرب كانت هناك الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تحكم باسم الكنيسة، وبالرغم من تعدد لغات وقبائل المسيحين إلا أن الكنيسة استطاعت توحيد كافة المسيحين تحت عباءتها الدينية وجمعتهم بلغتها اللاتينية المقدسة- لغة العلم والدين- إلا أن الأمور في العالم المسيحي بدأت تخرج عن السيطرة لا سيما بعد فشل الحملات الصليبية في المشرق وسقوط القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية الأمر الذي كان بمثابة جهاز إنذار يبشر بزوال السلطة التي منيت بكل هذا الفشل؛ ألا وهي الكنيسة.

ظهرت حركة التصحيح البروتستانتية والتي اعقبتها حروب مريرة - بهدف الوصول إلى الحرية الدينية في اختيار المذاهب والتي كانت محرمة قبل ذلك- أنهكت القارة العجوز وقضت على أكثر من ثلث سكانها ليتم في النهاية الوصول إلى صلح وستفاليا1648م وهي المعاهدة التي أسست لما يسمى بالدولة القومية الحديثة، وكانت إيذانًا ببدء انتشار الفكر القومي ليخيم على أوربا كلها ومن ثم يتسرب إلى العالم العربي.

---

[83] التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص194

كان الفكر القومي الأوربي هو منقذ الأوربيين من سلطة الكنيسة الرومانية الخانقة التي كانت تستغل توحيد المسحيين تحت لوائها حتى تستطيع السيطرة عليهم ونهب مقدراتهم، والفكر القومي في أساسه يقوم على فرضية مبناها أن رغبة الأمة في تحصيل أي شيء أو حتى في ادعاء أي شيء هي حقيقة ثابتة لا يجوز إنكارها، وفي حين تعارضت رغبتان لقوميتين مختلفتين فإن قانون الغلبة يحل محل الحق، أي أن الأمة الغالبة المنتصرة على الأخرى في ميدان المعركة تكون هي صاحبة الادعاء الحق.

و كان بالنسبة للعرب وسيلة لتجزئتهم والقضاء على وحدتهم حتى يستطيع الاستعمار أن ينفرد بكل جزء منهم على حدة، لذلك نشأ الفكر القومي بدءً من الحركة الطورانية في تركيا مرورا بالقومية العربية التي أتبعتها الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إبان بدء الحركة الاستعمارية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ولم تلبث الحرب أن تنتهي حتى كانت القومية قد أتمت وظيفتها ومهدت الطريق للاستعمار .

ولذلك فإننا يجب أن نعي أن "الثقافات الفكرية النظرية هي نتاج خاص بأمتها، وقد تكون ضربًا من الأساطير والخرافات، أو تكون في أحسن صورها تعبيرًا عن خصائص أمتها وظروفها، لا تصلح لغيرها، بل ربما كانت أفسد الأشياء لهذا الغير"[84]

فمن الحماقة أن يصف الطبيب دواءً واحدًا لكل مريض يصادفه، فقد خلق الله الناس شعوبًا وقبائل، قال تعالى " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ[85] " وجعل العرف إحدى مصادر التشريع الرئيسية فلم يسلب من الناس قيمهم وأعرافهم ما دامت لا تخالف أصلًا شرعيًا، كان كل ذلك يهدف إلى حقيقة أن الله جبل البشر على الاختلاف وعليه فإن استيراد مناهج فكرية أو سياسية أو ثقافية لتطبيقها على واقع مغاير بحجة إنها نجحت في إصلاح الواقع الذي أتت منه لهو ضرب من ضروب الخبل ومخالفة للسنن الكونية التي أودعها الله في كونه.

---

[84] .(الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص189،علي عبدالحليم محمود)

[85] سورة هود، آية 118

أما في حال استيراد مناهج كانت عوراء وفاسدة في حياة صانعيها وجرت عليهم من البلايا ما لا يوصف كالفكر القومي الذي هو أبو النازية والفاشية الذين فتكا بأوروبا ودمراها مطلع القرن الماضي، وكانا السبب في ظهور أبشع الحروب في التاريخ والتي راح ضحيتها ما يربو عن مائة مليون نفس فضلًا عن تدمير كافة العواصم الأوربية وتشتت الأسر وانهيار الدول، ثم نستورد مثل هذه الأفكار التي نبذوها هم أنفسهم لعلمهم بفسادها وعوارها، فهذا مما يحار فيه اللبيب.

5- إحياء الهويات البائدة

قدّم المستشرق ث. كويلر يُنج، أستاذ العلاقات الأجنبية ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية بجامعة برنستون الأمريكية، اعترافا علنيا مهمّا، بخطّة ماكرة عمل عليها الاستعمار الحديث في كلّ بلد مسلم دخله، إذ قال: "إنّنا في كلّ بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال في أن يرتدّ مسلمٌ إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكنْ يكفينا تذبذبُ ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات".

ولذلك كانت من مهام الاحتلال الأولى في بلاد المسلمين تتمثل في كشف الستار عن أقوام هالكة وحضارات ميتة من عصور غابرة كانت في سنن المسلمين قبل ذلك الوقت مأخذ للعبرة والعظة لتصير بعد ذلك مصدرًا للفخر والعزة وهذا من عجيب تبدل الأيام والأفكار!

فعلى سبيل المثال اجتهد الفرنسيون في مصر من خلال علماء الحملة في التنقيب عن ما بقى من رفات الفراعنة وآثارهم ليتوج هذا التنقيب في عام 1822 على يد العالم الفرنسي شامبليون بفك طلاسم اللغة الهيروغليفية لتبدأ بعدها حقبة جديدة من تمجيد الفراعنة ونسبة المصريين إليهم؛ وتكمن الخطورة هنا في تشتيت الهويات ما يعني بالضرورة الانفصال عن الهوية الإسلامية الجامعة للشعوب المنطوية تحت لواء الإسلام لتجد في النهاية أن الإسلام يرقد في الزاوية كعقيدة منبتة الصلة عن تشكلات الهوية والوعي اللذان يحركان سلوك الفرد.

وإن كنا نعرف الهوية بأنها إدراك الفرد لذاته معرفيًا وثقافيًا ونفسيًا، تلك الإجابة التي تنبع من تصوراته الكبرى للعالم، وتعد الثقافة بما تتضمنه من دين وأخلاق وأعراف هي المشكلة لتلك التصورات الكبرى التي بدورها تشكل هوية الفرد.

وذلك يعني أنه لا يتصور أن تتشكل هوية صحيحة تعطي تصورات منطقية للفرد حول رؤيته لنفسه وللعالم من حوله إذا كانت مبنية من تصورات مختلفة وربما متضاربة فيما بينها، فهذا في النهاية- الهويات المختلفة- تنشئ الإنسان المغترب التائه الذي لا يعرف وظيفته في الحياة ويتخبط في مسارات عدمية لا توصله إلى شيء، وهذا بالضبط ما حدث لكثير من الشباب المسلم بعد سياسة إحياء الهويات والحضارات البائدة ليتخبطوا في تيارات العدمية التي أفضت بهم في النهاية إلى الإلحاد.

وبحسب دراسة أجرتها بي بي سي بين عامي 2018-2019 على سكان الشرق الأوسط وجنوب افريقيا توصلت إلى أن نسبة الملحدين في الدول التي شملتها الدراسة ارتفعت من 8% عام 2013 لتصل إلى 13% لتحتل تونس المرتبة الأولى عربيًا في عدد الملحدين و اللادينيين بنسبة 30% من إجمالي عدد السكان، وتشير الدراسة إلى أن النسبة في تزايد.

وكان ذلك مما التفت إليه المفكر محمد قطب وعلق عليه بقوله: "لقد كانت الآثار الفرعونية موجود منذ ألوف السنين. سرق ما سرق ونهب منها ما نهب.. وبقيت المعابد والهياكل الضخمة يزورها من يزور مصر ويعتبرها من " عجائب " الماضي السحيق، يتسلى برؤيتها ويقف عندها ليأخذ العبرة يمضى.. ويعود إلى بلاده ليصفها لمن لم يرها.. ثم يمضى الأمر كله بلا احتفال كبير..

وأما المسلمون من أهل مصر فقد كانوا يرونها دون شك، ويعجبون من دقائق صنعها، ولكنها في حسهم أصنام وأوثان تركها قوم غابرون، انقطعت الصلة بينهم وبينهم بكون هؤلاء مسلمين وأولئك من عبدة الأوثان.

وكان هذا هو الحال في كل مكان في العالم الإسلامي توجد في آثار من بقايا عبدة الأوثان الذين كانوا يسكنون الأرض قبل مجيء الإسلام، سواء في الجزيرة العربية أو بلاد الشام والعراق أو غيرها من البلاد.. ظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام.. الناس في إسلامهم، وهذه الأوثان في الأرض، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ.

ولكن المخطط الخبيث الذى حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ، لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء للإسلام! .[86]"

وهكذا يرى البعض ولا سيما المنظرون الإسلاميون أن الحملات الصليبية لم تتوقف في الحقيقة حتى يومنا هذا وإن كانت قد غيرت أثوابها كثيرًا لتتلاءم مع كل حقبة وكل مرحلة تاريخية، وما كان الغزو الفكري الأخير لديار الإسلام سوى إحدى المحاولات الجارية على قدم الوثاق لضرب قوة المسلمين ومحو هويتهم تمهيدًا لاحتلال اراضيهم بشكل كامل وتعبيدهم بعد ذلك للغرب.

وللأسف مع الحملات المتتالية والمتشكلة بأثواب مختلفة غفل المسلمون عن مراد الغرب منهم لما أضفاه الغرب على ما يقدمه تحت مسميات كثيرة كالتبادل الثقافي، والحضارة الجديدة، وعصور التنوير وغيرها من الأسماء البراقة التي يصف بها ثقافته مع إضفاء كل الأوصاف الشنيعة على ثقافة المسلمين ومبادئهم ووصفها بالتخلف والهمجية والبدائية.

وإن كان البعض يرى أن إحياء تلك الهويات تنبع في المقام الأول من الثقافة العولمية التي غزت جميع المساحات، فلم يعد يتبين المرء هويته الحقيقية وخاصة المسلمين بعدما تماهت المؤسسات الدينية الرسمية مع خطاب العولمة، وتم إضفاء طابع السوق على الخطاب الإسلامي ليتحول إلى إسلام السوق كما في أطروحة الباحث باتريك هاييني.

---

[86] قطب، واقعنا المعاصر،ص228

وإسلام السوق هذا هو الإسلام بثوبه العلماني الجديد، فهو إسلام لكل أحد ولا يعادي أحدًا، وتدعم مفاهيم الإسلام الجديد ثقافة الاستهلاك والانخراط في عالم المادة ولن يعدم النصوص حال ذلك، فالمؤمن القوي أحب عند الله من المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي هنا هو المؤمن الغني صاحب السلطة والقوة وهو ذات التعريف النتشوي الذي قامت عليه الفلسفة الغربية الحديثة!.

وكذلك كما في الحديث الشريف "فإن الله يحب أن يرى أثر نعمة عبده عليه"، ويترجم بالطبع على التمتع الشره بالمنتجات الاستهلاكية، والتماهي مع السوق بكل ما يقتضيه هذا التماهي، ويخلفه من آثار تقضي على فلسفة الإسلام نفسها من وجود المسلم في الدنيا، ومنطق خلافته فيها.

وهكذا يتم تطويع النص تلو النص لخدمة أغراض تصب في صالح السوق في النهاية، وتفرغ الإسلام من مضمونه لأنهم يستخدمون نصوص جزئية تخدم أغراض معينة، و فهم مسائل الإسلام لا يكون إلا بجمع النصوص إلى بعضها والخروج بحكم يضع في اعتباره ظروف الزمان والمكان، وأقوال الفقهاء وفهم الواقع وظروفه، والمستفتي ومالاته، وغير ذلك من الضوابط التي تحكم فهم الدين.

وما يهمنا هنا أن إسلام السوق هذا قضى على الهوية الإسلامية ومسخها، فلم يعطها أي خصوصية لا سيما في واقع يعاني فيه المسلمون من القهر والانهزام الحضاري، ويبحثون عن القشة التي يتعلقون فيها للخروج من مأزق الهوة الحضارية والانهزام النفسي، والفقر الاقتصادي، والتخلف التقني، والفشل الاجتماعي وغيرها من المشاكل التي اجتمعت وحطت فوق رءوسهم، ولأن الحكومات تحارب الدين غير المعولم فلم يكن هنالك بد من البحث عن هوية أخرى غير الهوية الدينية -التي لم تعد توفر لأصحابها إحساسهم الكينونة والتمايز- لكي يجدوا فيها صدى لأنفسهم، فنقبوا في أدغال التاريخ ليخرجوا في النهاية بحضارات عفى عليها الزمن كي يتمسحوا فيها، وينتسبون إليها.

في النهاية نقول أن ذلك الغزو الفكري قد اتي أكله أكثر مما كان يتصوره الغزاة أنفسهم، ونفذ السهم إلى جسد الأمة عميقًا غائرًا، ولكنها مازالت أمة حية لا تموت وإنما كل ما تحتاج إلي محاولة فهم مكمن الداء والأماكن التي نفذت من خلالها الأسهم حتى تستطيع مداواة الجراح، ولكن للأسف فإن كثيرين ممن يتعاملون مع جراح الأمة يعالجون جراحها السطحية دون الوصول إلى أس الداء الحقيقي.

الغزو التقني

يوصف الإنسان دائماً بأنه كائن اجتماعي، يعيش في جماعة يستمد منها شعوره بكينونته، يؤثر في تلك الجماعة ويتأثر بها، ولكن هذا التعريف قد انتهي مع فوكو الذي أعلن موت الإنسان أو نهايته، لينضم إلى غيره من فلاسفة ما بعد الحداثة لا سيما فلاسفة مدرسة فرانكفورت الذين رفعوا شعارات مماثلة.

ومع انتشار فلسفة الحداثة وما أنتجته من قيم الفردية والمادية المفرطة وما ترتب على ذلك من هشاشة العلاقات الاجتماعية وتشظي الحياة الأسرية، كان لابد من استحداث أنماط جديدة ليتعايش بها ذلك الإنسان الحديث.

فكان لابد من إنشاء حياة افتراضية تتناسب مع الإنسان الحديث الذي أصبح يعاني من الوحدة المفرطة، والشعور بالترك والعجز، وفي ذات الوقت لا تحد من انعتاقه وتفلته

وتكمن الإشكالية في ذلك الأمر أن تلك الحياة الافتراضية كانت الداء والدواء، السم والعسل في نفس الوقت، لقد كانت حلًا ناجحًا ومتوقعًا، بل ومطلوبًا للدول الليبرالية التي تمكنت منها الفلسفة الحداثية حتى النخاع، فكانت الحياة الافتراضية دواءً مسكنًا لداء عضال من اليأس، وتفكك اللحمة المجتمعية، وانهيار روابط الأسر، وتفكك عرى المجتمع.

ولكنها كانت الداء العضال لمجتمعاتنا العربية التي كانت على أبواب التحديث، الذي لم تفهم ماهيته وفلسفته وكنهه إلا باعتباره مقابلًا للتخلف

والرجعية، قد انكبت على أدواته، وفتنت بها أيما فتنة، وانخرطت في ثقافة المجتمع المعولم الجديد.

ولهذا فقد نالها نصيبها من أمراض مجتمع العولمة الحديث وإن كانت لم تحظي بفرصه، فقد نالت نصيبها من التفكك الأسري، والتشظي المجتمعي، والاكتئابات المتزايدة، والشعور بالعجز والوحدة والفراغ، ولم تنل الجانب المشرق من المعادلة فلا زالت ترزح تحت سلطات الاستبداد بمختلف أشكالها، ومازالت ترزح تحت مديونية عالية، وفقر اقتصادي وتخلف تقني، فكان الحل لها -كما صور لها- أن تسلك ذات السبيل الذي وضعه لها السوق، فتنخرط في الحياة الوهمية علها تنسى بؤس الواقع

الإسلام والنهوض الحضاري الجديد

يقول على عزت بيجوفيتش "الحضارة هي استمرار للتقدم التقني لا الروحي"[87]،

كانت تلك الأزمة التي عبر عنها بيجوفيتش بعبارة بسيطة تصدر نفسها كفشل نهائي ألم بأمل الإنسان الغربي في التحرر المزعوم.

فمن المعلوم أن الإنسان يسعى لبناء الحضارات لتحقيق تحرره الكامل من ناحية، وهو الشعار المثير الذي رفعته الحضارة الغربية، و لسعيه خلف الأمن بمعناه الشامل من ناحية أخرى.

ومعلوم أن الحرية التي قاتل في سبيلها الغرب طويلًا تحولت إلى انعتاق من المعنى، ومن الوجهة، فأفضت بأصحابها إلى التيه، والعمى، فأصبح شعور الأمن مع الاستبداد أخف وطئه من الحرية مع التيه الكامل في طريق متشعب يملئه الضباب، و لا يعرف المرء فيه أي وجهة يسلك، ولا إلى أي سبيل يهتدي.

ومع التيه الكامل أعمت الحضارة الغربية أصحابها عن كل ما يمكنهم التشبث به، فلم يعد هناك أي بارقة ضوء في طريق التيه الطويل، ففقد أمانه الكامل، وأصبح يحيا في زمن يلفه الخوف من كل مكان.

فإن كان التقدم التقني في الحضارة الغربية قد سيطر عليها بحيث ضيعت في سبيله الإله فأعلنت موته، والإنسان فأعلنت تجاوزه، وأهلكت الطبيعة وأعلنت الحرب معها وعليها.

فإن الإسلام الذي امتلك رؤية شاملة حافظة لمكانة الوجود الإنساني، ومبنية على مركزية الله تعالى باعتباره صاحب الخلق والأمر، قد استطاعت حضارته إبان عصور نهضتها أن ترتقي بالإنسان فكرًا، وروحًا، ونفسًا، وتحافظ على الطبيعة من حولها، وتعظم الله تعالى قبل كل شيء؛ فحققت الحرية بعبوديتها لله وحده وبتحررها من الركون

---

[87] الاسلام بين الشرق والغرب، ص108

للماديات والمحسوسات، ووصلت بالإنسان إلى الأمان الكامل باعتباره غاية السبيل.

ولذلك فإن إعادة احياء الهوية الإسلامية هو صيغة أخرى من صيغ التحولات الحضارية، ويمكن أن يقوم بديلًا حضاريًا متكاملًا باستطاعته أن يتحدى الحضارة الغربية[88]" ، لما يمتلكه الإسلام من منهج متكامل يصوغ للمرء حياته، وينظم المجتمع من جوانبه المختلفة.

المنهج وقاطرة الحضارة

ونقصد بالمنهج الإطار الكلي الذي يحكم فكر أتباعه الروحي والفكري والثقافي، و يوجه سلوكياتهم في كافة مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. إلخ، ويضبط قيم المجتمع الناظمة للحركة في التاريخ.

والمنهج إما أن يكون صحيح في ذاته فيتوافق مع الناس الذين وضع لهم فيرتقي بهم في سلم الحضارة، وتكون حركة النهوض الحضاري مرتبطة بصورة طردية مع مدى القرب من هذا المنهج ومدى البعد عنه، فهم يرتقون في السلم الحضاري كلما عادوا لذلك المنهج وتمسكوا به، والعكس صحيح، فكلما تفلت منهم المنهج وانحرفوا عنه تراجعوا عن سلم الحضارة.

وقد يكون المنهج في ذاته غير منضبط وبالتالي لا يتوافق مع الناس الذي وضع لهم؛ فيحيل حياة الناس همًا وغمًا كلما تمسكوا به، وبمقدار ابتعادهم عنه يكون خلاصهم ونجاتهم.

ولكي يكون المنهج واقعيًا ويرتقي بالأمم التي يحكمها فلابد له أن يكون ملمًا بالنفس الإنسانية التي تسير وفقًا له، متسقة مع فطرته، ومحققة لاحتياجاته الروحية، والفكرية، والبيولوجية وضابطة لها في الآن ذاته، فلا تغالي فيها فتنخفض به عن درك الإنسانية إلى أسافل البهيمية، ولا

---

[88] العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية ص10

تزهد فيها ليعاني بسبب إنسانيته فلا يستطيع التعاطي مع الحياة بما أراد الله منه.

، فلا ينبغي أن يكون هذا المنهج نتاج لظرف تاريخي معين، أو مجرد رؤية فلسفية لفيلسوف ما، وذلك لأن مناهج الفلاسفة والمفكرين محكومة بشكل كبير بما يؤثر على النفس البشرية من عوارض الحياة المختلفة خيرها وشرها، فيعرض صاحبها لعدم الحياد والموضوعية.

ويجب أن يكون المنهج كذلك ملمًا بسنن التاريخ والاجتماع الإنساني، وفهم طبيعة الكون، و فهم علاقة الإنسان مع غيره في هذا العالم، ورؤيته الوجودية، ودوره الحضاري، فمنهج تكون رؤيته قاصرة على جانب واحد مع إغفاله بقية الجوانب الأخرى لهو منهج قاصر، لا يرتجى فيه صلاح الإنسان.

وكذلك المنهج الذي يضعه شخص أو مجموعة من الأشخاص مهما اتسع علمهم، وحازوا من الخبرات والمواهب الكثير فهم غير مؤهلين تمامًا لقيادة البشرية جمعاء نظرًا لما ذكرناه آنفًا من عدم حيادية النفس البشرية من جهة، وتأثير الظروف المختلفة عليها، بالإضافة إلى أن الحياة متغيرة، والنفس البشرية مبدعة بطبيعتها، وحوادث الزمان متجددة؛ لذلك فإن وضع منهج بشري يحكم سير المجتمعات لهو مؤذن لها بالخراب، والتوقف عن متابعة دورها الحضاري.

وقد يكون المنهج صحيحًا في ذاته، صالحًا للأمم وسبيلها للرقي والعمران، والتقدم الحضاري، ورغم ذلك يهوي بالمتمسكين به، و يسحق نموهم الحضاري ولذلك بسبب أن التمسك بالمنهج يكون جزئيا؛ فيتمسكون ببعض مبادئه ويضخمونها فوق الحقيقة، ومن ثم يغفلون المبادئ الأخرى ويتجاهلونها.

أو يكون التمسك بالمنهج ظاهريا فقط، فيتمسك الناس بشكلياته الظاهرية مع إغفال المبادئ الكبرى التي ينطوي عليها أصل المنهج، والتي تحكم سير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها على الحقيقة،

فيكون التمسك بالظاهرية هو السبيل لإثبات فشل المنهج، ووسيلة للتشهير به من قبل خصومه وأتباعه على حد سوء.

وقد يتمسك الناس بما يظنون أنه المنهج مع إنه تحوير للمنهج على الحقيقة وذلك ما يسمى بالتحريف، فقد يقصد الناس الالتزام بالمنهج، ولكن المنهج الذي وصل إليهم كان محرفًا على غير الحقيقة، أو قد تكون التركيبة الذهنية لهؤلاء القوم تعاني من الخلل فيصل إليهم المنهج فيفهموه على غير الطريقة التي أراد لها الشارع.

وقد يعاني المنهج من التمييع فيلتزم به الناس جزئيًا ويحرفون فيه بما يوافق أهوائهم رغم فهمهم له، وهنا يختل ميزان فهم الناس للمنهج في الأجيال اللاحقة ليشهد عملية التحريف.

وقد يعاني المنهج من التشويه العمدي، فيلجأ بعض المستفيدين من الساسة والقادة إلى تحويل بوصلته ليخدم مصالحهم الخاصة على سبيل الصالح العام للأمة، وفي سبيل ذلك يضيفون ويحذفون من المنهج، ويفسرونه بالتحريف غير الموافق لما أراده له الشارع حسب أهوائهم ومصالحهم، وهم في سبيل ذلك يستخدمون كل الطرق والوسائل التي تؤثر على حملة المنهج في إيصال رسالتهم.

ومن أمثلة التشويه الأخرى التي قد تطرأ على المنهج ما قد يحصل له من محاولات للتجديد بدعوى المعاصرة والتجديد، فتنحرف أصوله وقواعده عن ما أريد لها الشارع، ليتحول لمنهج جديد غير المنهج القديم.

وفي المقابل قد يعاني المنهج من الثبات و الخمول، وذلك بسبب خلط الناس بين التجديد الذي يهدم أصول المنهج والتجديد الذي يحييه، فيظنون على غير الحقيقة أن كل تجديد هو تدمير وتشويه فيصبح المنهج خاملًا عن التعاطي مع دنيا الناس المتجددة؛ فيهوي بهم أو يهوون به إلى قاعِ سحيق.

ولذلك فإن المنهج الثابت الجامد الذي يحرم على الناس الاجتهاد والتعاطي مع دنيا الناس، وسنن الكون، لهو منهج عقيم لن يرتقي بأصحابه إلى دورهم الحضاري المنشود، ولذلك فإن المنهج يجب أن يشتمل في داخله على مقومات الاجتهاد المقاصدي المنضبط الذي يحقق التفاعل مع دورات التاريخ المتغيرة، ودنيا الناس المتجددة دون أن يسمح بأن تصاب قواعده بالخلل والتشويه.

نحو إعادة احياء المنهج

وبعدما يتوارى المنهج خلف الكثير من ركام الثقافات والأفكار الواردة، ويختل ميزانه في الكثير من العقول التي من المفترض إنها مؤمنة به؛ تبدأ الصحوة من جديد لمحاولة إحياءه بعدما فشلت الكثير من المناهج والأفكار في إصلاح الحال وتغيير المآل، وتتوالى الدعوات الإصلاحية لمحاولة إزالة الزخم من العقول، وتحرير مصطلحات ومفاهيم المنهج الأساسية لبناء قاعدة المنهج في النفوس بعدما تهدمت؛ باعتبار أن الرجال هم وقود المنهج وعلى أكتافهم ينهض ويتحقق واقعًا ملموسًا.

وبالرغم الكثير من الدعوات والحركات التي تسعى لإحياء المنهج والعمل على عودته لصدارة المشهد وتحكيمه كمنهج ضابط إلا أن تلك المحاولات تبوء بالفشل نظرًا لأمور منها:

1- عدم وضوح البوصلة

إن كنا نتحدث عن إعادة إحياء المنهج فلابد من وجود بوصلة ضابطة للتوجه يتوجه إليها الناس أثناء عملية الإحياء، و إن كنا نتحدث عن منهج الله تعالى فإن هذا المنهج معناه: أن يستمتع الإنسان بمزايا منهج يضعه الله له، الله الصانع الحكيم، العليم، البصير، الخبير...منهج برئ من جهل الإنسان، هوى الإنسان، وضعف الإنسان، وشهوة الإنسان.... منهج لا محاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل... لأن الله رب الجميع، -ولا تخالجه سبحانه وتعالى عن

ذلك علوا كبيرًا- شهوة المحاباة لفرد، أو طبقة، أو شعب، أو جنس، أو جيل.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الإنسان...الذي يعلم حقيقة فطرته، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها، ووسائل خطابها وإصلاحها، فلا يخبط –سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرًا- في تيه التجارب بحثًا عن منهج يوافق. ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية حين يخبطون هم في التيه بلا دليل[89]"

2- تشتت الاهداف

كثير من حركات الإصلاح تضع نصب أعينها أهدافا محددة، وتضع في سبيل ذلك الخطط الكثيرة، والآليات المتعددة التي ستسلكها للوصول إلى هدفها، وهذا هو الصحيح بلا ريب، ولكن تكمن المشكلة في وضع العديد من الأهداف على الطاولة مع ضعف الإمكانات والموارد، فتتشت الطاقة وتُهدر، وفي النهاية لا يتحقق أيا من هذه الأهداف.

وأحيانًا تضع الحركة هدفًا واضحًا وتسعى لإنجازه ولكنها تسعى للنجاح اللحظي، وتريد الفوز في أي معركة كي تلهب حماس تابعيها، فتسلك سبلًا مختلفة لتحقيق أرباح لحظية، وفي سهوة منها تغفل عن الهدف الرئيسي فتفقده

المشتتات كذلك مثل آلية السنارة والسمكة، ففي كثير من الأحيان لا تكون المشتتات على الطريق سوى طعم يتم اصطياد الحركة من خلالها، فتختل البوصلة، ويضيع الهدف.

كما أن الارتباك وعدم القدرة على اتخاذ القرار الملائم في الأوقات الضبابية يفضي إلى الارتباك الذي يعطل عن متابعة الهدف الموضوع، فيضطرب نسق الحركة، وتختل ديناميكيتها، وقد تضيع أثناء ذلك الفكرة

---

[89] الظلال 692\6

التي قامت عليها أو تتشوه، وبذلك تكون قضت على نفسها من خلال قضائها على الفكرة التي قامت لنصرتها.

3- عدم الواقعية وخلل الاولويات

والواقعية تعني القدرة على الإحاطة بالواقع ومشاكله من كافة الجوانب، وفهم الإنسان وحاجاته الروحية ،والجسدية، والنفسية المتغيرة في كل عصر، و كل مصر، وفهم آماله وطموحاته وتركيبته الذهنية ، ثم محاولة الدفع بهذا الإنسان نحو المنهج الفطري الذي يؤدي به إلى الانسجام مع سنن الله في الكون وتحقيق مراد الله منه.

ولا يكون ذلك إلا بمحاولة التغيير التدريجي، وفهم الأولويات ولنا في ذلك رسول الله اسوة حسنة عندما أراد أن يغير إنسان الجاهلية إلى المسلم الموحد لم يبدأ في أول المطاف بالضوابط والأحكام الفقهية كتحريم الخمر والزنا، وإنما بدأ في تزكية النفوس وإزالة أدرانها، ثم تحرير العقول وفك قيودها، وتأكيد الكرامة الإنسانية وقيمتها، فلما أخذ المسلم بزمام ذاته، وعلم إنه عبد لله وحده، وأنه عزيز على الله وأن نفسه أمانة، وجسده مكرم؛ سعى أن يحفظ تلك الأمانة المقدسة، و واهتم بهذا الجسد المكرم من كل ما يسوئه، و حافظ على عقله من كل ما يهدره لأنه أساس تكريمه ومناط تكليف.

فعندما نزلت تشريعات الزنا والخمر بعد أكثر من عشر سنوات على الدعوة لاقت آذان مصغية، وقلوب واعية، وأنفس متقبلة؛ فانصاعت للأمر، واجتنبت النهي، لموافقة المراد لتلك الأنفس الجديدة التي زُكيت وطُهرت، ولتلك العقول الجديدة التي حُررت، روي البخاري بسنده عن عائشة –رضي الله عنها- قالت: ((إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع

الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً[90]." من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكذلك ما أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس –رضي الله عنهما- أنه قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم)) [91].

فبدأ صلى الله عليه وسلم بالأهم ثم المهم، فبدأ بالعقيدة والتي هي مناط الدين وأساسه، وإذا استقرت في النفوس كان ما بعدها أيسر في القبول والرسوخ في النفس.

ثم كان الأمر الثاني وهو الصلاة؛ فبها ترتقي النفس، وتسمو بلقاء خالقها، فتشرق روح صاحبها، فيتطلع لإرضاء ربه جل وعلا، ويصبح في شوق وحبور وهو ينتظر ما يطلب منه خالقه، "فالقلب الذي يسجد لله حقًا، ويتصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر إنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض[92]"، فإن جاء الأمر ببذل النفس والمال بعد الارتقاء في مراتب العبودية، والترفع عن حاجات الأرض ومادتها كان الأمر سهلًا يسيرًا، لذا فرض الله قيام الليل على النبي وصحابته الكرام أول الأمر، ثم نسخت الآية وأصبح القيام سنة لمن يستطع إلى ذلك سبيلًا.

وفيما يروى عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه "أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه وهو في قائلته فأيقظه وقال: ما يؤمنك أن تؤتى في منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها.

---

[90] رواه البخاري (4993).
[91] رواه البخاري (1496)
[92] الظلال، ص40

قال: يا بني إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني؛ إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا؛ وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي. إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزله الآية والآيتين، حتى استكن الإيمان في قلوبهم. ثم قال: يا بني أما مما أنا فيه أمر هو أهم إلى من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبلهم ما قبلهم، فلئن جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي، ولكني انصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له، فإن يرد الله تمام هذا الأمر أتمه. [93]

وقد فهم عمر بن عبدالعزيز ببصريته النافذة، وفهمه العميق لسنن التغيير أن التحول الذي أحدثه الأمراء في الناس في العصور السابقة قد استحكم على نفوسهم، فغيرهم عن المنهج القويم الذي جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم، فلو أراد إرجاعهم إلى المنهج دفعة واحدة ما استجابوا له، وربما خرجوا عليه، وربما تحلوا بالشكلانية والظاهرية في طاعتهم ارضاءً له، وفي الباطن ارتكبوا كافة الشرور والآثام، فيصنع ثلة من المنافقين بينما يريد تحويلهم إلى متقين.

وعليه فإن تغيير سلوكيات الناس وأخلاقهم يبدأ بتغيير عقولهم وأفكارهم، فالفكرة هي أم السلوك والدافع الحقيقي له، ولذلك قال الإمام الغزالي رحمه الله "الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل ،كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، فالحرية النفسية والعقلية أساس المسئولية، والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها وهو يبني صرح الأخلاق".

فسياسة الناس بالإكراه حتى ولو على أمرِ حق دون أن تكون نفوسهم مستعدة، وعقولهم مدركة، وقلوبهم خاشعة لله، لهو مفسدة للدين والدنيا معًا.

---

[93] ((مناقب عمر بن عبد العزيز)) لابن الجوزي (ص: 127).

والغريب في الأمر أن الكثير من دعاة الإصلاح في المجتمعات الإسلامية، الداعين إلى العودة لمنهج الإسلام يغفلون أبسط تلك المقومات التي قام عليها الإسلام نفسه أول الأمر.

فنجدهم ينشغلون في معارك الحدود، والحجاب، والملاهي، والخمر وغيرها من أمور الشريعة- المهمة ولا ريب- وفي نفس الوقت ينسون أصل المعركة، ويتفلت من أيديهم خيط البدايات، فيسقطون في فخ عدم الواقعية، فيصدرهم أعدائهم للعالم بصورة الهمج المتخلفين الذين يسعون لجلد الناس وضرب أعناقهم بالسيوف، فيخسرون المعركة قبل بدايتها.

ولو أن هؤلاء انتبهوا ولو قليلاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم التي يسعون لتطبيقها لعلموا أن النبي صلوات ربي وسلامه عليه بدأ بالعقول يزيل أدرانها، وبالنفوس يزيل غبشها، و ينحت فيها كلمة واحدة، وهي " لا إله إلا الله" وهي كلمة جامعة لمعاني الخضوع لله فكرًا، وروحًا، وسلوكًا ومعتقدًا، وخلقًا، وهي تحويل للبوصلة، ونقل للوجهة، فيصبح الطريق كله معبدًا لتحقيق مراد الله من الإنسان، وهذا هو مدلول الكلمة في الاصطلاح، ومدلولها حين نزلت، وهكذا فهمها الصحابة رضوان الله عليهم فعندما جاءهم الأمر بعد ذلك آمنوا والتزموا كما قال الصحابة رضوان الله عليهم " وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"[94].

فقد استمرت البعثة المحمدية ثلاثة وعشرين سنة، احتلت فيها الفترة المكية ثلاثة عشر عامًا لم يؤمر المسلمون خلالها لا بجهاد ولا بامتناع عن خمر ولا حجاب وغير ذلك من التشريعات الفقهية الكثيرة التي اختصت بها المرحلة المدنية بعدما رسخ الإيمان في القلوب، واستقر المنهج في العقول.

ولذلك تفشل الكثير من دعوات العودة للمنهج بسبب عملية القفز التي يمارسها بعض المصلحين، فهم يقفزون إلى الفروع دون أن تستتب

---

[94] 285آية، البقرة

الأصول، وينتقلون إلى بناء الشرفات دون أن يشيدوا القواعد، فيسقط البناء دون أن يقوم.

فهم للأسف لا يتنبهون إلى تغيير الصور الذهنية للناس وتفلتهم عن المنهج بمرور الوقت ولا سيما مع وجود آلة اعلامية ضخمة، وفلسفة اقتصادية واجتماعية تحكمها أفكار تعادي الإسلام وتنافره، وأمام هذا الأساس الهش، والقواعد المهترئة يريدون أن يشيدوا قصر منيف!

4-إدراك الواقع وسقف الممكن

إن ادراكنا الدقيق لظروف الواقع من حولنا، وفهم تركيبة الأشخاص النفسية، والاجتماعية، والعقلية، ومقدار المساحة المتاحة لرواد الإصلاح والتغيير التي يستطيعون الحركة فيها دون أن يشكل ذلك ضررًا عليهم وعلى دعوتهم من جهة، ودون أن يُختزل المنهج ويتعرض للتشويه والتحوير من جهة أخرى نظرًا للتحرك في مساحات غير مأمون فيها التحرك لهو من الضروريات المنهجية التي يجب أن يحيط بها رواد الإصلاح، وتصبح جزءًا من أساسيات ومبادئ فاعلية الحركة ولذلك قال الفقهاء (إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره).

ومن مظاهر عدم إدراك الواقع كذلك وضع أهداف مستحيلة وبذل المحاولات المضنية في سبيل تحقيقها، وهذا يدل على غياب المنهجية الفكرية فضلًا عن العيش الحالم في فضاء لا واقعي، وهذا من العبث المفضي إلى المهلكة وضياع الأوقات والاعمار فيما لا ينفع.

وقد أدركنا كثير من الحركات للأسف التي تسعى في مساحات مرتكبة، وتسير في طرق غير معبدة، فتسقطها العثرات الكثيرة ، ولا تجد من يمد لها يد العون، ولا ينظر إليها نظرة شفقة أو امتنان لأن النفوس حانقة عليها منذ البداية.

وربما من أبرز أسباب السقوط في مستنقع عدم فهم الواقع هو غياب التنظير والعلم، وعدم إدراك العلاقات غير المباشرة بين الأشياء، وغياب

الفهم لدى الكثير من دعاة الإصلاح، فهم لا يفهمون ابتداءً ماهية الواقع الذي يتعاطون معه، ولا الهندسة الاجتماعية للمجتمعات الحديثة، ولا أثر الدولة في تحوير البنية الفكرية والاجتماعية والثقافية للشعوب، ولا الأسس الفكرية التي تحكم دولة ما بعد الاستعمار، فضلًا عن ذلك فهم لا يعلمون سنن الله في الاستخلاف والتمكين.

لذلك يتعاطون مع الأمر بسطحية مهينة ومهلكة، ويعتقدون أن الله سينصرهم بمجرد إيمانهم –القاصر- وسيخذل عدوهم لمجرد ظلمه أو كفره أو فسقه، دون أن يكون لديهم أدنى مقومات لهذا النصر المستحق سوى أحلامهم الوهمية.

وهذا من عدم إدراك نتائج الأفعال المفضي للمهلكة والمنهي عنه شرعًا يقول الشاطبي" النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك لأن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة من المكلفين بالأقدام والإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه هذا الفعل[95]" .

لذلك فإن هذه الحركات تضر أكثر مما تنفع، وتهلك أكثر مما تبني، وذلك للصورة القاصرة والمشوهة التي تخلفها في نفوس الشعوب التي قامت من أجلها، فضلًا عن ذلك فإنها تعطي مبررات لسلطات للقهر والاستبداد ومحاربة الإصلاح في ممارسة غيها وطغيانها.

وفي أحيان كثيرة يتمخض عدم إدراك الواقع للوقوع في الشرك والفخاخ التي تنصب لحركات الإصلاحات، فتجدهم لا يفرقون بين الفرصة المستحقة للفوز بها، وبين الشرك المنصوب للإيقاع بهم، وهنا تكمن أهمية فهم سقف الممكن، وأهمية إدراك مساحات الحركة والفعل، وأهمية إدراك العلاقات المباشرة وغير المباشرة مع القضايا التي نتعامل معها والأهداف التي نسعي إليها، وفهم أهداف الأطراف الأخرى، والأدوات التي يتعاملون بها، والسياقات التي يتحركون فيها؛ لأن الجوائز التي تنصب في مساحات أخرى ليست سوى فخاخ ومصائد.

---

[95] الشاطبي الموافقات 4\194

وفي كثير من الأحيان تهلك الحركات نفسها بأيديها لمثاليتها الغير واقعية، فتجد منظري الحركة والتغيير انكبوا على الكتب زمنًا طويلًا، منقطعين للعلم والدراسة، لا يخالطون سوى أترابهم وأشباههم، ولا يعلمون غير النذر اليسير عن ما آل إليه الواقع، ولا ما يحدث في دنيا الناس ومعاناتهم، وخلفيتهم الفكرية، ولم يسبروا أغوار نفوسهم، ثم يتعجلون إلى بناء مدينتهم المثالية، فينفر منهم الناس ويكونوا ألد أعدائهم.

فالمثالية المفرطة الحالمة المنفصلة عن الواقع هي أكبر الأعداء لحركات التغيير، وسببها الرئيس عدم الإلمام بالواقع، فيكون الاشتباك معه مؤدي إلى الهلكة.

5- الخطط المنهجية

"الطريق إلى الجحيم معبد بالنوايا الحسنة" هذا المثل الانكليزي الشهير يلخص تاريخًا من المصائر والمالات السيئة بأبسط تعبير التي وقعت فيها كثير من حركات الإصلاح، فضلًا عن الأشخاص.

ونرجع ذلك إلى غياب التفكير المنهجي في عالم معقد يلفه الكثير من الأفكار والأيدولوجيات، وتتخبط فيه الكثير من الحركات والجماعات والدول، ويغرق فيه الأفراد دون أن يجدوا قارب نجاه.

ففي كثير من الأحيان نسقط في فخ الانطباعات، وتحركنا العواطف، وتسيرنا الانفعالات، فنطلق الأحكام المعممة، وتصبح احكامنا مندفعة، تفتقر إلى الموضوعية والحكمة ومن ثم تودي بنا إلى المهالك مع حسن النوايا، وسلامة السجايا.

وتعتبر الاستجابة للعواطف وتغييب العقول من الكوارث المنهجية التي يعاني منها الفكر العربي المعاصر.

ونقصد هنا بالفكر: الآلية التي نحاكم إليها الأمور ، وهذه الآلية نظرًا لتشوه بناءها منذ البداية فهي تعاني من الضعف، والخوار وعدم الاتزان، وغياب المنطقية.

فمن المعروف أن الفكر يتشكل من مجموعة الأفكار والتصورات التي تصيغ رؤيتنا للعالم من كل جوانبه، وهذه الأفكار ليست مهمتها الرئيسية صناعة الهوية للفرد والمجتمع فحسب، وإنما هي كذلك تنتج ميزان للأفكار، والذي يكون بمثابة الحاكم الذي يحكم على ما يعترض لنا من أمور.

فإن كان ذلك الميزان تشكل في أجواء من التخبط الفكري، والتشويه الذهني الذي أسس المخيال العربي المعاصر منذ عصر الدولة العثمانية مرورًا بالمرحلة الامبريالية التي أطبقت بسياستها الفكرية والاقتصادية والسياسية على المجتمعات الإسلامية، وشوهت نظم العلاقات الاجتماعية والدينية، ثم أعقبتها مرحلة العولمة التي أفضت إلى القضاء على المنظومة المعرفية للعقل المسلم، وحطمت سياج المناعة الفكرية لديه؛ فأصبح يتقبل كل الأفكار المتنافرة دون أن يكون لديه ميزان منضبط يحاكم إليه الأمور ليعلم صحيحها من فاسدها.

ونقصد هنا بالمنهجية، منهجية الفكر، و منهجية الفعل، ومنهجية الوسائل، ولا يتأتى ذلك للمرء إلا بامتلاك نظام معرفي مستقيم، ويقصد بالنظام المعرفي " جملة من المفاهيم والمبادئ والإجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية، أو هو في ثقافة ما بُنيتها اللاشعورية[96]"

والمنهجية تدعمها المرونة الذهنية في ظل عالم متشابك يقتضي التعامل معه فك الغموض عن الأفكار بفهم العلاقة بين الأسباب والمسببات، والتعامل الصحيح مع القضايا المعروضة لا يكون إلا بتناولها في إطار من المنهجية الموصولة إلى هدف محدد في النهاية.

---

[96] تكوين العقل العربي ص37

فكثير من الحركات التي ترنو إلى إصلاح الحال يصدمها الواقع بمقارنته بالمثال، فتندفع للإصلاح دون أن يكون لديها خطط منهجية أو تنظيمية، ودون أن تدرك حجم المشاكل التي تتعامل معها.

فضلًا عن ذلك؛ فقد تكون الخطط الموضوعة مناسبة للواقع، وعندما تطبق تصل بصاحبها للأهداف المبتغاة، ولكنها في الآن ذاته تحط من شأن الرسالة التي وُضعت الخطة بهدف نصرتها، وذلك بسبب طغيان فكرة الوصول للهدف على الفكرة الرئيسية التي وضعت لها الأهداف منذ البداية.

فمع معدلات العلمنة المتزايدة التي احتوت كثير من المجتمعات، ومعها الحركات فضلًا عن الأشخاص؛ أحدثت خللاً جوهريًا في البنية الفكرية لما يجب أن يكون عليه المسلم، فأصبح في كثير من الأحيان يستخدم أي وسيلة مهما كانت خستها، وعدم ملائمتها لشرف الغاية في تحقيق المراد ، وهذا مما لا شك فيه يودي إلى تدمير الغاية والقضاء عليها.

وكما ينبغي أن تكون الوسيلة شريفة وملائمة للغاية يجب كذلك أن تكون مناسبة وواقعية، فقد تواترت معاني الشرع وحكمة العقل على أن الوسيلة القاصرة تخذل المبدأ السامي، وتقضي على وظيفته في الحياة، وأن حسن النوايا وصدق التوجه لا يغيران اتجاه التاريخ، إذا لم يصحبهما اجتهاد نظري وعملي في استنباط المناهج والوسائل المحققة للغايات. فلا يصلح أن نحاول خدمة المبادئ الإسلامية الجليلة بوسائل متخلفة عن عصرها، ومناهج مهلهلة في منطقها[97]"

6- الامر الواقع ليس بالأمر الصالح

مع التغيرات الكبرى التي ألمت بالعالم الإسلامي في عقوده المائة الأخيرة تغيرت الكثير من المفاهيم التي تصوغ حياة المسلمين من كل الجوانب.

---

[97] الحركة الاسلامية في السودان، ص31

وذلك يعود للاختلالات العميقة التي حدثت في فهم مقاصد الشريعة الإسلامية باعتبارها البناء النظري المؤسس للديناميكية الاجتماعية والعقدية بسبب تأميم الدين باعتباره أحد مؤسسات الدولة الرسمية التي تخدم مصالح النظم الحاكمة، لا باعتباره بوصلة الحق الذي يجب أن تتجه إليه أنظار المسلمين جميعهم حاكمهم و محكومِهم باعتباره معيار الحق والعدل.

بالإضافة لذلك فإنه مع حالات تفسخ الأمم، وانهيار الحضارات يتوقف الاجتهاد، ويصبح التفقه في الدين مجرد شروحات على ما سبق دون أدني إعمال للعقل، فيضيق الأفق ويسقط فقه الاستثناءات بشكل مشره على الواقع الفساد باعتبار أن البلوى قد عمت، لا باعتبار أن المنكر يجب أن يزال!

فيبدأ الفقهاء بتفعيل فقه التبريرات الخاصة بهم، ليتحول الفاسد إلى صالح تحت ضغط الواقع، ثم لم يلبث أن يحظى بغطاء شرعي ليصبح الفاسد صالح.

هذا الأمر يغذيه في واقعنا المعاصر الغزو الفكري الممنهج، والذي أحدث تحولات كبرى لا في فهم المسلمين لدينهم، ولا لاختلال رؤيتهم للعالم فحسب؛ وإنما استطاعت تلك الظروف أن تنشأ رجال دين بالمعني الذي ساد في أوروبا العصور المظلمة.

فأضحى لدينا رجال دين وليس علماء، هدفهم اضفاء الشرعية على ممارسات السلطة التي تخدم مصالحها، و المعادية للدين من جهة، ولتبرير فساد الواقع والذي نتج عن تلك الممارسات من جهة أخرى.

هذا التبرير الذي لاقى استحسان العديد من الناس الذين أفسدهم طغيان الواقع المؤسسي بأطره التي تقدس المصلحة الفردية، وتقضي على أي شعور بالمسؤولية تجاه المجتمع أو الآخرين.

وهذا بدوره أحدث خللاً هائلًا بوعي المسلم بدوره الحضاري باعتباره خليفة الله في أرضه، والذي تعد وظيفته التي خلق لها هي تغيير المنكر

باعتباره سبب خيرية الأمة ، قال تعالى "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[98]

"، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الآية : لو شاء الله لقال: " أنتم "، فكنا كلنا، ولكن قال: " كنتم " في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ثم قال: يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها[99]"

فإضفاء الشرعية على الواقع الفاسد يعطل فاعلية الأمة فيسلب خيريتها، وبالتالي لا تصبح مسددة ولا مؤيدة من قبل الله تعالي، فتنهزم في معترك الصراع مع أعدائها.

وفوق هذا فإن تبرير الواقع بسبب الفشل في تغييره، أو لتدليس رجال الدين واستقرار الناس بالعمل على الأصل الفاسد يحدث اختلالات جوهرية في بنيتهم الفكرية، فيعتقدون أن ما جرى التعامل عليه واستقر دون نقدِ أو نقض من علماء الأمة هو الأصل الذي جاء به الدين، وهذا تبديل لما جاء به الوحي، ونقض لعرى الدين.

وفي الحديث الذي روي بسند صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "لَتُنتَقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً، فكُلَّما انتَقَضَت عُروةٌ تَشَبَّث النَّاسُ بالتي تليها، فأَوَّلُهنَّ نَقضًا الحُكمُ، وآخِرُهنَّ الصَّلاةُ[100]"

وقال العلماء في شرح الحديث الذي هو من دلائل صدق النبوة، أن الناس لا تترك الدين مرة واحدة، ولكنهم يتركونه على مراحل متتابعة، فأول ما يتركه الناس الحكم بأصوله صحيحة، فتسقط الشرعية السياسية، وتنقضي الخلافة التي على منهاج النبوة كما جاء بها الإسلام، قال ابن أبي العز الحنفي: «وأول ملوك المسلمين معاوية وهو خير ملوك المسلمين[101] "

---

[98] ال عمران، أية 110
[99] تفسير الطبري
[100] الجامع الصغير الصفحة : 7214 | خلاصة حكم المحدث : صحيح.
[101] العقيدة الطحاوية

*** يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَفْضَلُ مُلُوكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّ الْأَرْبَعَةَ قَبْلَهُ كَانُوا خُلَفَاءَ نُبُوَّةٍ وَهُوَ أَوَّلُ الْمُلُوكِ"[102]**

وكما نرى فقد فرق العلماء رضي الله عنهم عن الخلافة التي هي سنة النبي في الحكم، والملك الذي لم يكن على هدي النبوة. فقد روي عن سعيد بن المسيب قال" عبد الرحمن بن أبي بكر لمروان: جعلتموها والله هرقلية وكسروية - يعني جعلتم ملك الملك لمن بعده من ولده - فقال له مروان: اسكت فإنك أنت الذي أنزل الله فيك:

*** (والذي قال لوالديه أف لكما أتعداننني أن أخرج[103])، فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أنه أنزل عذري، ويروى أنها بعثت إلى مروان تعتبه وتؤنبه وتخبره بخبر فيه ذم له ولأبيه لا يصح عنها، قال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهري عن أبيه عن جده. قال: بعث معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد بن معاوية، فردها عبد الرحمن وأبى أن يأخذها، وقال: أبيع ديني بدنياي؟ وخرج إلى مكة فمات بها." [104]**

ولما فشلت الأحداث المتتالية في تاريخ الإسلام لإعادة الشرعية السياسية للحكم بدأوا في تبرير الأمر الواقع، حتى اختل الميزان لدى الناس فأصبحت تأتي الدول وتهلك والناس متشبثون بالأسر الحاكمة التي تتوارث الحكم والدول كأنه متاع وضياع، حتى لو كانوا يحكمون بشكلِ صوري، ويحركهم المتلاعبون من خلف الستار، ووصل الأمر أن يحكم الأطفال شكليًا بينما يتحكم بالدولة النساء، والجواري، والعبيد[105] دون عتب وإنكار من الناس!

---

[102] (3) مجموع الفتاوى (4/ 478).

[103] * [الأحقاف: 17]

[104] البداية والنهاية - ابن كثير - ج ٨ - الصفحة ٩٦

[105] (ومن أمثلة ذلك ما حدث في الاندلس عندما تولى هشام بن الحكم الملك وهو ابن اثنى عشر عامًا وكانت صبح البشكنجية جارية الحكم، و والدته والتي أصبحت وصية عليه وحدثت نزاعات بينها وبين الوزير محمد بن ابي عامر لينتهي الأمر بسيطرة ابن ابي عامر على البلاد بشكل فعلي\ وكما حدث في مصر عندما توفى محمد بن طغج وترك وصيه على العرش (محمود) وهو ابن خمسة عشر عامًا ليسيطر على الدولة كارفور الاخشيدي وهو عبد خصي حبشي

ولذلك يجب على من يريد التغيير أن يكون ملمًا بالمقاصد الذي يسعى لتحقيقها، مستندًا إلى منهج واضح في عملية التغيير، وعالمًا بالواقع الذي يعمل فيه وبنفوس الأمة التي يسعى لدعوتها، حتى لا تتفلت منه المقاصد فيصبح عمله فاقدًا للمعنى، أو ينفر منه الناس فيضيع جهده سدى، أو يصطدم مع الواقع الذي يجهله فيكتب على نفسه الهلاك.

7- حجم الامكانات المتاحة

من المهم الأخذ في الاعتبار بالإمكانيات والوسائل المتاحة لدى رواد التغيير والسعي وبذل الوسع في تحصيل أفضلها بما يقتدر عليه، فقد أولى الإسلام أولوية كبرى للأخذ بالأسباب باعتبارها إحدى السنن الكونية التي عليها مدار الحياة، ثم أمرنا بعدها بالتوكل التام على الله جل وعل كأننا لم نتخذها قط، وهذا من تمام التوكل على الله تعالى.

قال تعالى " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"[106]، فالإسلام لا يؤمن بالدروشة، ولا الخيالات السخيفة التي تنصر الخاملين لمجرد صدق نواياهم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من عبد الله جل وعلا، وهو سيد ولد آدم النبي المصطفى، وكان رغم ذلك يأخذ بالأسباب جميعها لأن من تمام عدل الله وحكمته أن تمضي سنته الكونية، حتى لا يلجأ المؤمنون للخنوع والتكاسل لمجرد إسلامهم، فيتحول الإسلام علامة على الاستسلام والخنوع والتكاسل.

فكل ما يقدر المسلم على إعداده من امكانات، ويدخل في وسعه ويستهدف خدمة الدعوة يعد واجبًا في حقه، "لان الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب ، وتنظيماً للشعائر ، ثم تنتهي مهمته ! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة ؛ يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية . فلا مفر للإسلام -

---

[106] الأنفال، آية 60

لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية ، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الرباني[107]

وما تقدمت الحضارة الغربية واستعلت رغم فقرها الروحي إلا بتحصيلها أسباب القوة، باستيلائها على العالم الجديد ونهب ثرواته، وتحصيلها أسباب النهوض الحضاري من الشرق، وتزامن ذلك مع ضعف الأمة وخوارها وحيدتها عن منهج ربها، فمضت سنة الله في التدافع.

وإعداد القوة لا يشمل إمكانات القوة المادية فحسب، بل إن اعداد القوة مصطلح جامع يحوي بداخله كل المعاني التي تحقق للإنسان المسلم العزة والقوة في الآن ذاته، فالعلم والأخذ بوسائله قوة، والفكر والتبحر في مناهجه قوة، والإلمام بالدين والتفقه فيه هو ما يعطي للقوة فاعليتها، فاليوم في عالمنا العربي المعاصر نجده متخم بالإمكانات المادية ولكنها إمكانات معطلة له عن الفاعلية والحركة، لأن الماديات لا تفعل نفسها دون الإنسان الذي يتحكم فيها، وقد علم العرب من تاريخهم أن الدين هو مصدر الفاعلية ومحركها.

وقد تتوافر الإمكانات والوسائل ولكن يستخدمها الإنسان بطريقة خاطئة تجلب عليه الوبال، ولا تخدم الدعوة في شيء بسبب عدم مرونته وجمود الفكري، فيحطم فاعلية السيلة المتاحة، ويهلك نفسه معها.

ختامًا

حذر صامويل هنتجتون في كتابه الشهير "صراع الحضارات" الحضارة الغربية من الإسلام باعتباره يملك بداخله مقومات تهديد مستمر للغرب، باعتبار أن الله فيه هو القيصر من ناحية، و الانتشار الديمغرافي الواسع للمسلمين مع حفاظهم على معدل مواليد مرتفع مقارنة بأوروبا والعالم المسيحي بصفة عامة و الذي يسير بشكل سريع نحو الشيخوخة، وبالتالي الانحسار.

---

[107] الظلال، 180

فضلًا عن استحواذ الدين على الأيدولوجية وبالتالي الفكر والممارسة، وهذا بالطبع يقوض أي إمكانية لتقدم الغرب بفلسفاته، وايدولوجياته في مساحات يسيطر عليها الاسلام.

ويعد أخطر ما في الإسلام بحسب هنتجتون ليس الأصولية الإسلامية والارهاب كما ينتشر في أبجديات الغرب، بل الإسلام نفسه باعتباره يملك رؤية واضحة تقاوم عملية التغريب والتحديث الذي يحاول الغرب فرضها على المسلمين.

ويرجع تصريح هنتجتون بعد الفشل الكبير للتحليلات التي أعادت حركة الصحوة الإسلامية إلى ظروف مادية، أو حركات اجتماعية ضيقة تقاوم توغل العولمة، أو حتى إلى دوافع نفسية ينتهجها المسلمون للتصدي لفلسفة الحداثة وشرورها.

وهذا التحليل الذي توصل إليه هنتجتون يرجع إلى مقدار قوى الممانعة التي لقيها الغرب منذ صعودهم على قمة الهرم الحضاري، ورغم استخدامهم كافة السبل الناعمة والخشنة على حدِ سواء في مواجهة الإسلام؛ فإنهم لم يحققوا النجاح المنشود لتجذر الإسلام في نفوس أتباعه.

فهذا الإسلام لم يثبت قدرته على البقاء في ظل الظروف المريعة التي أحاطت بأتباعه فحسب، بل أمدت أصحابه بطاقة تجديدية قادرة على مواجهة النموذج الغربي والانتصار عليه.

وإن كنا نحن المسلمون نؤمن يقينًا بأن الحضارة بمعناها الشامل التي ترتقي بالإنسان فكرًا وروحًا لا يمكن أن توجد في غير منهج الإسلام.

لذلك فإن أي محاولة للنهوض الحضاري من جديد لابد أن تُبنى على تحصيل ما يمكن تحصيله من وسائل للنهوض، وعلى قدر الوسع والطاقة، وأهم ما يجب على المسلم تحصيله الآن هو العودة لمنهجه القويم الذي هو أساس نصرته، وفيه تكمن قوته.

فالمسلم مسدد ومؤيد من الله تعالى حتى ولو قلت وسائله المادية ما دام بذل الجهد، واستنفذ الطاقة، ولكن المسلم المسدد هو صاحب الوجهة الصحيحة، والوسيلة الشريفة التي تحقق صالح العباد، ومرضاة الله تعالى.

الفصل الثالث

الإنسان في بعده الاجتماعي

" في تلك الثقافة التي يسودها الخوف الدائم، تتحول الضحالة إلى ميزة لا نقيصة. واقع الأمر أن ثقافة الخوف هي ثقافة الضحالة. ولكن الضحالة تسمى هنا خطأ باسم (القدرة على التكيف) و (المرونة) كما تسمى السطحية (بساطة). وهذا يفضي إلى ممارسات مؤسسية ضحلة، وإلى العاب استراتيجية لا نهائية خالية من المعنى، وإلى بلاغة فارغة، وتنفصل المفردات عن المفاهيم، وتنتهي إلى ألعاب لغة بلا معنى."

زيجمونت باومن

توطئة:

الإنسان والمجتمع

"الحقيقة التي تجعل الناس أحراراً هي في الغالب الأعم الحقيقة التي لا يفضل الناس أن يسمعوها"

سباستيان آغار

يمثل المجتمع الإنساني الشرط الأساسي ليتحول المرء إلى إنسان بمعناه الخلقي، والحضاري، والإنساني، فالمجتمع يكفل له كثير من الاحتياجات سواء المادية من مأكل وملبس ومسكن وخلافه، والاحتياجات الاجتماعية فيضمن له التكافل، والترابط ،والحماية النابعة من وجود الأسرة والعائلة والقبيلة وخلافه.

ويضمن له الحاجات الروحية والنفسية فيتعلم الطفل منذ نعومة أظافره المبادئ القيمية والخلقية التي تحافظ على تماسك المجتمع من الانهيار، وتحفظ للإنسان قيمته كفرد فاعل في المجتمع من أن يعتدي أحد عليه وعلى حقوقه.

ولذلك يوصف الإنسان بأنه كائن اجتماعي نظرًا لحاجته للمجتمع من ناحية، و لتأثيره عليه من ناحية أخرى باعتباره الدائرة الواسعة التي تشكل الهوية العامة الإنسان، وتكسبه أخلاقه وقيمه، وتؤثر في سلوكه لحدِ كبير.

ولأهمية المجتمع العظمى وتأثيره على الإنسان في أبعاده المختلفة نهى الله تعالى عن الهجرة لبلاد الكفر قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ

مَصِيرًا[108]." قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص الآية"[109].

وذلك النهي يدل على ما يحدثه المجتمع في نفس الفرد من تطبيعه بقيمه مع مرور الوقت، فيفقد المسلم حال إقامته في تلك المجتمعات هويته ثم دينه حتى لو تمسك به اسمًا.

ونحن هنا في هذه الصفحات نحاول أن ندرس المجتمع العربي باعتباره المكان الذي تشكل فيه الإنسان العربي المسلم، وباعتبار أن نهضة المجتمع من نهضة الإنسان، والعكس صحيح.

ولا يخفى على أحد أن مجتمعاتنا العربية نخر فيها الفساد من جهاته الأربع، فأصبح الإنسان فيها ينزلق بوتيرة متسارعة نحو المادية ويغفل الجوانب الاخلاقية والقيمية، وتعالت في ظل ذلك النزعة الفردية، و تبددت سلطة المجتمع باعتباره أداة لضبط أفراده طبقًا لمعايير واضحة تعارف عليها الناس، واستمدوها من عقائدهم ودينهم، وذلك باعتبار الدين كنسق معرفي شامل يضبط تصورات الحياة قاطبة.

ونتج عن ذلك غياب الموضوعية في الاحكام والقرارات التي تحكم شئون الأفراد، وأصبح الجميع يعيش في حالة من الاعتباطية والعشوائية التي تؤطر حياتهم وكما يقول دوبو " إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن، تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية"[110]

ونظرًا لذلك الأفق الضيق الذي امتلكه العربي المعاصر جعله ينظر إلى مجتمعه وهو يسقط في الهاوية دون أن يعير لذلك أي اهتمام !

---

[108] {النساء:97}
[109] تفسير ابن كثير
[110] رينيه دوبو انسانية الانسان-ص31

وهذا يجعلنا نتساءل عن عبء المسؤولية عن انهيار المجتمعات أين يقع، هل على الأفراد باعتبارهم وحدات المجتمع الأولية؟

أم على السلطات السياسية باعتبارها تتولى دفة القيادة المجتمعية بعدما فككت بناه، أم على العولمة باعتبارها مُشكلة العقل الحديث ؟

وما هي المعايير التي تحفظ على المجتمع تماسكه من التفكك و الانهيار؟ وما أهميتها؟

في دراسته المهمة عن انهيار المجتمعات المعقدة يحدثنا جارد دياموند كيف قررت مجتمعات كبرى إهلاك نفسها بأيدها؟ أو بمعنى آخر ما هي الأسباب الموصولة لانـهيار المجتمعات من داخلها، وكيف لمجتمعات أن تتخذ قرارات كارثية تكون واضحة الخطورة لأي شخص عاقل، ورغم ذلك تمضي تلك المجتمعات وعن بكرة أبيها في الامساك بمعول الـهدم لمملكتهم.

يقول: " أولاً: ربما تخفق المجموعة في توقع المشكلة قبل وقوعها، ثانيًا: عندما تقع المشكلة، ربما تخفق المجموعة في إدراكها، ثم بعد أن تدركها، ربما تخفق في محاولة حلها، أخيرًا: ربما تحاول حلها لكنها تخفق في ذلك"[111]

دعونا نحلل كلام دياموند بشيء من التفصيل:

اولا: الاخفاق في توقع المشكلة

بدأت الثورة الصناعية في اوروبا في القرن الثامن عشر لتبدأ الآلة تحتل مساحات كثيرة، وتطرد منـها الإنسان باطراد مباشر، وكانت تلك الثورة تمثل تحولًا فارقًا في التاريخ الإنساني نظرًا لما أحدثته من تغيرات على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

فقد كان اقتصاد العالم قبل ذلك الوقت يعتمد إما على الزراعة في ظل الاقطاع، أو على التجارة، وكانت كلتا الوظيفتين يؤسسان على مفاهيم من التكا فل تربط أعضائـها الكثير من المصالح المشتركة.

هذا السياج من المصالح المشتركة الذي ربط المجتمع الإنساني في الوظيفة والعمل أنشأ العديد من القيم الحاكمة لحياة أفراده، تلك القيم

[111] الانهيار، ص561

والأعراف حافظت على تماسك المجتمع من التشظي، وشكلت للفرد هويته الواضحة باعتباره أحد الأفراد لجماعة لها معالم محددة، وحافظت على مسار الحياة الإنسانية في مسار محدد.

ذلك المسار الذي بدأ بالاختلال تدريجيًا منذ الثورة الصناعية الأولى في القرن الثامن عشر إلى أن وصل مداه حاليًا مع الثورة الصناعية الرابعة,

وعلى مدار تلك المراحل كان المجتمع الإنساني يتصدع رويدًا رويدًا، بدءً من هجر الفلاحين لقراهم وعيشهم على أطراف المدن بغية اللحاق بركب العمالة الجديد بعدما لفظتهم الأرض وسيطرت عليها الآلة، مرورًا بالإنسان الحالي المغترب في بيته بعدما لفظه كل شيء في سبيل سعيه اللاهث وراء حلقة مفرغة في محاولة منه للصعود لقمة السلم الاقتصادي.

وأثناء تلك المراحل لم يتوقف أحد ليرى النقاط المتساقطة على أحجار المجتمع، والتي تسقط بوتيرة متسارعة، وبكمية أكبر على مدار الوقت، وأمام فيض المياه التي سبح فيها العطشى لم يتنبهوا أبدًا للتشققات الكثيرة التي حدثت في سقف المجتمع الذي يستظلون به.

ورغم صراخ بعض الأصوات الواعية، دقيقة الملاحظة، ومحاولة تنبيه الجموع الغافلة، والمنتفخة بالكثير من الشراب المتساقط عليها، وتذكيرهم إلى أن الماء فيه سم قاتل، لم تنتبه الجموع، بل في غمرة نشوتهم هاجموا رسل الإصلاح، وداسوهم بالأقدام.

لم يتوقع أحد أن المجتمع الصناعي، وما تبعه من فلسفات تقدس العقل الذي اخترع الآلة حتى ترتفع به إلى مصاف الآلهة ثم تعود به لتدنسه في أوحال الجحيم، أن تلك ستكون النهاية أبدًا.

وبالرغم من أن السياسة تعنى القدرة على الفعل، والسياسي يعد هو الحكيم الذي يرى الأمور واضحة من خلف الضباب ثم يتخذ القرار الحكيم، إلا أن المجتمع الصناعي قد أفرز طبقة تدعى السياسة بينما كانت في حقيقتها تقامر بالمجتمعات ومصالحها، وبالأفراد وأرواحهم، ولذلك

فإن السياسة التي تجهل القوانين الأساسية لعلم الاجتماع وهو الذي يعتبر علم بيولوجيا البنى والاجهزة الاجتماعية ليست إلا ثرثرة عاطفية ولعبًا بالألفاظ وطنطة غوغائية[112]"

ونتيجة لذلك أخفقت المجتمعات جميعها في إدراك الكارثة الكبرى التي جاءتهم بها الثورات الصناعية المختلفة وما تبعها من أُطر فكرية، وأيدولوجيات فلسفية.

ثانيًا: الاخفاق في إدراك المشكلة

" لم يعد هناك مكان للمهرب"

بهذه الكلمة الموجزة لخص ميلان كونديرا آلاف من الصفحات المحبرة التي تحاول شرح الشرك التي وقعت فيه البشرية مع سيطرة سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي، والاجتماعي والتي يطلق عليها مجازًا "العولمة".

تلك الكلمة السحرية التي بشر بها صانعوها العالم باستهلال قدوم عالم يتقلب في الرفاهية والرخاء والمساواة، عالم ينتصر فيه الضعيف، ويؤخذ فيه على يد القوي، عالم يقدس العمل والمساواة حيث الفرص متاحة للجميع وبشكل عادل، عالم ينتهي فيه القهر، حيث الحدود مفتوحة، والطرق معبدة، والقوانين تقدس حرية الحركة اللا محدودة؛ إنه عالم منفتح يتقبل الجميع بصدر رحب، ويعطي الفرصة للجميع أيضًا.

كانت تلك الصورة الطوباوية الوردية التي رسمتها العولمة، لنكتشف في النهاية زيف تلك الصورة ووهميتها، وإن ذلك الجانب البهيج الذي نقلته لنا الشاشات لم يكن سوى الجزء الأعلى والأصغر من الصورة، وأن

---

[112] مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ص99

ذات الكاميرا لو انتقلت عدستها عن تلك البؤرة بالذات لرأينا أهولًا لا تنتهي.

لقد استطاع المصور المحترف بخبرته التي لا تضاهي بإقناع المشاهد المحترق شوقًا للسلام والأمن بعد الحربين العالميتين اللتين كادتا أن تعصفا بالبشرية في الغرب، وبعد عقود الاحتلال المريرة في الشرق؛ أن عصور الخوف قد ولت، وأن الأمن، والعدل، والحياة الإنسانية بكل ما تحمله الكلمة من معنى آن لها أن تأتي أخيرًا.

وما إن بدأت العولمة تتسع وتبتلع مساحات أكثر، وأكثر من العالم حتى أحكمت سيطرتها علي أغلب نطاقاته، مدفوعة بالأحلام المحلقة في سماء الجموع العطشى للأمل، وتسيرها الكثير من الفرص في عالم المال الجديد الذي لا يقوم إلا على الحركة الدائبة للبشر والآلات؛ فوفرت فرصًا كثيرة للعمل، وافتتحت العديد من الملاهي بصورها المتعددة في مجتمعات لم تعرف في حياتها معنى الانفتاح واللهو.

فأعجب الجميع فكرة المهرج كثير الألوان المضحك على مسرح العرض الكبير، وانطلقوا خلفه يهللون طربًا بتباشير الانفتاح الجديد.

وما إن حدث فعلاً الانفتاح المنتظر، وسطعت شمس الحقيقة، حتى اشتدت حرارة الجو، فتساقطت المساحيق الكثير من على وجه المهرج، ليظهر وجهه الأسود المخيف، وعيناه الجاحظتين، وأنيابه المرعبة؛ فانفض الناس رعبًا وهلعًا ليجدوا أنفسهم فرادي نعم، ولكنهم في ذات الوقت معلقين معًا بسلاسل الخوف، واليأس، والحاجة، والكثير من الأحلام المحطمة، والإفلاس المادي والروحي؛ فقد سلموا المهرج جميع ما يملكون أملًا في الكثير من المتعة واللهو، وها هو المهرج قد انكشف وظهرت حقيقته!

وفي تلك اللحظة أدرك الجميع إنهم مسؤولون عن كارثة لم يعلموا عنها شيئًا، كارثة كانوا هم إما صانعيها أو حتى وقودها، المهم أن النتيجة واحدة كما قال جان بول سارتر "أيًا كان ما نفعله، فإننا نتحمل المسؤولية عن شيء، لكننا لا نعلم ما يكون هذا الشيء" .

لقد أصبحت مسؤولية اصلاح العالم، وإنقاذه من العولمة مسؤولية كل منا لأننا من أدخلناه فيه، ولكن المشكلة التي لا يستطيع الجميع لها حلًا إننا دخلنا تلك اللعبة دون أن نكون على دراية كاملة بقواعدها، لقد دخلنا ونحن سكارى، يسيطر علينا اليأس، والحاجة، والكثير من الأمل.

والآن بعد أن انخرطنا فيها، وذقنا حلاوتها، والكثير من مرارتها ما زلنا لا نتبين بعد أصل ما نتذوق، لقد كان الخليط كثيفًا وغريبًا، للحد الذي أفقدنا قدرتنا على التذوق، ولكن بعد أن أدمناه، ولم نجد بديلًا عنه بعد.

فمن السهل أن يتعامل الإنسان مع مشكلة محددة، واضحة المعالم، يعلم فيها من المخطئ ومن المصيب، من الضحية ومن الجاني، حينها يبدأ في الحل، وهو على علم بالنتائج، و المسببات، ويستطيع أن يمنح المعادلة أساسًا منطقيًا، وحلًا عادلًا.

ولكن مشكلة العالم الآن أن الجميع فيه مخطئون ومصيبون، الجميع يلعب دور الضحية والجاني بالتبادل، فكما يقول باومن " ففي كوكب تحكمه شبكة الاعتماد المتبادل بين البشر، ليس هنالك شيء يفعله الآخرون أو بوسعهم أن يفعلوه من دون التأثير في إمكاناتنا، وفرصنا وأحلامنا، وليس هنالك من شيء نفعله ولا نكف عن القيام به من دون أن يؤثر في إمكانات الآخرين وفرصهم وأحلامهم[113]".

ففي ظل تلك الضبابية التي تحجب الرؤية، والتعقيد الذي يحيط بكل جوانب المشكلة، والاحتمالية التي تحكم أطر الحياة المختلفة، واللايقين الذي بات يحكم عقول البشر؛ أضحى كل شيء نسبي مع تحجيم المسؤولية الاخلاقية وتشتيتها، وأضحى فهم العالم بالغ التعقيد حد الجنون مع تساقط جميع المقدسات.

---

[113] الخوف السائل ص 139

ثالثًا: الاخفاق في محاولة الحل

ترجع أزمة المجتمعات الحديثة إنها لا تعالج صلب المشكلة أبدًا، ولكنها تبحث في مخرجاتها فتعالج أعراضها، فيتحور المرض منشئًا أعراضًا أخرى أشد من سابقتها.

فإن كان هؤلاء القادة يعبدون عقولهم ويتبعونها بحق، وهي خلاصهم وسبيل وصولهم إلى درب السلامة كما يدعون فلماذا الانحدار المستمر في كافة المستويات؟

ولماذا كلما رتقوا خرقًا اتسع خرقًا آخر، فكان أكبر حجمًا وأعمق أثرًا، ألا تدل كثرة الثقوب المحفورة في الأثواب التي تنتجها الآلة على فساد الآلة وعطبها؟

أليس من الخبل الانتظار الدائم أما الآلة وهدر الوقت في إصلاح الثقوب التي تنتجها بدلًا من محاولة فهم مشاكل الآلة نفسها؟

مشكلة المجتمع الحديث إنه يجيش كل طاقاته باستمرار في إصلاح ما تنتجه الآلة، لكنه لم يتوقف قليلاً ليفكر في عيوب الآلة رغم بداهة الفكرة و منطقيتها!

وذلك بسبب سيطرة عقلية الآلة على المجتمع، والتعامل مع الظاهرة الاجتماعية على إنها جزء من الطبيعة وخارجة عن إرادة الإنسان كما جاء في كتاب "المنهج" لإميل دور كايم باعتباره الكتاب التأسيسي لعلم الاجتماع في العالم الغربي.

بينما يرى ماركس خلافًا لكانت، وكونت أن التغيرات الاجتماعية سببها الصراع الطبقي الذي هو محرك التاريخ، وبالتالي تكون الشروط المادية هي المسؤولة عن التحولات الاجتماعية.

وفي النهاية قدم ماكس فيبر نظريته العقلانية تحت مسمى (فك السحر عن العالم)،

وبذلك سيطر على الفكر العلمي أن الإنسان وظواهره الاجتماعية جزء من الطبيعة، لا مستقلة عنها بسبب النجاح الباهر الذي حققه العلم التجريبي في كشف الظواهر الطبيعية وتفسيرها مما حدا بالحقول الأكاديمية في العالم الغربي -باعتباره قبلة العلم -لتعميم العلم التجريبي على الظواهر الإنسانية.

وأدى ذلك لتعصب مقيت نحو كل من يتبنى رؤية مخالفة تتبنى قدسية الإنسان ومركزية الله، وتسعى لتفسير الظاهرة الاجتماعية بأدوات مختلفة، أو تحيل مشاكل الإنسان الحديث إلى الاعتلال الروحي، باعتبار القائل بهذا الاتجاه سليل عصور الظلام ،ويقف في وجه قاطرة الحضارة والتنوير، ويخالف المنهج العلمي المعتبر أكاديميًا.

وفي هذا يقول باومن "إننا بصدد خليط بشع من طقوس أكاديمية في للقرون الوسطى، وتخصصات، ونفي واضح وصريح لدور العلوم الإنسانية في العصر الحديث، ونزعة إدارية في معالجة الأمور، وضحالة في الفكر والإحساس بالمعرفة. وهذا الخليط البشع يمثل صورة كاملة لمرحلة الجامعة ما بعد الأكاديمية، وساحة لضغوط كبيرة من القوى التكنوقراطية المتخفية في هيئة أصوات أصيلة للحرية والديمقراطية، لا سيما أشكال الحتمية القدرية المتمركزة حول السوق، فهي لا تترك مجالًا للتفكير في أي بديل، بما في ذلك الفكر النقدي ومراجعة الذات [114]"

ونتجت تلك المشكلة في الأساس بسبب الفلسفة المادية التي شكلت العقل الأوربي الحديث من ناحية، ودعم ذلك سيطرة السوق على الحقل الاكاديمي، ومعه حقل صنع القرار السياسي وبالتالي قوضت أي إمكانية لحل يكون فيه ضرر السوق ويحجم من أرباحه، ويقلل من سطوته.

---

[114] ص27 ،الشر السائل

رابعًا: الاخفاق أثناء الحل

تواتر المجتمع العلمي الحديث على استخدام طرائق محددة في تحليل المشكلات أيًا كان نوعها للوصول إلى نتائج سليمة وصحيحة، وهذه الطريقة التي يطلق عليها الباحثين الأسلوب العلمي لحل المشكلة تتلخص في الآتي:

1- تحديد المشكلة بشكل دقيق

2- جمع المعلومات والحقائق المتعلقة بالمشكلة وأسبابها

3- وضع حلول مقترحة للمشكلة

4- تقييم الحلول ومعرفة أكثرها ملائمة

5- اختيار أفضل الحلول

وإذا عدنا إلى شجرة حل المشكلات وحاولنا تطبيقها على مشكلات المجتمع المعاصر سنجد أن المشكلة مركبة، ومتداخلة، وذات أبعاد عدة: سياسية واجتماعية ودينية وثقافية.

ولأن السياق الفلسفي[115] هو أقصر الطرق لتوصيف المشكلات لانتقاله إلى البعد الأولي التجريدي في توصيف الأمر، سنجد أن مشكلتنا مشكلة معرفية بالأساس .

وذلك لأن الفكر سابق على الفعل ومؤطر له، و تكمن قوة الأفكار في الاجتماع الإنساني باعتبارها الدافع المحرك له، وإن كانت الأفكار التي صاغت الواقع العربي المعاصر تعد خليطًا غريبًا من بقايا الإسلام والفلسفات الغربية التي فُرضت إما قصرًا على المجتمعات، أو بصورة

---

[115] (لا نغفل أن علم الاجتماع في دراسته للمشكلات الاجتماعية يحظر تناول السياق الفلسفي في تحليل الظواهر الاجتماعية بل ويعتبر ذلك حاجزًا بين الباحث وبين فهم الظاهرة بشكل موضوعي؛ لأن الفلسفة ترنوا إلى المثال وعلم الاجتماع المعاصر يسقط من مفاهيمه الصواب والخطأ، ويدرس الظواهر لأجل بحثها وتحليلها لا الحكم عليها. ولكننا ننظر للإنسان بنظرة مغايرة عن تلك التي ينظر بها علم الاجتماع إليه، فنراه فاعلًا مؤثرًا في السياق الاجتماعي، وننتهج منهج وحدة المعرفة الذي يبحث الظاهرة من جوانبها المختلفة لا مبدأ التخصص كما في العلوم الغربية الذي يجزئ الظواهر، فيبحث كل منها بمعزل عن الأخرى بطريقة تفكيكية دون النظر إلى السياق بشكل كامل، فلا يستطيع الإحاطة بالمشكلة من كافة أبعادها، فيكون نظره قاصرًا عن حل جذري وحقيقي.)

متخفية تحت أستار عدة، إلا أن هذا الفكر في النهاية أصبح خليطًا مشوهًا لا أساس واضح له، صادف مجتمعًا مفككًا يرزح في أتون الفقر والاستبداد والظلم فأنتج "أفكار تدميرية زادت من مآسيه ومشكلاته[116]"

وبالتالي فإن تلك المشكلة المركبة ذات البعد المعرفي الأكثر عمقًا لا توصف أبدًا بهذا التوصيف، وإنما يقوم المسؤولون عن الإصلاح بمعالجة أعراض المشكلة وبشكل سطحي للغاية.

فعلى سبيل المثال مع انهيار الأسر والتشظي المجتمعي الذي ضرب المجتمع العربي في السنوات الأخيرة لتصل نسب معدلات الطلاق إلى 48% في الكويت [117]لتتربع على عرش القائمة، يليها مصر بنسبة 40% بزيادة بلغت 33% مقارنة بالخمسين عامًا الأخيرة[118]، والقائمة تطول في كثير من دول العالم العربي.

ترجع الدول ذلك مثلا إلى ضعف القانون كما في مصر، لتصك الكثير من القوانين، والتي نفاجأ إنها أدت إلى ارتفاع النسبة لا انخفاضها، ثم نرجع المشكلة إلى غياب الحوار الزوجي وعدم تأهيل الأزواج للزواج، ونقدم لهم دورات تدريبية تؤهلهم لخوض المعركة.

ولا نلتفت أبدًا كيف لشاب أو فتاة بلغوا العمر المناسب للزواج، ولا يكونوا مؤهلين لممارسة حياة زوجية طبيعية، ويحتاجون لدورة تدريبية لخوض الأمر!

أليس هذا دليلاً كافيًا على الفساد الاجتماعي الذي لم يؤهل الشباب بأدنى المقومات البديهية المكتسبة اجتماعيًا و التي تمكنهم من التعاطي مع حياتهم؟

وأليس هذا راجعًا بشكل أساسي لغياب التكوين المعرفي المؤسس للعقلية العربية في التعاطي الاجتماعي في أيسر صوره وأبسطها؟

---

[116] مدخل إلى التنمية المتكاملة ،ص245

[117][117] بحسب وزارة العدل الكويتية

[118]بحسب مركز المعلومات بمجلس الوزراء

كيف لمجتمع لا يعرف فيه أفراده كيف ينشئون حياة أسرية سوية في أدنى صورها بشكل بدهي- دون حاجة لتدريب أو برامج إرشادية أو معالجين نفسيين أو...إلخ والقائمة تطول -أن يتوقع منه نهضة منشودة أو حتى تقدم في أي مستوى كان؟

إن مجتمعنا المعاصر يعاني حالة من عدم السواء الكبرى خلفتها عقودًا من الجهل، والاستبداد والعيش الحالم في ماضٍ يمثل المثال الذي نرجو العودة إليه بأكثر الوسائل سذاجة، أو بواقع تم السطو عليه عنوة بينما كنا نعيش في الحلم السعيد.

ليصبح لدينا مشكلات كبرى معقدة، ومتداخلة، ومركبة أحدثت ارتباكًا وخللًا في العقل والنفس، لتجعل الحلول الجزئية التي نتبناها تعمق المشكلات، وتخلق مشكلات جديدة ، لا تخفف من حدتها.

صناعة المعايير الاخلاقية للمجتمعات الحديثة

يعد وضعنا الاجتماعي الراهن عرضة للكثير من التساؤل، ليس عما ألم به من تغيرات، ولكن السؤال الصحيح يصبح كيف حدثت هذه التغيرات بهذا الشكل الجوهري الذي جعل المجتمع في معياره الأخلاقي والقيمي على النقيض تمامًا؟

يعود هذا إلى مجموعة من الأسباب على رأسها الغزو الثقافي، وتولي الدولة لمؤسسات الفكر والسيطرة عليها، وتأميمها للدين بالإضافة إلى هندسة المجتمعات بشكل يجعل الروابط القبلية والعائلية القديمة عصية على الترابط، وفي المقابل يشكل الروتين اليومي في ظل سلطوية النظم الحديثة عادات وأعراف مختلفة عن تلك التي كانت تغرسها الأسر والقبائل والمجتمعات في أبناءها سابقًا، والتي كانت مبنية على مبادئ أخلاقية، وقيم روحية عليا ذات أساس راسخ صلب.

إذ تتشكل فلسفة العولمة الحديثة على صهر جميع المواطنين وقولبتهم في نظامها الذي يقتضي أن لا يفهم أحد ذلك النظام على وجه اليقين، ولكن يتعايش معه بروتين ذي وتيرة واحدة حتى يستطيع الإبقاء على حياته.

ولكن هذا الروتين المنفلت من أي قيمة أخلاقية، والذي يقدس في الوقت ذاته المركزية، والطاعة المفرطة للتسلسل البيروقراطي داخل أروقة المؤسسات في الدولة، يقضي على المسؤولية الفردية للقرار، فيحطم معها القيمة الأخلاقية للفعل ليكون هدف المرء الأساسي في المحصلة هو النجاة؛ أي النجاة من مفرمة النظام التي لا تبقي ولا تذر!

هذه المفرمة لها قواعد صارمة للنجاة منها وهي؛ اللا قواعد على الإطلاق! إشكالية أن تكون مرنًا دائمًا، طيعًا تتجاوب مع التيار في كل وقت وأي وقت، منزلقًا حينما يحين الوقت؛ كل هذا ليس بالمهارة السهلة

ولا اليسيرة لكل عقل بشري مؤسس على المنطقية وتحليل الأمور، فضلًا عن صاحب ضمير حي ذو أساس أخلاقي صلب.

ولذلك فإن هؤلاء المنخرطون في ذلك النظام، المنزلقون مع الأنظمة تجدهم بعيدون عن المنطق حد الجنون أثناء عملية الانزلاق تلك، ولكنهم في ذات الوقت يمنطقون ذلك الانزلاق بأشد طرق السفسطة طرافة.

إنهم ليسوا أغبياء أو متملقين أو متحولين كما يصفهم البعض؛ إنما هم ببساطة مجرد منتجات ذلك النظام "الأكثر جودة"، ولكن الأغيار –أولئك الذين لم يتأقلموا مع طريقة النظام في العمل- لا يفهمون ذلك البتة، ولا يدركون إنهم وفي ظل معاركهم الفرعية التي أملتها عليهم ظروف الحياة القاسية بألعابها البسيطة جدًا، والصعبة جدًا في الآن ذاته، كانت هناك عملية تفكيك كبرى تجري على قدم وساق لأكثر المساحات قداسة، ألا وهي تدمير المجتمعات وتفكيك عراها.

وفي أثناء ذلك التفكيك تم ملأ كل تلك المساحات التي تم إفراغها عن عمد بالكثير من الأعراف الجديدة التي كانت تعتبر شاذة ولا أخلاقية بأبسط تعبير في ظل أزمنة غابرة، بل وحتى وقت قريب.

ولكن هؤلاء الأغيار الجدد لم يكونوا يفهمون كنه اللعبة، ولا مصممها، ولا حتى اللاعبين الرئيسين فيها ولذلك كانوا كما الثور في حلبة صراع كبيرة يطاردون القماشة الحمراء بينما تُدمي السهام ظهورهم، ولا زالوا يجرون خلف القماشة الحمراء، ولا زالت السهام تخترقهم!

ولذلك فهم متمردون دائمًا، يهرولون دائمًا، ولكن دون وجهة ودون القدرة على تحديد مرمى السهام ولا راميها؛ لأنهم أثناء انشغالهم بتلك القماشة الحمراء كانت الجماهير _تلك التي تقام المعركة من أجلها_ في حالة هياج دائم، وصياح مستمر، ولم يكن صياحهم الثاني كصخبهم الأول؛ فالصياح الأول كانت تمتزج به دموع الشفقة على تلك المعارك الدامية لذلك المسكين الذي يقتل بدم بارد دون مقدرتهم على إنقاذه.

أما الصخب الثاني فكان فرحًا وتفريغًا لطاقة الكبت وعدم الأمان في حياة أثقلها الخوف، وأنت فيها إما قاتل وإما مقتول، وكونك ما زلت في الجموع تهلل على كبش الفداء؛ فأنت ما زلت بخير، فلتطرب إذاً!

فالدولة أثناء عملية ولادتها العسيرة في الشرق قامت بتجريف وهدم وتفكيك كافة بنى المجتمع حتى تستطيع تثبيت أركانها بقوة عصية على الاقتلاع، وحينها هدمت ما استطاعت لذلك سبيلًا كل جماعات المجتمع الوسيط في سبيل بناء أذرعها المؤسساتية البيروقراطية

عملية الهدم تلك والبناء صاحبها عملية تجريف وبناء من نوع آخر استهدف تجريف قوة المجتمع، مما يعني في النهاية استهداف القدرة على الفعل وعلى التغيير، وهو الأمر الذي لم ينتبه له الأغيار بحال!

فكان التضامن البشري -كصياح الجماهير الأول- هو أغلى وأهم ما امتلكته الإنسانية كقيمة عظمى تحافظ عليها، ليس في وجه الطبيعة فحسب باعتبارها وسم إنسانيتها، بل في وجه الأنظمة المستبدة كذلك كضمان حقيقي لقوة التلاحم في وجه الطغاة والظالمين.

وما إن استلبت السلطة- الدولة المفتوحة- تلك القيمة وغرست في أذهان (المواطنين) إنهم أفراد لا يعنيهم ما يمس الآخرين من خير أو شر حتى استطاعت الانفراد بذلك البشري البائس وممارسة كافة ألوان سياديتها\استبدادها عليه، وعندما أراد ذلك البائس أن يصرخ ويعترض لم يكن يعلم حينها على أي شيء سيصرخ وسيعترض!

فقد أوهمه النظام على مدار أيامه أن الإنسان الحديث قد فك السحر عن العالم[119] ،وعليه فهو المسؤول الأوحد عن تعاسته وخيباته، وها هم كثيرين في مثل ظروفه وبلاءآته قد تنعموا، وبلغ نجاحهم الآفاق للحد الذي يثير الدهشة، مما يعني إنك أنت المقصر والفاشل وليس النظام!.

---

[119] (ذلك كان شعار الحداثة ويعني أن الإنسان أصبح سيد الكون والمتحكم الأوحد فيه)

المعايير الاخلاقية للمجتمع الحديث

أورثت الثقافة العو لمية الطاغية ولعًا كبيرًا بالعقل بجانب الحرية المنفلتة والمتسيبة من القيود الأخلاقية، ووصل الحال للقول أن المعايير الأخلاقية لا جود لها، فما دامت الأفهام متباينة، والعقول مقدسة فلكل منا الحق في أن يضع المعايير التي تحكمه وتسيير شئون حياته.

وبما أن لكل فرد الحرية التامة في اختيار نمط معين لحياته أيًا كان هذا النمط بعد أن تفككت المجتمعات وفقدت وظيفتها علي الضبط والرقابة؛ فإن تلك الحرية تقتضي كذلك أن لا تتعدي على حق غيرك في تبني ما يريد.

وهنا تصبح اللاأخلاقية في المجتمع البرجوازي الجديد موجهة فقط إلى تدمير قيم المجتمع التقليدي من غير أي إعادة إحياء، لقد اسقطت من خلال اللاأخلاق الرموز المقدسة والروابط الإنسانية العامة في الأنظمة القديمة[120] .

ولذلك أصبح مفهوم المعيار معرضًا للنسبية التي يتبناها كل شخص، لتصبح المعايير (الأخلاقية) أكبر الخاسرين في تلك المعركة كما حدث تمامًا على أيدي السفسطائيين ونظريتهم الشهيرة (الإنسان مقياس كل شيء) على يد زعيمهم بروتجراس، بيد أن أفلاطون الزمن الحديث الذي يضع المعايير المنطقية، ويناظرهم بالحجة والبينة ما زال يعاني من هجمات الجماهير التي جندتها السفسطائية، وأفقدتها المعايير الحُكمية التي تزن بها الأمور.

كانت معركة أفلاطون مع السفسطة معركة ضد إفساد قيم وأخلاق المجتمع اليوناني، واليوم نحن نقاتل في ذات المعركة وإن اتسعت مساحتها على نحو مريع، بعدما تفشت النسبية الأخلاقية وغزت أغلب عقول البشر.

---

[120] ص387، التلاعب بالوعي

وربما أكبر الأسباب التي نحت مفهوم الفضيلة جانبًا، وقضت على معيارية الأخلاق، والقيم للمجتمع الحديث هو التحول في مفهوم الخطيئة باعتباره عدوان على الله وعلى المجتمع إلى مجرد حرية فردية، وباعتبار (أنك حر ما لم تضر)، و(أن الدين لله والوطن للجميع) وغيرها من المفاهيم المفسدة للبنيان المجتمعي وللقيم الإنسانية.

وتلك المفاهيم خاطئة بالجملة سواء في إطارها النظري العقلي البحت، أو حتى من خلال إرجاعها للشريعة الإسلامية أو غيرها من الشرائع، بل إن القانون الوضعي يرفضها .

فهذه المفاهيم التي ترسخ لمبدأ (افعل ما تشاء فانت حر تمامًا)، تفضي في النهاية إلى ضياع البوصلة، وغياب التوجه الأخلاقي للمجتمعات الإنسانية، لأنه باختفاء مفاهيم ترسخ من آليات الضبط المجتمعي ك(النبذ\الهجر) للمخطئ خطئًا فاحشًا، و(العار) للخارج على تقاليد المجتمع، و(الوصم بالخطيئة) لمرتكبي الأفعال اللا أخلاقية، كل ذلك يقضي على تنمية الحس بالمسؤولية الاجتماعية، ويهدم الشعور بالإنسانية ذاتها.

وكما يوضح إلستر في عمل بحثي له يقول "إن الشعور بالعار ليس عاملًا مساندًا للمعايير الاجتماعية فقط، لكنه العامل المساند كله، فالعار شعور غاية في القوة لأنه جاء نتيجة لاستنكار الآخرين التحقيري و الاشمئزازي لفعل أتاه شخص ما، وهو شعور داخلي مبني على أساس تفاعل الآخرين[121]"

ولذلك كانت من تعاليم الإسلام عدم المجاهرة بالمعصية ،قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ أُمَّتي معافًى إلا المجاهرين، وإنَّ من المجاهرة أن يعمل الرَّجلُ بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه، ويُصبِح يكشف سترَ الله عنه[122]».

---

[121] المجتمع والاقتصاد، ص46

[122] البخاري، ص: [1173] برقم [6069]، وصحيح مسلم، ص: [1198-1197] برقم: [2990]).

قال ابن حجر: "والمجاهِر هو الذي أظهر معصيتَه، وكشف ما ستَر الله عليه، فيحدِّث بها، أما (المجاهرون) في الحديث الشريف فيحتمل أن يكون بمعنى مَن جَهَر بالمعصية وأظهرها، ويحتمل أن يكون المراد الذين يُجاهِر بعضهم بعضًا بالتحدُّث بالمعاصي، وبقية الحديث تؤكِّد المعنى الأول[123]"

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشرَ المهاجرين، خمسٌ إذا ابتُليتم بهنَّ -وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ-: لم تظهرِ الفاحشة في قوم قطُّ حتى يُعلنوا بها، إلا فَشَا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مَضتْ في أسلافهم الذين مضَوْا، ولم ينقصوا المكيالَ والميزان، إلا أُخِذوا بالسِّنين وشدَّة المؤونة وجورِ السلطان عليهم، ولم يَمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنِعوا القطر من السَّماء، ولولا البهائم لم يُمطَرُوا، ولم يَنقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله، إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تحكُم أئمتُهم بكتاب الله ويتخيَّروا مما أَنزل الله، إلا جَعَل الله بأسَهم بينهم»[124]، وذلك لأن المجاهرة بالمعصية تفقدها معنى العار والخطيئة في النفوس فيعتاد الناس عليها ويألفوها.

، وحث الله تعالى على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ "[125]

وقال عز وجل: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[126]

---

[123] (فتح الباري: [487/10]).
[124] (صحيح الجامع الصغير) [1321/2]، الألباني

[125] [آل عمران: 110]
[126] [آل عمران: 104]

وقال سبحانه: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[127]"

وروي عن النبي ﷺ أنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم[128]" ، وقال عليه الصلاة والسلام "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[129].

فقد كانت فريضة الأمر بالمعروف والنهي ثابتة ومستقرة في المجتمع الإسلامي، يمارسها الناس جميعًا باعتبارها أحد فرائض الإسلام الأساسية والتي يستمد منها المجتمع وظيفته في الضبط المعياري للقيم الخلقية، ويراقب أفراده طبقًا لمنهاج ثابت وقويم.

وروي عن رسول الله ﷺ: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا قال النبيﷺ: فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا[130]".

فالمجتمع مثل السفينة، وضمان صلاحها هو المحافظة عليها من التحلل بفعل ما يحدثه المنكر في المجتمعات من تشظي اجتماعي، وانهيار أسري، وفساد خلقي.

وهذه الفريضة لم تقتصر على الدين الإسلامي فحسب، بل وجدت لها أمثال في كل الثقافات وإن لم يكن بنفس التحديد والعمق.[131]

---

[127] [التوبة: 71]

[128] أخرجه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وهذا لفظ ابن حبان.

[129] رواه مسلم (49). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[130] صحيح الترمذي: 2173

[131] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي، مايكل كوك

ويتميز الدين الإسلامي بأنه ضاعف من أهمية الفريضة حتى جعل القيام بها هو معيار خيرية الأمة، ووضع لها ضوابطها فمنع التجسس، وأمر الله تعالى بستر المذنب قدر الاستطاعة، وعقابه على الملأ إن ظهر فحشه، وهجر المسلمون ومعهم النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة المتخلفون[132] عن غزوة تبوك، وأمر المسلمون بمقاطعة الفاسق، وإسقاط شهادة ساقط المروءة[133]، وعدم تزويجه إن أراد الزواج.

ووضع كذلك للفريضة ضوابطها فأوجب على المسلم العلم بالشرع حتى لا يتفوه بما لا يعرف، وأن يكون المنكر الذي ينهى عنه مستمرًا ومعلومًا باليقين، وألا يؤدي النهي عن المنكر لحصول منكر أنكر منه؛ كل ذلك حتى لا يختل ميزان الأمور، ويفسد بعض الحمقى من حيث أرادوا الإصلاح

وغير ذلك الكثير من الضوابط والقيم التي تحفظ على المجتمع أخلاقه وتحفظ له قيمه، لأن المسلمون بعضهم من بعض، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون كالبنيان المرصوص، والمؤمنون كالجسد الواحد، ومن لم يهمه أمر المسلمون فليس منهم، وغير ذلك المعنى نجد الكثير من النصوص التي تحفظ على المجتمع وحدته وتماسكه، وتقيه من التشرذم والتفرق .

وذلك على عكس مبادئ الفردانية التي هي إحدى وأهم مرتكزات الثقافة الأوربية الحديثة التي تفكك المجتمع وتشرذمه عبر بث قيم النسبية الأخلاقية والمعيارية من جهة، وتقديس الحرية المتلفتة من كل جهة، ويتوج كل ذلك بقيم النفعية المصلحية ليصبح كل أمرئ يسعى خلف غاياته ومراده، ويعبد ذاته وهواه دون أن تكون له بوصله توجهه ولا ضابط يربطه، فقد تم تدنيس المقدس، وتفكيك المترابط ، وأصبح الإنسان فردًا وحيدًا قائمًا بذاته.

---

[132] هؤلاء الصحابة هم (كعب بن مالك و مرارة بن ربيع و هلال ابن أبي أمية) رضي الله عنهم

[133] المروءة هي اسم جامع للمحاسن كلها من كمال الأدب ومكارم الأخلاق، و ساقط المروءة هو مرتكب الكبائر أو المدمن على ارتكاب الصغائر، أو من يأتي الأفعال الخسيسة التي تذهب بشيم الرجال كالرقص والتمايل على وقع الانغام المحرمة.

ولأن هذا النظام الرأسمالي قائم في أساسه على الربح المادي، كان تفكيك المجتمعات بهذه الطريقة ليصل في النهاية لهذا الفرد الوحيد هي غايته التي قضى على كل القيم الأخلاقية ودنس كل المقدسات الدينية ليصل إليها في النهاية، فعندما يتعارض الربح المادي مع أي قيمة عليا متجاوزة للمادة تقدم المادة بالطبع.

المعايير وأهميتها

تأتي كلمة الإنسان من معنى الأنس، الذي هو مضاد للتوحش والتي ذكرها ابن خلدون في معرض حديثه عن صعود الأمم وهبوطها ليذكرنا بمقولته حول التاريخ باعتباره (خبر عن الاجتماع الإنساني)، وإن كان علم الاجتماع الحديث لا يهتم بالمنحى الأخلاقي، وإنما هدفه رصد الظواهر الإنسانية وتفسيرها؛ فإننا نرى أن الاجتماع الذي يحتاجه البشر ولابد هو الضوابط والقوانين والمعايير الحاكمة لهذا التجمع والحياة الإنسانية.

وغياب المعايير يعني غياب اليقين في أي قرار قد يتخذه المرء، ويعني هذا أن يسير الأفراد باعتباطية كاملة في طريق محفوف بالمخاطر لا يعلم أحد منهم ما الذي سيقابله في نهايته.

وعليه يجب أن نفهم أهمية المعايير التي تنظم سير المجتمعات، وتحافظ على توازنها من الاختلال وبالتالي تحفظ بقائها، وتدفع عنها خطر الانهيار.

فعندما تحل بالمجتمعات الخطوب الشديدة، والكوارث الطبيعية أو الاقتصادية فإن معايير المجتمع الأخلاقية هي التي تحافظ عليه من الانهيار والتصدع، فيطعم الغني الفقير، ويؤوي الساكن المتشرد، ويغيث من يستطيع من لا يستطيع بماله وطعامه.

فإن لم تكن هناك معايير أخلاقية تنبع من قيم عليا متجاوزة للفردية، والنفعية، والمصلحة الشخصية التي لا يهتم فيها إلا كل إنسان بذاته؛ سقط المجتمع مع أول كارثة تلم به.

والمعايير الناظمة لحركة المجتمعات تنبع كفاءتها من جذورها التي تنبت منها، وتستند عليها، فإن كانت هذه الجذور هشة ومتضاربة فيما بينها بحيث إنها لا تتعدى المصالح الشخصية العقلانية، كان ذلك المجتمع هشًا

ويحيطه استقرار صوري سيتهشم مع أول اختبار حقيقي للقيم التي تحكم ذلك الاجتماع الإنساني.

و يؤثر في قوة المعايير وفاعليتها؛ آليات تطبيقها، ومدى إيمان الناس بها ورسوخها في وجدانهم، فالمعايير الأخلاقية مثل القوانين الحديثة التي قد تقابل قناعات الناس وتتماشى مع ثقافتهم أو أهوائهم فيدافعون عنها ويسارعون للالتزام بها لما توفره لهم من منافع شخصية، أو لإيمانهم بالمبادئ التي تنصرها.

وإما في الجهة المقابلة قد يحاربها الناس لعدم إيمانهم بها ومعارضتها لقناعاتهم ولا يلتزمون بها سوى في ظاهر الأمر مخافة عقاب السلطة.

لذلك يعد فلاسفة القانون الأخذ بالمعيار الثقافي لدى الشعوب حال وضع القانون شرط أساسي لالتزام الناس به، وقد نصت الشريعة الإسلامية على احترام الاعراف المجتمعية في كل البلاد التي دخلها الإسلام، وعُد العرف من مصادر التشريع الإسلامي مالم يخالف نصوص الإسلام الحاكمة.

و المعايير الأخلاقية والقيمية لا تفرضها القوانين الوضعية ولا تمعنها، فالأصل في تلك المعايير أن تنبع من النفس، وأن يؤمن بها الناس ثم يترجمونها سلوكًا أخلاقيًا في الواقع، "ذلك أن التحكم في الذات يقتضي شكلًا معرفيًا ما، فلا يمكن للذات أن تتشكل أخلاقيًا دون أن تتشكل في نفس الوقت معرفيًا[134]."

وأبسط الأمثلة على ذلك ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية إبان قانون الحظر، الذي صدر بين عامي 1920 -1933وهو قانون قضي بتجريم بيع وتصنيع وتعاطي الخمر والمشروبات الكحولية، وقد فشل القانون فشلًا ذريعًا، وأدى المنع لظهور مفاسد أضخم من تلك التي أراد منعها، فظهرت السوق السوداء، وانتشرت العصابات الاجرامية التي تخصصت في سرقة وتهريب الكحوليات، وأمام عجز الحكومة عن السيطرة على الأمر تم إلغاء القانون في 5ديسمبر 1933.

---

[134] الفرد والمجتمع عند فوكو ص 36

وبالرغم من أن القانون تم إصداره والاحتفاء به باعتباره انتصارًا للأخلاق النبيلة إلا أن العقلية الغربية التي تم تأسيسها على النفعية (تحقيق أقصى قدر من المتعة في مقابل اجتناب الألم)، والانعتاق من كل قيمة أخلاقية لا تجلب لصاحبها نفعًا، لم تجد أي مبرر يحثها على الالتزام بقانون الحظر، بل زادت في تلك الأعوام نسب تعاطي الخمر، فضًلا عن الآثار السلبية الأخرى التي نتجت عن القرار.

يقول جيرالد لينش "فحيثما قارن الناس تحديدًا التكاليف والأرباح لخرق القوانين الجنائية، خسرنا المعركة مقدمًا، إن العديد مطالبون بأن يستنتجوا في مواقف معينة أن حساب التفاضل والتكامل يفضل خرق القانون"، لذلك لا عجب أن نجد أكبر نسبة للإجرام في المجتمع الأمريكي، في الوقت الذي تتصدر فيه الولايات المتحدة دول العالم في جرائم الاغتصاب، والتحرش، وهتك العرض منذ عام 2000 حتى الان، لذلك يقول إستر معلقًا على الوضع القانوني في المجتمعات الغربية " إن العديد من الناس يسلمون بفكرة أن المصلحة الشخصية هي حجر أساس المجتمع، وذلك حتى يتأملوا المضامين بشكل أعمق في الآثار المترتبة عليه.

إن التصرف وفقًا للمصلحة الشخصية يعني عدم قول الحقيقة مطلقًا، وعدم الالتزام بالوعود الشخصية إلا إذا دُفع ثمن لقاء ذلك، ويعني أيضًا أن يسرق ويغش إذا ما استطاع الشخص أن يفلت من العقاب.. ومعاملة العقوبة على إنها مجرد ثمن للجريمة، والأشخاص الآخرين على إنهم مجرد وسيلة لإشباع الذات".

فمجتمع يكون فيه الضابط للسلوكيات الفردية هو جلب المنافع، والنظر إلى الآخر على إنه مصدر لإشباع الغرائز، أو تحقيق المنافع، فهو مجتمع يعاني من الخلل الشديد في مساره الأخلاقي

و على المستوى التنظيري فإن مجتمع مثل تلك المجتمعات التي يعاني أفرادها من خلل على مستوى الأفكار يجعلهم يحطون من قيمة البشر وينظرون إليهم كأشياء، و(مواد استعمالية)، وهذا يعني في التفكير

الاستهلاكي أن يتحول البشر إلى سلع لها تاريخ انتهاء صلاحية، كما لها تاريخ محدد للاستعمال ثم تصبح عبئًا لابد من التخلص منه، لا يمكن أن نعتقد إنه مجتمع يتمتع بالسواء فضلًا أن يحافظ على ديمومته وتقدمه.

وبالتالي لا نعجب إطلاقًا من زهد الناس في ذلك المجتمع اللاإنساني، وتفضيل البدائل الوهمية كالمجتمعات الرقمية، والانخراط فيها بصورة شبه كاملة بعدما فشل المجتمع الواقعي في أن يصبح مكانًا يوفر لأفراده سبل العيش السوي.

عوالم بديلة

يوصف الإنسان دائماً بأنه كائن اجتماعي، يعيش في جماعة يستمد منها شعوره بكينونته، يؤثر في تلك الجماعة ويتأثر بها، ومع تحول المجتمع الحديث لحلبة صراع تهشم إنسانية المرء وتقضي على كينونته بتحويله للإنسان الآلة الذي لا هم له سوى جمع المال، واللهاث خلف كل متعة جديدة.

وتزامن ذلك مع انتشار فلسفة الحداثة، وما أنتجته من قيم الفردية والمادية المفرطة وما ترتب على ذلك من هشاشة العلاقات الاجتماعية وتشظي الحياة الأسرية، كان لابد من سد الفجوة الاجتماعية لدى الإنسان الحديث؛ فكان لابد من مجتمع افتراضي تشبع نهم الإنسان الحديث من الاجتماعيات، ويغطي على شعوره بالوحدة حتى ولو بطريقة وهمية

وفي ذلك السياق يشير جيمس جاربارينو James Garbarino في تلخيصه لنتائج بحثه حول تأثير التليفزيون في التفاعل الأسري إلى أن "النتائج الأولى توحي بأن

التليفزيون كان له تأثير معطل في التفاعل، ومن ثم في النمو الإنساني في أغلب الظن... ولن نجانب الصواب إذا ما تساءلنا: هل هو واقع أن الأسرة الأمريكية العادية إبان عقد الخمسينيات ضمت الأبوين، وطفل، وجهاز تليفزيون يرتبط بطريقة ما بالخصائص السيكولوجية للراشدين الصغار أبناء السبعينيات[135]".

و لم يعد هذا الحال في المجتمعات الغربية فحسب بل قد تسربت إلينا قيمهم وطرق معايشهم، فقد كان فيما مضي ويؤسفنا قول ذلك أن الأسرة هي المنوط بها الجزء الأكبر من عملية التنشئة الاجتماعية والتربية بمعناها الشامل للأطفال، فيشب هؤلاء الأطفال وقد نمت في دواخلهم كثير من المفاهيم التي افتقدها الجيل الحديث من تحمل للمسؤولية وتقديس للأسرة، والواجبات الاجتماعية، وفهم لمعاني عليها قوام الحياة

---

[135] (ص17، وين- الصبيحي 1999)"

الإنسانية؛ كالحب والتضحية والتعاون والاتحاد وغيرها من المفاهيم التي كانت هي عماد المجتمعات القديمة.

فقد كانت تلك المجتمعات تعلم أبنائها وتورثهم قيمها عن طريق الانخراط في الهم العام للأسرة ومسؤولياتها، وللمجتمع الصغير كمجتمع القرية أو القبيلة ومهامه، وكان الأبن يرى أباه يقدم مصلحة مجتمعه، وعائلته، وقبيلته، على مصلحته الشخصية؛ فيتحمل عبء المسؤولية في سن صغيرة، ويفهم قيمة الولاء والانتماء للمجتمع الأكبر.

فعندما يرى إغاثة الملهوف حين تلم النوازل به، والمشاركة في أتراح العائلة وأفراحها يكبر فيه الحس بالانتماء والولاء لتلك العائلة ، ولكن تغير كل ذلك بعد عمليات التمدن والتفكيك المستمر للمجتمعات الكبرى، ثم للعائلات والقبائل، ومن ثم وأخيرًا تفككت الأسرة النووية الصغيرة حتى وإن كانت تستظل بسقف واحد، و يجمعها منزل واحد.

وأصبح الإعلام بأشكاله المختلفة يتولى مسؤولية إزاحة العبء من على كاهل الآباء في التعليم والتربية، ولكنه للأسف لا يربي ولا يعلم!، هو يخفف عبء المسؤولية فقط، ليخل بمسؤوليتهم تدريجيًا، حتى صارت مسؤولية الآباء مسؤولية مادية فقط تنصب على الجسد المادي للطفل؛ فيلبوا احتياجاته المادية من مأكل وملبس ومشرب، و هنا تحدث الكارثة، وتختل العلاقات، وتتفكك الأسر وتتبدل القيم؛ فيفقد المجتمع صلابته التي مبناها القيم والمعتقدات، ويتحول الإنسان فيه إلى مسخ مادي لا يفكر إلا في تحصيل المال، و تلك القيم تنتقل إلى الأطفال فتعييها فعلاً لا قولًا.

فيصبح واجب الطفل لأبيه وأمه مجرد هدية مادية في يوم مخصص كل عام ،وبالمقابل لا يحق للآباء تأديب أبنائهم تحت مسميات عدة كالتربية الإيجابية وغيرها، ويتحول الآباء في ذلك المجتمع إلى مجرد مكتب لصرف الأموال، لتتحول العواطف والمشاعر في مجتمع كهذا إلى قيم مادية مجردة، لأن الهوة أصبحت شاسعة بين عالمين مختلفين فيفضل كل منهما الابتعاد حتى لا تنشأ المشكلات.

وبذلك يتحول الإعلام كما قلنا لنوع من الإدمان الذي يُخرج المرء من عالم واقعي أغرقته المشاكل التي لا يستطيع لها فكاكًا؛ لأن البلوى قد عمت، والحال كله أو جله كذلك، وتدخله في واقع حالم لا يمت بصلة لواقعه المذرى، فيطيب خاطرًا بذلك الوهم، وينفض عنه غم الواقع، ويتحرر من مسؤولياته حتى تجاه أبناءه الذين يتحولون إلى مادة للاستهلاك العاطفي، وصورة من صور الحياة المادية الغالبة، فُيستهلكون للتفاخر بألبستهم وأطعمتهم، وأي المدارس يرتادون، ليس المهم ما يتعلمون ولا ما هي قيمهم وآدابهم، فنحن في مجتمع يهتم بالعالم الحسي الملموس ويغفل تمامًا عن عالم الأفكار المجردة، وهو لعمري إيذانًا ببدء النهايات المظلمة.

وهم العلاقات

تُسمي كثير من التطبيقات أمثال فيس بوك وانستغرام وغيرها ب(مواقع التواصل الاجتماعي) أي المواقع التي تتيح للشخص تنمية علاقته الاجتماعية، وتكوين دائرة كبيرة من الاصدقاء قد لا تتيح له الظروف العادية العثور عليهم في الحياة الطبيعية نظراً لانشغال الناس، وسعة المجتمعات ،ولكن إلى أي مدي يعد ذلك صحيحًا وصحيًا في الآن ذاته؟!

لا ينكر أحد أن دائرة أصدقاء أياً منا أكثر اتساعاً على فيس بوك مثلاً ،ولكن إلى أي مدى يكون ذلك الأمر صحياً فضلاً عن كونه حقيقيًا؟

في تجربة للعالم الانجليزي Robin Dunbar عام 1990 توصل إلى حقيقة مثيرة ،ومفادها أن أكثر الناس اجتماعية لا يستطيعون تكوين صداقة مع أكثر من 148شخص، وسمي هذا الرقم باسمه (Dunbar's number).

وهذا يعني في حقيقة الأمر أن علاقات مواقع التواصل الاجتماعي ماهي إلا وهم كبير يعيش فيه الإنسان الحديث لتسكين الألم النفسي الذي يعيشه جراء الوحدة .

ولذلك فبرغم كثرة الاصدقاء والمتابعين الذين تجدهم عند رواد مواقع التواصل الاجتماعي إلا أنهم في حقيقة الأمر يعيشون حالة كبيرة من الوحدة النفسية، والتعطش لعلاقات سوية على الجانب الأسري أو حتي الاجتماعي، ولذلك نجحت مواقع التواصل الاجتماعي في غزو السوق باعتبارها المسكن الوحيد لأكثر المشاكل النفسية إلحاحاً للإنسان الحديث.

ذلك المسكن السريع والخطير في الآن ذاته لأنه لا يعالج أصل مشكلة التشظي الاجتماعي والتفكك الأسري التي بليت بها المجتمعات الحديثة؛ وإنما للأسف يفاقهما للحد الذي يصنع منها آثارًا جانبية تتحول لمرض أكثر خطورة على الجانبين النفسي والاجتماعي.

فعلى الجانب الاجتماعي فمواقع التواصل الاجتماعي تغذي بشكل أكبر علاقات التيك واي المتحررة من أية التزامات والفاقدة لمعنى التلاحم والترابط والتراحم؛ تلك المعاني التي تصنع العلاقات الحقيقية وتغذيها؛ فتكسبها قوتها وأهميتها على المدى البعيد، ولا سيما في ظل الأزمات والمحن التي هي سمة الحياة الإنسانية ليكتشف المرء مع أول نازلة تعصف به كم هو وحيد، ويواجه كآبة الحياة بمفرده دون رفيق أو معين.

وعلى الجانب الآخر فإن تلك المواقع تزيد الطين بلة بما يتعلق بمشكلة التشظي الاجتماعي، فبعدما كان المرء يقضي جزء من ساعات فراغه مع أسرته أو أصدقاءه، بات يكتفي بمشاهدة أخبارهم عبر تلك المواقع أو حتى لا يهتم البتة بما من شأنه أن يعيقه عن جهازه المقدس!

وعلى الجانب النفسي فإن تلك المواقع كارثية الأثر على نفس الإنسان الحديث الخاوية من المعنى والفاقدة للوجهة، ومع سياسة التشتيت والتلاهي التي تستخدمها تلك المواقع فإن الإنسان الحديث يتحول إلى كائن مشوه يسعى لتكوين حاضنة نفسية فيسعى لتسول القبول عبر تقنيات كالlove والاعجابات ولو على حساب سواءه النفسي وحسه الأخلاقي ليكتشف مع أول نازلة تصيبه على أرض الواقع هشاشة حاضنته النفسية الافتراضية، لذلك تقول عالمة النفس الامريكية jean twenge:"الجيل الناشئ مهووس بالأمان النفسي والشعوري، هؤلاء لا

يعتقدون إنه ينبغي أن يتم حمايتهم من الاعتداء الجنسي وحوادث السيارات فحسب، وإنما من أي شخص لا يتفق معك على وسال التواصل الاجتماعي" ، فضلًا عن ذلك فإن تلك المواقع مدمرة للسواء النفسي على أكثر من جانب.

البارا نويا والنرجسية

تنبأ الكاتب الروسي ديستوفيسكي في روايته المثل بالحالة التي يعيشها الإنسان الحديث على مواقع التواصل الاجتماعي، من محاولة لتضخيم الذات، وصنع هوية مميزة، والحاجة المستمرة إلي التقدير والاحترام ولو وهمياً عن طريق أدوات سخيفة ك(Like)على سبيل المثال.

ولذلك تجد رواد هذه المواقع ولاسيما المدمنون عليها يسعون بشكل دائم إلى وضع أجمل صورة ،وكتابة ما يظنون إنه الاجمل والأفضل دائماً في محاولة منهم لصنع شخصية جذابة من وجهة نظرهم، سلبها منهم الواقع الأليم بكل مشاكله واحباطاته.

وتدريجيًا تتضخم تلك الشخصية الافتراضية لتطغى على الشخصية الحقيقة، ويصبح هم الإنسان الأوحد كيف يصنع المزيد من الإنجازات الوهمية كي تصبح صورته الافتراضية أجمل وأفضل.

كيف يجذب متابعين أكثر؟!

كيف يحصل على المزيد من الاعجابات والمشاركات؟!

كيف يصبح مشهوراً؟!

وتدريجيًا تذوب الشخصية الحقيقة ومعها الإنجازات الحقيقة على أرض الواقع لتتحول حياه الانسان إلي صفحة فيس بوك!

بطل من ورق

كما نجحت مواقع التواصل الاجتماعي في اللعب على الفجوة الاجتماعية في حياتنا المعاصرة، فإنها نجحت كذلك في اللعب على الآثار النفسية للشخصية الإنساني.

فكم من مرة وجدنا شخصاً يتغنى بالقيم والمبادئ على مواقع التواصل الاجتماعي ولكنه في حياته الحقيقة لا يعير انتباهاً لأي مبدأ أخلاقي، أو قيمة عليا؟!

ببساطة نجحت مواقع التواصل الاجتماعي في اللعب على التأثير السيكولوجي للإنسان ،وعليها استطاع أن يفعل أي شيء وكل شيء لن يستطع فعله في الواقع الحقيقي سواء لوجود عوائق مجتمعية، أو موانع قانونية أو نظراً لطبيعة الشخص الفردية.

في بحث موسع للدكتور John Suler توصل لأسباب تلك البطولات الوهمية على مواقع التواصل الاجتماعي وأرجع ذلك لجملة من الأسباب هي :

1- حجب الرؤية

عندما تتعامل مع اشخاص طبيعيين على أرض الواقع تراهم أمامك، تحدثهم ويحدثونك، لهم ردات فعل تلقائية بمجرد أن يصدر فعل أو قول منك يجعلك تتصرف بحكمة أكثر، اتزان أكثر، وتلقائية أقل.

تنتبه لما يبدر منك لما قد يكون مخالف لقيم المجتمع، أو قد يعرضك لمشاكل جمة، وذلك على عكس مواقع التواصل الاجتماعي التي تحجب الرؤية عنك ،فتعلم إن من تحدثه لن يراك، وإن تجاوز في حقك فإنك تستطيع اقصاءه بضغطة زر واحدة، كل ذلك يعطيك شعور وهمي بالقوة تجعلك تفعل ما تشاء دون أدنى شعور بالندم أو المسؤولية.

2- الهروب

في مواقع التواصل الاجتماعي تستطيع أن تصادق من تشاء وتقصي من تشاء في الوقت ذاته.

يتيح لك الفضاء الإلكتروني أن تندمج في مجتمع يشبهك، وتقصي كل مخالف، وتهرب من كل مواجهة قد تُهزم فيها ، ترمي سهامك ثم تفر كذلك دون السماح لعدوك أن يتعقبك.

كل ذلك يعطي للمستخدمين شعور وهمي بالبطولة، وتحقيق الذات ومن ثم تضخمها في النهاية.

فضلًا عن ذلك فإن تلك المواقع هي الملجأ الحقيقي للعاجزين اليائسين عن التعاطي مع الواقع الحقيقي، ومعالجة مشكلاته، فيهربون منه لواقع افتراضي يتحكمون هم في صنعه، أو حتى يقتلون به الوقت حتى لا يضطرون للعيش في اللحظة الآنية، وما يستلزمه ذلك من تحمل للمسؤولية واتخاذ للقرار.

3-الإدراك الخاطئ

نظرا لأن كل مستخدم على مواقع التواصل الاجتماعي يصنع هويته كما يطمح أو يحب، أو حتى يخفيها تماماً ،فانك عندما تتعامل مع أحدهم أنت في حقيقة الأمر تتعامل مع الصورة الوهمية المصطنعة التي من الممكن أن تقترب من الحقيقة ميلاً واحداً، أو تبتعد أميالاً عدة ،أو حتي تجانب الحقيقة بشكل كبير.

كل ذلك يجعل أحكامنا على من نعامل على مواقع التواصل الاجتماعي غير صائبة نظراً لنقص إدراكنا لما عليه الشخص في الواقع، ومن ثم نتعرض لمشاكل جمة نتيجة ذلك الادراك الخاطئ.

4-تطوير الذات

تعد من أكبر مصائب مواقع التواصل الاجتماعي أمثال فيس بوك مثلاً هي قضية المجتمعات المغلقة ,أي المجموعات التي تتبني وجهة نظر مشتركة لكل أعضائها حول قضايا معينة سواء في الدين أو السياسة أو غيرها.

إنشاء مجتمعات قصدية موجهة بهذا الشكل يغيب فيها أدنى نوع من النقاش الحر حول ما نؤمن به، وما نعتقد، وفهم أسبابه المنطقية والموضوعية كذلك يجعلنا مجرد صدى صوت لأنفسنا، ويقضي على أي مساحة من محاولة فهم الآخر، أو حتى فهم لماذا اعتقدنا هذا الرأي دون سواه؟!

فضلًا عن ذلك فإن تلك المواقع السارقة للوقت تقضي على كافة مساحات الفراغ سواء الذهني، أو الوقتي التي تمنحنا بعضًا من التأمل الذاتي لأفعالنا، ومواقفنا وأهدافنا من الحياة، وسبل اختياراتنا فيها.

فمع ذلك الكم الهائل من القصف المعلوماتي، والتحديثات المسترة، والمنتجات المعروضة يتشتت المرء ويفقد قدرته على التفكير المتأني فضلًا عن الاختيار العقلاني الحر.

ومع وجود مصادر موجهة ايدلوجيا وسياسياً تلعب على التوجهات المختلفة للشعوب، وتحرك خيارتها في الحياه الثقافية ،والسياسية، والاقتصادية وهلم جرا، يصبح مستخدمي منصات التواصل الاجتماعي مجرد طعم سهل لصانعي القرار الدولي دون أدني وعى منهم .

5-الصورة المنقوصة

كل منا يريد أن يثبت للعالم أن له هوية مميزة ،يريد أن يطفو على السطح ويعبر عن ذاته، ولذلك نجحت مواقع التواصل الاجتماعي في جذب ملايين الناس حول العالم لأنها أشبعت فيهم نهم الذاتية المفرطة.

ولأنك تختار تلك الهوية بعناية مفرطة فأنك تختار حتماً أفضل أحوالك، وأجمل لحظاتك لتنشرها، وهذا ما يدفع بك و بالباقين كذلك للدخول في لعنة المقارنات، فهم لا يرون لحظاتك التعيسة أو اليائسة لأنك حتماً لا تريد أن تبدوا ضعيفًا...فاشلاً... مثيراً للشفقة أمام الآخرين وكل ذلك يدخلك مع الآخرين أمثالك في حلقات من المقارنات التي تودي بك حتمًا إلي المزيد من الفشل والاحباط وربما الشعور البغيض تجاه الآخرين .

6-المثقف الفارغ

استطاع الفيس بوك أن يشكل طبقة بغيضة من مدعي العلم والثقافة والذين يتقنون فن الكتابة والسفسطة ولو لم يكن لهم رصيد حقيقي من العلم والثقافة التي ترقي بهم لفهم ما قد يقرؤونه بالأساس ,إن هم قرأوا أصلًا.

تلك الطبقة من مدعي العلم والثقافة اتبعها الكثيرون ممن ليس لهم كبير حظٍ من علم أو ثقافة ,فأضافت إلى جهل الناس جهلاً آخر، فأصبح الشخص يظن إنه العالم العلامة، الحبر الفهامة لمجرد قراءته مقالاً على الأزرق .

تلك الحالة من وهم العلم والمعرفة أثرت سلبًا على أهل العلم الحقيقيين فضلاً عن تأثيرها على الجهال أنفسهم الذين يعتقدون إنهم بلغوا من العلم مبلغًا كبيرًا لمجرد إنهم أصبحوا مرأيين ولهم أتباع ومردين؛ وبالتالي لا يسعون إلى تصحيح معتقداتهم الخاطئة.

7- مقبرة الخصوصية

تعتبر مواقع التواصل الاجتماعي وعلى رأسها فيس بوك مقبرة للخصوصية حتى ولو ادعى مستخدموه غير ذلك! فبمجرد نشرك للمعلومات التي تخصك عليه فيعني ذلك إنك قبلت ضمناً تنازلك عن جزء من خصوصيتك بمحض ارادتك الحرة وجعلتها متاحة أمام الملايين من البشر، ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى ما هو أخطر .

دعنا من أن هذا الجزء من الخصوصية المتنازل عنه والذي ربما يكون غير محترم من قبل المستخدمين، ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فالشركات الرأسمالية لا تُقدم خدماتها للمستهلكين مجانًا، بل تسعى إلى أرباح مقابل الخدمة المقدمة، وكلفة هذه الأرباح قد تكون باهظة بالنسبة إليك عزيزي المستهلك!

تبيع مواقع التواصل الاجتماعي بيانات المستخدمين للشركات الكبرى، فبعد تنازلك عن خصوصيتك وعرضك لما تحب وتكره ساعيًا لتشكيل صورة ذهنية ما، تُصبح دون أن تدرك مجرد مُنتج مستباح من جانب الشركات الكبرى لتسويق منتجاتها ،فضلاً عن الجهات السياسية التي تتطلع على خياراتك، وتفهم توجهاتك وأسبابها المنطقية ،والنفسية كذلك

ومن ثم تلعب عليها كيفما تشاء، وقد ظهر ذلك جليًا لكل العالم في الانتخابات الرئاسية الأمريكية الأخيرة.

كيف يجعلنا الفيس بوك أكثر تعاسة؟

في كتابه "كيف يجعلنا الفيس بوك أكثر تعاسة" نشر الكاتب طونى صغيبني دراسة مفادها أن الادمان على مواقع التواصل الاجتماعي تصيب الإنسان بمرض ADHD ،وهو مرض عصبي يؤدي إلي فرط التشتيت، وقلة الانتباه، وفرط الحركة، وعدم القدرة على إنجاز الأعمال باحترافية أكبر وكفاءة أكثر، وله العديد من الأعراض التي حتمًا سيصيب جزء منها مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي بحسب ادمانهم عليها.

وبحسب علماء النفس فإن اجتماع نسبة معينة من الأعراض المتفق عليها في أي مرض نفسي تعني إصابتك بالمرض، أما في حال إصابة المرء بجزء منها فإنه في طريقه للإصابة بذلك الاعتلال إن هو استمر في نمط حياته الخاطئ.

وهناك الكثير من الاعراض التي هي قرين إدمان ذلك العالم الوهمي والتي تتوافر جلها أو بعضها، وبنسب متفاوتة لمستخدمي ذلك العالم الافتراضي، نذكر منها:

1- الاندفاع: كالهرولة في فعل الأمور، والسرعة في التعامل مع الأشياء برعونة وعدم تركيز وبأدنى اهتمام

2- صعوبة تحديد الأولويات و سوء التخطيط للأهداف ؛ فإدمان تلك المواقع يجعلك رغمًا عنك مواكب للtrend ، تدور في فلكه وتتبعه حيثما يسير فاليوم سوق التنمية البشرية هو الرائج فترسم أحلامك على أن تصبح يومًا ما المدرب الدولي المعتمد ..إلخ، وعلى هذا الأساس تنفق الشيء الكثير على الدورات التدريبية وكتب التحفيز الذاتي ثم تكتشف أن

الأمر لم يكن سوى مزحة سخيفة من بعض العاطلين المتاجرين بأحلام الشباب الحمقى من أمثالك!.

ولكن لن يحبطك هذا ما دام سوق ريادة الأعمال قد انتعش، وتجارب النجاح لا تخطئها العين وهكذا تغير المسار وتبدأ تلك المرة في شراء كتب الإدارة وحجز كورسات جديدة!

وهكذا دواليك، تدور حيثما يدور الtrend دون إدراك حقيقي لكنه قدراتك، ولا حقيقة أولوياتك، ولا ماهية أهدافك الحقيقية، لتسلب منك في النهاية حياتك دون فعل شيء؛ لأن وقتنا على هذا الكوكب محدود والوقت الذي أضاعته السوشيال ميديا كان بكل أسف هو وقتك؛ أي حياتك!.

3- التشتت وصعوبة التركيز على شيء واحد هو الضريبة الباهظة للفضاء الرقمي، وكما تقول فرانسيس بوث "لو كان الانتباه نقودًا لتوقفنا وفكرنا منذ وقت طويل، إن ذلك يعد إنفاقًا بشكل متهور. إننا نبدد عملية الانتباه التي نقدرها بلا حساب؛ ننفق جزءا هنا وآخر هناك و جزءًا ثالث على أمر لا يقع حتى ضمن دائرة اهتمامنا؛ نشاهد فيلمًا على يوتيوب بينما نفقد بريدًا إلكترونيًا ورد للتو، ونتسوق عبر الإنترنت، نجيب على مكالمة عبر سكايب، نذهب لنتجول بين تغريدات تويتر، نسأل جوجل سؤالًا فينتهي بنا المطاف إلى موقع يضم سلسلة من الروابط عن موضوع لا علاقة له بما نبحث عنه "

كارثية الأمر أن ذلك السلوك مع تكراره على الفضاء الرقمي يتحول إلى ثمة غالبة ليس في الواقع الطبيعي فحسب، وإنما حتى في طريقة معالجتنا للمشكلات، فنقفز بسرعة بين مشكلة وأخرى دون أن نتريث لعلاج إحداها واختبار البدائل المختلفة بطريقة منطقية، الأمر الذي يضفي على سلوكنا بل وأفكارنا نوعًا من الاعتباطية وعدم التعقل نظرًا لأن التشتت وإغفال التفاصيل فضلًا عن سرعتنا في التعاطي مع كل الأمور، و لأن الحياة تدور ولا تنتظر أحد، أصبح طبعنا الغالب هو القفز السريع بين القرارات والأفكار والاختيارات بشكل اعتباطي غير مدروس، لندرك في النهاية أن حياتنا جميعًا لم تكن باختيارنا، ولا نحن من صنعناها، وإن

كان الأمر كذلك فلابد أن هناك صانع خلفها!، لنقفز من ذلك إلى نتيجة أشد كارثية وهي عدم مسؤوليتنا عن حياتنا، لنغرق أنفسنا مرة أخرى ولكن بوعي هذه المرة في زحام المواقع والمشتتات ونلهي أنفسنا بأنفسنا!

4- التقلبات المزاجية؛ في إحدى حلقات المسلسل الشهير black mirror وعندما سيطر الواقع الافتراضي وتغلب على الواقع الطبيعي كانت قيمة الشخص تقدر عبر رؤية الآخرين وتقديرهم لقيمته الشخصية وفقًا لما يُظهره لهم على الواقع الافتراضي، تلك القيمة التي نتحدث عنها ليست قيمة معنوية؛ بل على أساسها يحدد أن يسكن المرء، ومقدار الخدمات التي تُقدم له وشكل الخدمة، ومن يصادق، وكيفية تعامل الناس معه، وشكل الحياة التي يعيش.

ربما يرى البعض أن هذه الصورة متشائمة وسوداوية لحدٍ كبير، ولكن التقنيات النفسية للثواب في مواقع التواصل الاجتماعي كالاعجابات والتقنيات العقابية كالبلوك أو حتى التجاهل والإقصاء للمخالفين أثبتت فاعليتها بشكل كبير في نفوس رواده الذين باتوا يهتمون بصفحاتهم الشخصية وما ينشرونه عليها أكثر من اهتمامهم بحياتهم الواقعية.

وبمجرد وقوع المرء ضحية في ذلك المنزلق الخطر تبدأ تصوراته عن الحياة تختل بشكل كبير نظرًا للنجاح الوهمي الذي يراه يوميًا، بدءًا بالمظهر الأنيق ومرورًا بقصص الحب والعمل الناجحة دون النظر للصورة الكبرى التي تكون المشهد والتي آثر صاحبها أن يظهر الجزء الحسن منها فقط! و "بناءً على هذه التصورات يبدأ الشاب أو الفتاة في رسم صورة معينة لمفهوم (النجاح)، وفي الغالب يسعون لتحقيق هذه المعايير من أجل الشعور بنجاح أنفسهم.. لكن ما الذي يحدث للمراهق أو للشابة عندما يفشلون في النجاح وفقًا لهذه المعايير؟

في الغالب يدخلون في دائرة من اليأس، لقد فشلوا! فشلوا فيما نجح فيه الآخرين بغض النظر عن كيفية نجاحهم أو مغزى نجاحهم من الأساس.

ما الذي حدث للعالم الذي كان فيه معظم الشباب لا يسعون إلا في معايير بسيطة للنجاح في حياتهم، أما الآن فالجميع يتسابق: كلنا نريد أن نصبح مؤثرينinfluencers كلنا نلهث وراء حصد أكبر عدد من اللايكات، كلنا نجاهد في سبيل تحسين صورتنا! "

5- صعوبة إدارة الوقت؛ فالجلوس كثيرًا على تلك المواقع يسبب إدمانها للحد الذي تضحى فيه الأولوية العظمى لها بغض النظر عما قد يكون خلف من المشاغل الكثيرة، ولذلك فإن ذلك السباق المحموم بين الصفحات والحسابات للحصول على زر الإعجاب الخاص بك سببه القلق الإنساني بالسعي وراء التقدير والاهتمام لدرجة أن بعض العلماء بجامعة هارفرد أثبتوا بالفعل أن مشاركة المرء لمعلوماته الشخصية عن نفسه على السوشيال ميديا ينشط أنشطة المكافأة في الدماغ بالطريقة نفسها التي يفعلها الغذاء والجنس.

جميع هذه الأعراض المرضية مرتبطة بشكل أساسي بالفقر اللغوي الناتج عن تثبيط المراكز اللفظية في الدماغ؛ وذلك لأن الدماغ يعمل وينمو في حالته الطبيعية بالتفاعل المباشر أثناء الحياة الاجتماعية الطبيعية، وهو ما أصبح ضنينًا الآن مع تغول الأجهزة الالكترونية، واحتلالها للكثير من المساحات.

كتب ايرفنج هاو Irving Howe يقول " إن الفن يجب أن يوفر لنا الراحة من رتابة العمل دون أن يجعل العودة إلى العمل لا تطاق; وأن يمدنا بالتسلية بلا تبصر، وبالمتعة من دون قلق وهو ما يختلف عن الفن الذي يهب المتعة من خلال القلق. وهكذا تُوجه الثقافة الجماهيرية نحو جانب رئيسي من جوانب المجتمع الصناعي هو فقدان الشعور بشخصية الفرد".

يسعى الإعلام الموجه للجميع اليوم بعدما بات تجارة رابحة إلى الاستيلاء على حيوات الجميع، من خلال تقديم برامج متنوعة مثيرة طوال الوقت، ما يجعل الجميع وبقدر المستطاع يتصنم أمام شاشات مختلفة الاستخدام والاحجام حتى لا يتخلف عن الركب، وهنا تكمن المشكلة فالحصيلة

اللغوية للمرء تزيد من التعرض للحديث البشري المباشر أو من خلال القراءة، أو الابداع الكتابي مما يعنى أن مدمني الإعلام لديهم فقر لغوي حاد، وفي ذلك يقول البروفسور هوريكاوا بجامعة سان فرانسسكو- إلى أن استعداد الجيل الجديد أقل من المستوى المعياري للجامعة. ويفسر هوريكاوا ذلك بطريقة مبسطة فيقول " إن التلفزيون حل محل الأدب والتفكير، وبالتالي استطاع أن يقلص النشاط الفكري. إنه يقدم حلولًا جاهزة لجميع مشكلات الحياة[136]"

الفقر اللغوي لا تكمن إشكاليته في أن صاحبه لن يستطيع صياغة مقال عبقري مثلًا، وإنما تكمن في أن تصوراتنا للعالم تتشكل من خلال اللغة، فكلما زادت حصيلتنا اللغوية أحطنا فهمًا بالعالم المحيط بنا.

فإذا كنت تعتقد أن مواقع التواصل الاجتماعي تجعلك اكثر اجتماعية فأنت مخطئ بكل المقاييس، بل على النقيض من ذلك فهي تجعلك أكثر عزلة ،أكثر اكتئابًا، وقليل الانجاز، و تعاني من تضخم الذات والانا المفرطة .

ولذلك إن كنت عزيزي القارئ تسعي للإنجاز في حياتك ,وترنوا نحو حياه نفسية سوية ،وحياه اجتماعية صحية فيجب عليك أن تتوقف فوراً عن إدمان تلك المواقع.

---

[136] الاسلام بين الشرق والغرب، بيجوفيتش،ص2010،118)

الأفكار وقود المجتمعات

تعد الأفكار الكبرى والأيدولوجيات العظمى هي الدافع الحقيقي لتحريك الامم وصناعة الحضارات، وليست الموارد المادية ولا البشرية؛ فبدون الافكار المحركة تصبح الموارد البشرية عبء يجب التخلص منه، وتصبح الموارد الطبيعية إما معطلة عن الحركة لانشغال الناس بها، أو مادة لجلب الصراعات والحروب لتصارع الأمم على نهبها والاستيلاء عليها.

وعلى العكس عندما توجد أفكار واعدة ومستنيرة تحكم قبضتها على العقول؛ فحينها تستطيع ضبط الموارد البشرية، وتنميتها، وتحويلها إلى طاقة كبرى مستغلة للموارد من حولها فتنميها؛ وهنا تصنع الحضارات الكبرى.

وتنبع قيمة الأفكار في قدرتها على تشكيل الوعي الذي يكون قادرًا على التعاطي بصورة صحيحة مع مدركات الواقع من حوله، ويتبنى أساسًا معرفيًا قويًا يحميه من الوقوع في فخ الأفكار المميتة التي تقضي على المجتمعات، وتدفع بها نحو السقوط والانهيار.

وتنبع قوة الفكرة من قدرتها على استنهاض الضمير، والدفع به في معركة الحضارة، وتُسيره بما ينفع المجتمع، ويرتقي به في طريق التقدم بمعناه العام، لا التقدم التقني البليد وحده الذي يدمر الروح ويرهق الإنسان.

ويكون معيار نجاح الفكرة من عدمه في فاعليتها، فإذا استطاعت الفكرة تحريك قوى المجتمع الفاعلة، ونقله من حال إلى حال، واستنهاض همته، مع الحفاظ على أساس الفكرة التي قام المجتمع لأجلها في البداية؛ تيقنا أن الفكرة كانت ذا أساس قوي وصالحة في ذاتها، وقادرة إذا حملها رجال ذو عزم وقوة أن تغير حال المجتمع، و تنقله إلى مصاف الأمم.

وربما أبسط الأمثلة على ذلك رسالة الإسلام التي ما هي إلا مجموعة مبادئ قويمة حملها رجال آمنوا بها فنقلتهم من هامش الحياة إلى

مركزها، وأخرجتهم من قاع التاريخ إلى قمته، وخرجت بهم من الفيافي القاحلة إلى جوانب الأرض الأربع ببحارها وجنانها.

وما إن قل الإيمان بتلك المبادئ، أو تبدل في نفوس الرجال حتى بدأت تلك الحضارة التي أرستها المبادئ المخذولة في الانحصار والتقهقر إلى الخلف، لتعود القهقري من جديد و تنحصر الحضارة حتى أفلت، لترجع الأمة لسابق عهدها تعيش في فيافيها الواسعة لا تخرج عنها، وتتحول الأموال التي في أيديها لمادة تجلب الصراعات والحروب عليها من كل صوب، ويصبح رجالها عبء زائد تسعى الأطراف المتناحرة للتخلص منه بكل سبيل ممكن، وبكل وسيلة متاحة.

وهكذا تنتقم الأفكار المخذولة من أصحابها كما قال المفكر الجزائري مالك بن نبي[137]، فتلك الأفكار والمبادئ التي خذلها أصحابها سواء بالجهل أو الهوي أو الانشغال عنها ستنتقم منهم؛ لأن الإنسان بطبعه كائن مفكر تسيره الأفكار وتتحكم فيه، وهو إن لم يتبنى فكرة صالحة ذات مبدأ راسخ، وأساس صلب، وتحمل في ذاتها الفاعلية المحركة للأمم والناهضة بالشعوب؛ فإنه حتمًا سيتبنى فكرة أخرى فاسدة في مبدأها، واهية في أساسها، تركن به إلى الدعة، والسكون، والخمول، وحينها تكون نهايته وبداية انهياره.

وتختلف تلك الافكار المحركة للطاقات البشرية باختلاف المجتمعات، فإن الاصول الثقافية والعملية التي يتبناها المجتمع تلقي بظلالها على أفكاره، لذلك نجد المجتمعات الصناعية تتجه أفكارها المحركة للقوى المجتمعية نحو قيم مادية فردية، بعكس المجتمعات الزراعية التي تتمحور الأفكار فيها حول قيم اجتماعية يحيطها التكافل الاجتماعي.

وذلك لأن الوظيفية الدائمة التي ينتهجها المرء تلقي بظلالها حول تكوينه الشخصي، وتنحت الكثير من أخلاقياته، لتستأثر في النهاية بمخيلته، لتصبح في النهاية أفكاره، وقيمه، ومبادئه جزء لا يتجزأ من

---

[137] مالك بن نبي(1905-1973) مفكر جزائري من اعلام الفكر في القرن العشرين وهو من صك مصطلح الأفكار الميتة- الافكار المميتة – الافكار المخذولة) ويلقب بن نبي بفيلسوف الحضارة.

فلسفة الوظيفة التي يؤديها، فإن استحكمت عليه أخلاقيات الوظيفة ومبادئها يطلق عليه الانسان الوظيفي.

ويظهر هذا النمط من الناس بشكل أكبر في المجتمعات الصناعية، والادارية، لتجد الفرد من هؤلاء يتحرك في حياته خارج المصنع كآلة تنتهج نمطًا محددا في التفكير والتصرف واتخاذ القرارات بعيدا كل البعد عن التلقائية والعفوية التي تطبع الانسان وتكسبه إنسانيته، وتميزه عن غيره من الكائنات المنمطة.

ولذلك فإننا كبني البشر لا نعمل في الحقيقة كما هو دارج في الأدبيات الحديثة لإعمار الكون بالمعنى الشائع في المجتمعات الإسلامية، والذي يفهم منه الناس إنه (المبالغة في البناء والتشييد، والمفاخرة في التكنولوجيا والمعمار، وتكديس جميع وسائل الترفيه، وجعل العالم مدينة كبيرة للترفيه وتحقيق المتع على الأرض.

ذلك لأن الأرض في النهاية إلى زوال وما عليها من معمار، وقد قرن الله التشييد (المبالغة والمفاخرة في البناء) بزوال الأمم وهلاكها، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أكبر الزاهدين في متاع الدنيا لأنه ومن بعده صحابته الكرام لم يفهموا من عبارة (عمران الأرض) ما فهمه مسلمو العصر الحديث، لذلك حرق عمر بن الخطاب محاصيل المجاهدين في الشام عندما استكانوا إلى الدعة والخمول، واستقروا في الأرض ليعمروها بهذا المعنى المنتشر حاليًا بين الناس ، لأن عمارة الأرض على الحقيقة هي تحقيق العدل الإلهي على الأرض.

وعليه يختلف التصور لهدف الوجود ومن ضمنه طبيعة العمل والهدف من وراءه، حتى إن تناولنا الأمر من منظور إنساني يختلف عن الأبجديات الإسلامية لتوصلنا إلى أن هدف العمل والاعمار هو الشعور بالانتماء لهذا العالم، وهو ما قضت عليه الالة ، وحولته الفلسفة المادية لمجرد وسيلة لتحقيق ربح مادي متجاوز لأي قيمة شعورية او اخلاقية او انسانية.

تختلف الحياة الإنسانية عن الحياة البيولوجية في الجدة التي يستطيع أن يصنعها الفرد في حياته، ببصمته التي يستطيع بها تغيير الوجود الانساني إما إلى الأفضل وجعل الحياة أكثر عدلا ورحمة وتليق بالوجود الإنساني، أو تغييره إلى الأسوأ.

فالوجود الإنساني يختلف عن كل أنواع الوجود نظرًا لطبيعة الفعل البشري الغير منمط، والذي لا يسير في منحى دائري بهدف اشباع الحاجات البيولوجية وفقط، وإنما هو وجود أصيل يهدف إلى جعل الحياة في منحنى متصاعد، فإذا فقد الإنسان وظيفته في ذلك المنحى فإنه لا يستطيع بحال أن يعيش في منحنى دائري كبقية الكائنات الأخرى، لأنه سيخل حتمًا بالطبيعة والعالم من حوله وسيكون عبئًا ثقيلًا بل كائنًا مفسدًا للحياة من حوله.

وعليه فإن الإنسان ليس له خيار إلا أن يكون إنسانًا مكلفًا يسعى لإعمار العالم ولإضفاء المعنى من حوله على الحياة حسب منهج قويم.

وذلك المعنى من الحياة الإنسانية مستمد من الطبيعة البشرية لبني آدم، ذلك أن الله خلق البشر ككائنات خالدة وإن كانت تموت في تلك الحياة الأرضية فإنه موت مؤقت بعده خلود دائم، فكانت حياته على تلك الأرض مزرعة لجني زاد حياة أخرى كما قيل في الأثر (الدنيا مزرعة الآخرة) وهذا سر تميز الإنسان وفرادته، وعندما نذكر زاد الحياة الأخرى فإننا نقصد الفعل الأخلاقي الساعي للتعمير وللسمو الإنساني وليس مطلق الفعل، وهذا هو جوهر الخلاف بين الفكر المستقيم للعمران في المنهج الإسلامي المضاد لمنطق التعمير المادي البحت المتجرد عن أي أساس أخلاقي؛ فالأول يساهم في بناء الإنسان ويرفع منحنى القيمة للحياة بمعناها الشامل، والثاني يستنفذ القيمة من الحياة ويساهم في تدميرها وفنائها.

وأبسط الأمثلة على ذلك ما نراه اليوم من نتائج الحضارة الأوروبية التي اجتهدت في صنع آلات التدمير أكثر من اجتهادها في صنع الأنسان الذي هو أصل التعمير، فنتج عن ذلك بشر يسارعون في السقوط في هاوية

الانحطاط الشامل الذي تأنف منه السوائم، ووصل بهم الأمر للحد الذي جعلهم ينكرون على كل من يحافظ على قيمته الإنسانية ويتهمونه بالشذوذ والتعصب وغيرها من التهم المعلبة التي أصبحت تُلقى على كل رافض لسياسات الحياة اللاإنسانية واللاأخلاقية التي يفرضها النموذج المادي الإلحادي بكل الوسائل الممكنة.

وربما تدل احصائيات تدمير الذات بدءً من ادمان المخدرات والكحوليات والمواقع الافتراضية، وانتهاءً بقتل وتدمير النفس سواء بالانتحار أو حتى بحالات العنف المضاد تجاه الآخرين على فشل تام للمنهج المتبنى لحياة الإنسان في الواقع المعاصر، وبالرجوع للإحصائيات التي لا تكذب نجد أن المنحنى التدميري للنفس الإنسانية يتصاعد في الدول التي حققت أعلى معدلات النمو الاقتصادي، والرخاء على المستوى المعيشي ولكنها كذلك حققت أعلى معدلات الانعتاق من كافة القيم الإنسانية التي تضبط السواء النفسي للبشر عن السقوط في هوة البهيمية والانحطاط.

والعكس صحيح فنجد أن معدل تدمير الذات بأشكاله المختلفة ينخفض تمامًا في البلدان العربية والإسلامية رغم ما يحيطها من مشكلات اقتصادية وما يغلف حياة أفرادها من ضيق الحياة وشظف العيش؛ ولو كان تدمير النفس والدفع بها نحو المهالك بسبب مشكلات الحياة التي يحار الإنسان في التعامل معها لكانت النسب معكوسة، ولكن النسب صحيحة ودلالاتها مستقيمة تمامًا، وذلك لاختلاف منطق العمران الإنساني في لإسلام عن منطق العمران المادي الذي لا يولي أي قيمة أخلاقية للنفس الإنسانية.

وذلك لا يعني بالطبع أن الإنسان في المجتمع العربي في حالة من السواء النفسي والاستقرار الذهني بحيث أنه خارج إطار المشكلة، فقطعًا ليس هذا مقصدنا ولكننا هنا نحاول تشريح الإنسان في إطار الحضارة المادية الغربية، تلك الحضارة التي صدرت ثقافتها ومنتجاتها على السواء لشعوب الدنيا في ظل منهجية شاملة تستهدف قولبة كل البشر في قالب واحد؛ هو القالب الغربي للنفس البشرية، وقد فعلت ذلك بطرق شتي كما ذكرنا، ولكن ما يهمنا هنا هو تشريح نفس ذلك الإنسان المعاصر،

المغترب، المضطرب الذي يسعى لتدمير ذاته أو حتى الهروب منها ومن واقعه وحياته.

كان الأساس للنفس الإنسانية في الحضارة الغربية والتي بنت عليها احتياجاته وبالتالي سعت لإشباعها تندرج من أساس مادي بحت، فالإنسان ما هو إلا حيوان متطور انحدر من سلالة القردة العليا لا مزية له، ولا غاية مقدسة يسعى إليها، فهو كأترابه من أجناس الحيوانات المختلفة تُسيره الحاجات البدائية، وتتحكم به الغرائز الحيوانية، ومهما سعى لإثبات غير ذلك فإن هذا يرجع في نهاية المطاف للمكبوتات الغريزية التي لم يستطع ذلك الكائن البهيمي في أصله أن يعبر عنها بسبب ضغط المجتمع أو القيم اللا حقيقية التي قيد نفسه بها.

وعليه فإننا يجب أن نحرر مكبوتات ذلك الكائن المسكين حتى يعيش حياة سعيدة وهنيئة، كانت تلك نقطة الانطلاق في الحضارة الغربية الحديثة في توصيفها للإنسان، ومن ثم ترتبت على تلك البدايات مصفوفات من الأفكار والتي ترجمت إلى أفعال تجسدت على أرض الواقع .

ومن هذا المنطلق تصبح قضية ومشكلة الوجود الإنساني عملية رياضية تخضع للمنطق العقلاني في حساب الفائدة المادية لا للقيمة الإنسانية بحد ذاتها، وهو ما صدره فوكوياما في كتابه الشهير (نهاية التاريخ) حيث سينتصر النموذج الليبرالي، وتنتهي كافة الصراعات الإنسانية بعهود من الوفرة والرخاء الاقتصاديين، وبذلك تنتهي كافة مشكلات الإنسان.

وإن كان مشرحي النفس البشرية الغربيين على اختلاف مشاربهم، الذين سلبوا منها قداستها وساووا بينها وبين الحيوان بزعمهم أدركوا في نهاية المطاف أن سلوكها على ذلك النمط المادي المحض مفضي بها حتمًا للخلل النفسي و الذهني حتى يصل المجتمع في النهاية لحالة كاملة من العصاب التي تنتهي بتدميره، يقول فرويد " إذا كان لتطور الحضارة هذا التشابه بعيد الأثر مع نشوء الفرد، وإذا كانت بعض الطرق تستخدم

في كليهما، ألن يسوغ أن نشخص أن أنظمة الحضارة الكثيرة أو عهودًا منها- ومن الممكن أن نقول أن البشرية قاطبةً- قد صارت عصابية تحت ضغط الاتجاهات التمدينية [138]؟" أدرك فرويد وهو العالم الخبير أن الاتجاه الذي يصف به النفس البشرية سيفضي حتما إلى دمارها الذاتي ،ولا سيما إذا تكونت حضارة كان بناؤها هو النظر للإنسان بتلك الطريقة الحيوانية المنتزعة من أي قيمة أخلاقية، فإنها حتمًا حضارة مريضة ومهلكة لكل من سيستظل بها يومًا، ولكن فرويد رغم إدراكه هذا لم يستطع في نهاية المطاف أن يعود من حيث بدأ فيخطئ نفسه حول توصيفه للإنسان؛ بل تمادي ليتهم الإنسانية جميعها التي تصل لمرحلة متقدمة من الحضارة بأنها تعاني من عدم السواء والعصاب المجتمعي، وإن كان كلامه وبلا شك صحيح في جانب كبير وهو أنه كلما زادت الاتجاهات المدينية التي تحكم دنيا الناس، وركن البشر نحو الدعة والخمول وفقدوا وظائف الفعل، والحركة، والتدافع والتي هي الدافع الحقيقي والمولد الوحيد لحركة التاريخ كان ذلك إيذانًا ببدء النهاية.

ولكن فرويد يقول أن القوة المحركة الوحيدة للدوافع البشرية توجد في اللبيدو (الدافع الجنسي) وعليه فإن عصابات بني البشر تنشأ من كبت ذلك الدافع وهنا مكمن مشكلة الثقافة الغربية التي ترى الإنسان في بعده الجسدي وتغفل بعده الروحي، وتلتفت إلى حاجاته الفسيولوجية، وتنسى حاجاته الوجودية.

---

[138] الحضارة ومنغصاتها، فرويد، ص141

الأخلاق دليل الانسانية

وقال ابن منظور: "الخُلُق: الخليقة؛ أعني: الطبيعة، في التفريق بين الخَلْق (بفتح الخاء) والخُلق (بضمها)، وقال العلامة الراغب الأصفهاني: "والخَلْق والخُلْق في الأصل واحد كالشَّرب والشُّرب، والصَّرم والصُّرم، لكن خُصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المُدرَكة بالبصر، وخُصَّ الخُلْق بالقوى والسجايا المُدرَكة بالبصيرة"[139]

فالخُلق في العربية يعنى الطبيعة، والفطرة الخيرة التي جُبل عليها الإنسان، وفي التصور الغربي المادي الذي يرى الإنسان مدنسًا، شريرًا بطبعه، أو مادة متطورة في التصور الداروني لا يمكن أن يقيم على هذا الأساس أي اعتبار للأخلاق بمعناها الداعي للفضيلة، فالأساس الفلسفي الذي تنطلق منه التصورات الفكرية هو الذي يحكم حياة المجتمعات لاحقًا، فإن كان هذا تصورهم عن الإنسان ووصفهم له فلا يمكن أن يتوصلوا في النهاية لعالم أخلاقي يقوم على مبادئ العدل والإحسان.

فالإنسان في تصوره المادي الإلحادي ليس سوى كائن تطور من سلسلة القردة العليا، وعليه فإنه حتمًا سيتبنى قانون أمه الطبيعة ويحتكم إليه، لذلك ستكون النظرية النفعية، والفردانية، وغيرها الناتج الطبيعي، والمتوالية المنطقية لقانون الغاب.

والإنسان في التصور المسيحي الغربي باعتباره مدنس، ومحلًا للخطيئة، فهو كذلك مجبول على الشر وما دام ذلك قدر الله الذي أجراه عليه فإن التماهي مع أمر الله هو الصواب، وهذا ما دفعهم إلى الفلسفة الإلحادية باعتبار الله الذي تركهم عرضة للأذى والشر ليس جديرًا بالعبادة أو في أفضل الحالات غير موجود.

---

[139] (مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني (ص: 297)، دار القلم - سوريا.)

وهذه الفلسفة التي يفسر بها الأمر معكوسة في الحقيقة والادعاء" بأن الله يخطئ في المبالغة في تقدير قدرة البشر، وميلهم إلى الخير، وليس الغرض من المعاناة التي يذوقها البشر أن تكون عقابا من الله وانتقاما لمعصيته، وإنما العكس هو الصحيح، بان الانكماش وانسحاب الإله وترك مجال الإصلاح للبشر، نتيجته طبيعية هي خلق مساحة خارج حماية الله وخيريته، كأنها دعوة من الله للبشر للتعاون في استكمال خلق الله، وما هذه الدعوة إلا ترقية للإنسان إلى مرتبة الخالق المشارك للوجود. وإذا كان انكماش الإله وانسحابه حطم الأغلفة التي تحتوى على النور، وروح الإله، فان شظايا الأغلفة المادية تبعثرت في أنحاء الأرض، ووضعت أهل الأرض في وضع جمعها وإصلاحها، بمعنى استرجاع الشذرات الإلهية المبعثرة ورأب الصدع في توهج شامل للجميع[140] .

وفي التصور الإسلامي يعد حسن الخلق هو المرتبة العليا التي يرتقي إليها المؤمن، ومنتهاه هو أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك وصف الله النبي "بأنه على خلق عظيم" وكانت الرسالة الخاتمة للبشرية هي رسالة الأخلاق ودعمها وإرسائها، فقال عليه الصلاة والسلام " إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ و في روايةٍ (صالحَ) الأخلاقِ"[141]

. ويقول عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : " إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته " .

وفي هذا يقول ابن خلدون " إذا فسد الإنسان في قدرته على دينه وأخلاقه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخًا على الحقيقة وبهذا الاعتبار[142]"

فالذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات تحيله بالأخلاق التي هي مناط تفرده، وبها يكتسب منزلته العليا في الوجود، وبقدر ترقيه في مراتب الأخلاق ترتفع إنسانيته. وكما يقول فروم " يتم عيش الحيوان من خلال

---

[140] زيجمونت باومان وستانسواف أوبيرك، عن الله والإنسان
[141] صحيح الجامع ص2833 | أخرجه أحمد والبخاري
[142] المقدمة(1\210)

قوانين الطبيعة البيولوجية، إنه جزء من الطبيعة ولا يتجاوزها. وليس له ضمير ذو طبيعة أخلاقية[143]" فالإنسان فقط هو الذي لديه حس أخلاقي يملي عليه خياراته في الحياة.

لذلك فإن الأخلاق القويمة التي تحفظ على المجتمع قوته، وترتقي به في مدارج الرفعة الإنسانية تنبثق من الدين الصحيح ولابد، وذلك لأن الإنسان إن تُرك لعقله وهواه، فضل هواه وركن لعواطفه واستجاب لمتع الدنيا وزينتها، وحينها يضل ويهلك.

وقد رأينا أقوامًا أوردوا أنفسهم أبواب التهلكة، وخطوا بأرجلهم في الجحيم بعدما سيرتهم أهوائهم، ولم ينفعهم العقل الذي تشدقوا به طويلًا، فهوى بهم عقلهم إلى الجحيم.

ومجتمع تسيره النزعات الحسية بدعوى التعقل (وفك السحر عن العالم) حتى يستطيع أفراده التمرغ في أوحال غرائزهم؛ لهو مجتمع فقد شرطه الإنساني، وضميره الأخلاقي، ومن الطبيعي أن هذا لا يحدث إلا بأسباب قوية تتعلق بكيفية قيادة الشعوب والتحكم في الأمم.

ذلك لأن من خصائص الأمم والشعوب أنها تسير وراء قادتها، وهم في ذلك عميان عن الحقيقة ما دامت لا تضبطهم معايير أخلاقية يسيرون على هداها، ولا تستقر في نفوسهم غاية عظمية يسعون في سبيلها و تكون تصرفاتهم تبعًا لها.

فالشعوب في عامتها مجرد جماهير لها خصائصها النفسية التي تحركها، وهي كما قال غوستاف لوبون (الجمهور أنثى)، فهو صاحب تفكير عاطفي، إن أردت دعمهم فحدثهم بما يريدون، وحينها سوف يتبعونك!.

وبعدما فككت العولمة كافة المعايير الأخلاقية، والقيمية لم يعد للناس سوى المحسوسات، وهنا كان مربط الفرس، وكانت الغرائز على اختلافها ورقة الرهان الرابحة التي راهن عليها السياسيين.

---

[143] المجتمع السوي ص126

ولكن السياسة باعتبارها فن الفعل، والقدرة على المراوغة فقدت مرونتها وفاعليتها أمام تسلط السوق الذي تاجر بكل شيء بعدما أفسح السياسيون المجال للمفكرين الذين اسقطوا القداسة عن كل شيء كذلك، وكانت النتيجة المنطقية لذلك هي ضياع السياسة وتشظي المجتمع

ومجتمع تتحول كتلته الصلبة لمجرد أفراد منعتقون من أي قيمة أخلاقية يسعون خلف معاشهم باعتباره الهدف الأسمى والوحيد للحياة لهو عرضة للانهيار مع توالي خطوب الزمان، ذلك لان القاعدة الروحية والأخلاقية في أي مجتمع هي التي تتحمل الأثقال التي تنتج عن طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وعن الانتكاسات التي تصاب بها الأمة في ميادين الحياة المختلفة[144]" فالقواعد الأخلاقية المستندة إلى معايير روحية وحدها هي القادرة على حماية المجتمعات من التشظي الاجتماعي، والتفلت الخلقي، والانهيار النفسي الذي بات سمة المجتمعات الحديثة.

أما القواعد القانونية التي تم الاستعاضة بها عن القواعد الأخلاقية والتشدق الدائم بتعقدها وكثرتها وشموليتها فهي الدليل الأكبر على فساد المجتمعات وانهيارها، حيث إنه كلما تعقد النظام القانوني وكثرت فرضياته كلما دل ذلك على فشل القوانين البسيطة في قدرتها على ضبط المجتمع، وبمعنى آخر كلما دل ذلك على كثرة احتيال الناس وتفلتهم من القانون، وانهيار ضميرهم الأخلاقي.

وفي المجتمعات الغربية تفككت البنى الأخلاقية بفعل الفلسفات النفعية من جهة وسقوط الأساس الروحي من جهة أخرى، أما في المجتمعات الإسلامية فقد كان الأمر مختلف.

فقد مرت الأمة الاسلامية بعصور من الاحتلال، تلاها عصور من كفاح الخوف، فبعدما كافحت الغازي المحتل واعتقدت أخيرًا إنها وصلت بر الأمان، وفازت في المعركة فوجئت بنخب تابعة له لتدخلها في عصور أشد وطئة من تلك التي عانتها تحت يد المحتل ومع توالي عمليات الغزو

---

[144] مدخل إلى التنمية المتكاملة، ص204

الفكري الممنهج وتأميم كثير من مساحات الدين وتفكيك أخرى؛ تصدع الأساس الروحي الذي استمدت منه الأمة الإسلامية مبادئها الأخلاقية، ومع تفكيك الدولة للهياكل المجتمعية القديمة لم يعد بدًا للمرء من أن يسعى لحال سبيله لتأمين قوت يومه، فانخرط في معارك الحياة اليومية التي تسيطر عليها الدولة بمفاهيمها الغربية ليفقد ضميره الأخلاقي يوماً بعد يوم.

ولكن الكارثة كانت أشد وطئه، فالمجتمعات الغربية فقدت ضميرها الأخلاقي ولكن تحكمها شبكة قانونية قوية تحمي الضعيف في غالب الأحيان وتتكفل به دولة الرفاة، لكن في المجتمعات العربية المتأرجحة بين التحديث الذي لم تفهم منه سوى الانحلال الخلقي، وبين السلفية التي لم تفهم منها سوى المظهر المتحفظ غرقت في أوحال الفساد والانهيار الاجتماعي بالمعنى الشامل.

وأمام هجمة الأنظمة على كل حركات الاصلاح المجتمعي والديني تخوفًا من احتلالها مساحات للفعل والحركة تظن إنها من حقها، فضلًا عن التخوف من اتساع تلك المساحات لتستغل مساحات أخرى تخص حرم الأنظمة؛ فإنها في سبيل ذلك أعلنت الحرب على الجميع وبلا هوادة، فانهارت الفاعلية المجتمعية، وأصبحت كل محاولة للإصلاح مسيجة بالتهم، و تحوم حول أصحابها الكثير من علامات الاستفهام.

وصاحب تلك الأوضاع الاجتماعية المتدهورة انهيارات متتابعة للاقتصاد العالمي والذي انعكس بدوره على المجتمعات العربية مخلفًا اكبر الخسائر لينخرط الإنسان العربي الحديث في معركة يومية بحثًا عن قوته .

وهذه المعركة الضرورية لقوام الحياة في أدناها والتي يكثر فيها المنافسين في زمن تقل فيه الفرص، وتستعر فيه المعركة من أجل لقمة خبز شريفة تحوم حولها العديد من سياسات التشريط الاجتماعي والسياسي ليفوز بها في النهاية ليس مستحق الفوز، وإنما من نجح في اختبارات التشريط تلك.

ذلك الأمر الذي يودي في النهاية بالإنسان في المجتمع العربي المعاصر لولوج أي سبيل يفضي به إلى الانخراط في المنظومة القيمية في المجتمع، والتي تملي عليه أن يترك ضميره وحسه الخلقي خلف الباب إن أراد الدخول. ففي زمن كهذا تصبح لقمة الخبز تقابل القيمة الأخلاقية للفعل وربما تفوقها.

بداية وخاتمة

رفضت قريش منذ اللحظة الأولى الإيمان برسالة التوحيد، لعلمهم التام بما تقتضي هذه الكلمة من تنظيم لكافة شؤون حياتهم، وبما تتضمنه من السيطرة على كثير من المساحات التي تسيرها مصالحهم وتحكمها أهوائهم.

فلا يوجد نظام عقدي إلا وينبثق عنه نظام تشريعي ينظم لمعتنقيه كافة سبل حياتهم ويحكم معاشهم.

وبهذه الرؤية يصبح الدين من إحدى الزوايا ذا مستويين من الدلالة:

– مستوى أوسع: وهو المتضمن للفلسفة الكلية والرؤية الوجودية وغايتها التوحيد.

– مستوى أضيق: وهو المتضمن للجانب النظري، والمتعلق أساساً بتطبيق الفلسفة الكلية للتوحيد، وما يقتضي ذلك من تّحكم الرؤية الإسلامية في كافة جوانب الحياة، باعتبار الإسلام منهجا تشريعيا متحكما في حياة المسلم ككل.(قراءات في افكار اسلامية معاصرة، هبه رءوف عزت)

وبهذه الرؤية يصبح الإسلام محتلاً لكل المساحات، ليست في حياة المسلم ووجدانه فحسب، وإنما باعتباره نظاماً شمولياً يصيغ حياة المجتمعات المنطوية تحت لوائه من كافة الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولذلك يعتبر المسلمون القرون الثلاثة الأولى غاية التاريخ، والتي يجب على المسلمين في كل زمان ومكان الاقتداء بها، ومحاولة تجسيدها، وتكون الغاية العظمى في محاولة التشبه بها والرجوع إليها، باعتبارها وريثة عصر النبوة، ومعياراً للرشد والصلاح.

وإن كان علماء السنة يعرفون الخلافة بأنها (حراسة الدين وسياسة الدنيا)، إلا أنه بانصرام العقود الثلاث الأولى تغيرت المنظومة الراشدة

في الحكم، تغيراً جوهرياً اعتبره الفقهاء (حالة ضرورة) مؤقتة ستنجلي عما قريب!! إلا أنها ظلت رغم ذلك إلى القرن التاسع على ما بها من عوار يُفقد المنظومة السياسية شرعيتها وقيمتها.

وبحلول القرن العاشر حدثت هجرات عديدة إلى قلب العالم المتحضر، حملت معها من ضمن ما حملت بذور العصبية القبلية، وتقاليد الجاهلية الوثنية، مما كان له أكبر الأثر في تغير النظم السياسية القائمة على أحكام الشريعة.(الفكر العربي في عصر النهضة، البرت حوراني)

وبتولي الدولة العثمانية قيادة العالم الإسلامي وباعتبارها دولة عسكرية صوفية سيطرت على مراكز العالم السني، وساعية لإثبات قدرتها على حكمه وإدارته، سعت في بداية عهدها إلى ضبطه وتطويعه، فعسكرت البلاد، وقننت الشريعة، وقسمت الأمة بين عسكر ورعايا وعرب، مما كان له أكبر الأثر فيما بعد لتدهور البلاد.

وبتدهور الحال في نهاية حكم الدولة العثمانية، وما نشأ عن ذلك من احتلال لأغلب ديار الإسلام، جاءت إلينا النظم التحديثية وكان على رأسها نظامي الحكم والفكر.

وكأي أمة منهزمة تنظر إلى عدوها كتجسيد للكمال المطلق كما قال ابن خلدون (المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله و عوائده)، تلقفت أيدينا قبل عقولنا النظام الجديد بالقهر تارة، وبالانهزام النفسي تارة، وبالجهل تارة أخرى.

وجاءت إلينا الدولة الحديثة وككل قريش كان هدفها الأوحد السيطرة على كل المساحات التي يحتلها الإسلام، فكانت البداية باحتلال المفاهيم، وتأميم المصطلحات ففيها تكمن فلسفة الأمة، وتصوراتها وقيمها، وبذلك اغتصبت الدولة الحديثة التطبيق على الأرض، فالفكر يسبق الفعل، وباحتلال عقلك وفكرك يُقاد جسدك حسبما تمت برمجته، وهنيئاً لك فقد تم تحديث النظام بنجاح وهو مستعد دائماً لتنفيذ ما يؤمر به!!

وعليه بدأت الدولة بتغيير الطبائع الاجتماعية، والمفاهيم الفكرية لدى المجتمع وفق قواعد محددة، تمتلك هي الحق الحصري لتحديدها، ومن ضمن هذه المفاهيم مفهوم (صحيح الدين)، ذلك المفهوم الذي يتم صياغته وفقا لمصالحها، وعليه فهو متغير دائماً، ويعاني من السيولة وعدم الثبات كما لم يكن من قبل.

وكما يقول كارل شميت (بأن كل المفاهيم المهمة في الدولة الحديثة ما هي الا مفاهيم لاهوتية معلمنة ليس بسبب تطورها التاريخي فحسب وإنما بسبب بنيتها التنظيمية كذلك)، فقد سعت الدولة الحديثة باعتبارها منظومة فكرية قبل أن تكون أداه حكم سياسية إلى تغيير مفهوم الدين,، وامتلاك الحق الحصري لتأويله وتفسيره من قبل مؤسساتها الرسمية، وهي كذلك محتكرة بالتبعية ما يشمله الدين من أفكار، باعتباره مفهوماً مركزياً يحوي جملة مفاهيم تصوغ تصورات الناس و تشكل حياتهم.

وعليه تأتي المرحلة الأهم والتي جاءت في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، في محاولة لجعل الدين متوافقا مع (صحيح الإسلام المعتدل) الذي يتبناه الغرب الأمريكي، ولتجفيف المنابع الفكرية لما يسمى الإرهاب والأصولية، وعليه تم تقسيم الدين إلى ما هو خارج الدين أصلاً تحت مسمى (أنتم أعلم بشئون دنياكم)، وما تبقى منه تم احتكاره بالكلية وفق رؤى علمانية بدعوى التجديد والإسلام الوسطي المعتدل.

وبانفصال الضمير المسلم عن الواقع المعاصر، بانفصال السلطة الدينية عن السلطة الزمنية، والتي هي ذات المشكلة التي عانى منها الغرب في سياق تاريخي مختلف، أضحى المسلم المعاصر فاقدًا للوجهة، خاوي الفكر، أوشك أن يفقد البقية الباقية من ضميره الأخلاقي، بعدما شُوه معتقده الديني مع سبق الإصرار.

.

لتأتي مرحلة تالية بعدما تفككت الروابط العقدية ليتم تفكيك الروابط المجتمعية، فقد

تميز المجتمع المسلم منذ نشأ بقوته، واعتمدت الأمة المسلمة على نفسها في تسيير شئون حياتها، ولم تكن للدولة كمؤسسة حاكمة سوى عدد محدود من الوظائف، وترتب على ذلك نتيجة مفادها؛ أن الدولة في حال قوتها وسطوتها ترتقي بالمجتمع وتزيده قوة إلى قوتهِ، وفي حال ضعفها وذبولها فإن تأثير ذلك على المجتمع يكون محدوداً، ولا يؤدي انهيارها كنظام حكم في نهاية المطاف إلى سقوط المجتمع بكليته، ودمار بناه المجتمعية والمؤسسية كما يحدث في ظل الدولة الويستيفالية.

هناك أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي توضح كيف كان المجتمع المسلم يتمتع بقوة حضارية تجعله يأسر عدوه حتى بعد انهيار القوة العسكرية للدولة وسقوط نظام الحكم كما حدث مع المغول في الشرق الإسلامي، والنورمان في صقلية، والصليبين في الشام، والإسبان في الأندلس.(النثار، محمد إلهامي)

كما أن هناك أمثلة أكثر توضح المفارقة بين المجتمع المسلم في ظل النظام الإسلامي وفي ظل الدولة الحديثة والتي قضت على نحبهِ، وجعلته في مهب الريح لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً. الأمثلة على ذلك المجتمع المصري في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر والذي ظل مستبيحاً للديار قرابة الثمانون عامًا، وقبلها بأقل من قرن عندما هزم الجيش الفرنسي هزيمة نكراء بصدوره العالية بعدما سقطت دولة المماليك!

توضح المقارنة البسيطة كيف بقي المجتمع قويًا متماسكًا يولد من رحم المحنة ألف منحة حتى بعد دمار الدولة و انهيار نظام الحكم.

وكيف كان هذا المجتمع يتمتع بفيض من القوة العسكرية، والتنظيمية ما جعلته يهزم أقوى جيوش العالم قوة، وأكثرها فتكًا، وأحدثها تنظيمًا، وأكثرها عتاداً في ذلك الوقت.

وكيف لذات المجتمع، ولنفس الشعب أن يتحول لريشة في مهب الريح تستباح أرضه، وتسفك دمائه، وتنهب ثرواته ولا يحرك ساكناً!!

يقول علماء الاجتماع إن أفضل الدول على الإطلاق هي التي تتمتع بمجتمعات قوية وحية في آن واحد، ومن أكثر ما حافظ على حيوية وقوة المجتمع المسلم كان نظام الوقف الإسلامي.

يقول الدكتور إبراهيم غانم في كتابه (الأوقاف والسياسة والمجتمع في مصر) إن من أهم سمات الاوقاف في مصر؛ إنها ساهمت في تكوين النسق الاجتماعي بما يحتويه من أنساق فردية.

فكان نظام الوقف في مصر، وككل مجتمع إسلامي يشكل البنى المجتمعية من خلال السيطرة على مفاصل المجتمع، وتلبية احتياجاته بمعزل عن سلطة الدولة، فإذا سقطت الدولة لم يكن المجتمع ليسقط لأن تدبير معاشه بيده.

و كان نظام الوقف يتحكم في التعليم (كما في غيره)، من خلال إنفاقه على الكتاتيب والمدارس والعلماء، فكانت كلمة العالم من رأسهِ لأن قوته لم يكن من جهة السلطة، وكان قرار التلميذ بيده لأنه لا يخشى فصلًا أو تهديدًا.

وكان التعليم مرنًا يلبي الاحتياجات الفكرية للمجتمع، لا نظامًا جامدًا تفرضه سلطة، وتغيره أخرى بما يحقق مصالحها.

وكالتعليم كانت مؤسسات الدولة الأخرى جميعها في أيدي المجتمع مما يحقق توازن للقوى بين الدولة كسلطة، في يدها بعض الوظائف، وبين المجتمع كسلطة موازية في يده بقيتها، فلا تتغول إحداها على الأخرى.

وانتهت أنظمة الوقف بسلطة لامركزية، فلم يتركز الوقف في أيدي فئة معينة أو إدارة واحدة، كما يحدث لمؤسسات المجتمع الحديث فإذا عطبت وأصابها الفساد هلك الحرث والنسل.

وكما تحلت إدارة الوقف باللامركزية تحلت كذلك ببعدها عن معترك السياسية، فلم يستطع الملوك والحكام بسط سيطرتهم على نظام الوقف، وكل محاولة في هذا الاتجاه باءت بالفشل، وتصدى لها العلماء ومن وراءهم المجتمع، كما حدث في عهد الظاهر بيبرس إذ حاول السيطرة

على بعض الوقف لتدعيم الجيوش في مواجهة المغول والصليبين فتصدى له العلماء وعلى رأسهم الإمام النووي، و لاحقاً في عهد الظاهر برقوق فتصدى له سراج الدين البلقيني وبرهان الدين بن جماعة وغيرهم من العلماء.

وكان ما يسمى الاقتصاد الأخلاقي\التراحمي قبل قيام الدولة الحديثة، يحافظ على بنى المجتمعات، ويحفظ الروابط البشرية، وينمى قدرة المجتمعات على تدبر أمورها، وسياسة بلدانها.

جاءت الدولة الحديثة في الشرق على يد محمد علي ليس كنظام حكم يلائم طبيعة المجتمع الذي سيحكمه، وإنما كإرث للنظام الأوروبي الغربي.

ولأنها كانت غريبة عن المجتمع، فقد وجدت معارضة لها من اليوم الأول، ولذلك أرادت أن تثبت أقدامها فتغولت على المجتمع، وانتزعت كافة السلطات من يده بالقوة، وسعت للتدخل في أدق تفاصيل أوجه الحياه البشرية، التي كانت في السابق تحت إدارة المجتمع.

أدى ذلك في نهاية المطاف إلى النتيجة المحتمة؛ في المجتمعات العربية، كما في المجتمعات الأوروبية، إلى تفكيك القوى المتوسطة، وتدمير البنى المحلية، وتفكيك الروابط الإنسانية، وصناعة المواطن المستهلك ابن السوق.

ومع نمو الحوكمة وفشل الدولة في مهمتها الرئيسية، وتخليها عن السياسة تركت المواطن الذي صنعته ضحية بائسة لقوى السوق، ولم تعد هناك قوى مجتمعية قادرة على انتشال هذا المواطن البائس، لأن الجميع في النهاية ليسوا سوى مواطنين أو مستهلكين!!

يقول عالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومن (لا تستطيع الأسواق الحديثة تقبل وجود "اقتصاد لا سوقي" أو تحمل أي نوع من الحياة التي تعيد إنتاج ذاتها دون أن ينتقل النقد من يد إلى أخرى).

وعليه أصبح الإنسان في ظل المجتمع الحديث السائل مجرد سلعة تحقق زيادة في إجمالي الناتج القومي GNP ليس إلا.

ولذلك يتم غزو المجموعات البشرية بكل ما تحمله الكلمة من معنى للغزو، وتدمير بناها حتى يظل المواطن المستهلك في حالة من عدم اليقين، وبالتالي يظل دائمًا تحت قيادة السوق، وقيمه، ومنتجاته.

لم يعد ينظر للإنسان كما في السابق على أنه خليفة الله في أرضه، يسعى لعمارة الأرض، ويسعى لخدمة المجتمع، ويحافظ على قيمه وتقاليده، بل أصبح كمحور للتسليع، وكمادة لتشغيل حركة السوق، وكمنتج اقتصادي في المقام الأول، أهميته لم تعد تتوقف على ما يضيفه لبني جنسه من خير ونفع في مناحي الحياة المختلفة.

ففي ظل اقتصاد السوق قيم كالخير، والعدل، والتراحم، والتكافل، وغيرها لم يعد لها معنى كالسابق، فالسوق الآن يدرب عملاءه على قياس القيم بالعملات، ولعل ذلك يجعلنا نفهم أكثر لماذا هذا السعار المحموم نحو ترسيخ ثقافة ريادة الأعمال باعتبارها النجاح الأسمى في مجتمعاتنا!!

نجح السوق في تسليع الإنسان كما سلع من قبل القيم والأخلاق، و فشل المجتمع الحديث في الحفاظ على روابطه الإنسانية، وحماية أفراده من الانجراف لقوّاد السوق.

يصف زيجمونت باومن حالة مجتمعنا الراهن بأنه "أزمة الأزمة" التي لن نخرج منها أبدا ما دمنا نخضع لمبادئ السوق، فهل ثمة عاقلون في مجتمعنا الراهن يحاولون إعادة الروابط الإنسانية ويحيون قوى المجتمعات بعيداً عن نمط المؤسسية التي أهلكتها قيم الحداثة.

وإن كانت النهضة الأوربية قد قامت على أفكار فلسفية، تحولت إلى أُسس سياسية واقتصادية، صاغت لهم واقعهم الاجتماعي القائم على أسس مادية بحتة، وكان هذا الواقع الذي أُنتج، نتاج لتجربة تاريخية لها سياق جغرافي محدد، فإن من أكبر المصائب تصدير نتائج تلك التجربة إلى واقع مختلف عنها تمامًا، وزرعه فيها بالقهر والعنف

وكما دخل العرب التاريخ بدخولهم الإسلام، وأصبحوا مؤثرين في سير الأحداث العالمية منذ البعثة المحمدية، وتفاوت ذلك التأثير تبعاً لتأثرهم بالإسلام، وتأثيره في تركيبتهم الفكرية، وانعكاساته على واقعهم المجتمعي، فإن عودة المسلمين إلى قيادة العالم منوط بعودتهم للدين، باعتباره إطارًا جامعًا لشؤون الدنيا، وكرؤية مقاصدية للحياة بأسرها.

الفصل الرابع

الإنسان في بعده النفسي

"إن قضيتي الوحيدة هي أن اجوب شوارع أثينا لأقنع الناس جميعا سواء كانوا شبابا أم شيوخًا بألا تولعوا بالجسم ولعكم بالنفس سعيًا على جعلها خيرة ما استطعتم"

سقراط

خديعة الفردوس الأرضي

شاع في بدايات القرن العشرين ومع تنامي الثروات في الجزء الأعلى من العالم، وزيادة وتيرة التقدم المتسارعة أن العصر الذهبي للبشرية قد آن له أن يأتي؛ فقد تقلصت الحروب إلي حدها الأدنى بعد الحربين العالميتين، وزاد التقدم في المجال الطبي، وأصبحنا قادرين على علاج الكثير من الأمراض والأوبئة التي كانت تعصف بالبشرية وتهلكها في العصور الغابرة، واستطاعت الدول أن توفر وظائف ذات أجور عادلة للمواطنين مع حزمة متكاملة من الخدمات الاجتماعية لتصل في النهاية رسالة لطيفة مفادها أن:

عصر الأمان الحقيقي قد أتى، وأن حلم الفردوس ليس خاصًا بالحياة الآخرة، بل هو قابل للتحقيق في تلك الدنيا الفانية؛ وعليه فإن هذا الفردوس المزعوم ليس هو جائزة المؤمنين المتقيين الملتزمين بالمثل العليا والأخلاق الفاضلة المتبعين لتعاليم الإله، و المتجنبون لنواهيه كما شاع في العصور الغابرة؛ بل هو جائزة المواطن الصالح الساعي خلف رزقه، والذي يسلك كافة السبل، وحسبما تقتضي الحاجة ليستطيع تحقيق جنته الأرضية، وفردوسِه المثالي كما ينبغي.

كانت هذه الرسالة المبطنة التي انتقلت من الغرب إلى الشرق مع دخول عملية التحديث لدول الشرق مع مطلع القرن العشرين، ولا سيما مع اكتشاف الثروات النفطية في دول الخليج وما حدث بعدها من الزحف المقدس من بلدان مختلفة نحو تلك الدول لجني الثروات، وتحقيق الأحلام التي لم يستطع المرء أن يحققها في بلاده.

ولأن تلك الثقافة الفردوسية قد رُسخت في الأذهان طبقًا لأيدولوجية متكاملة صاغتها أحلام الحداثة، وحققت بالفعل شطرًا كبيرًا منها على أرض الواقع؛ فقد تشكل إنسان العصر الحديث -ليس في الغرب وحسب وإنما في الشرق كذلك- صاحب أماني عليا وطموحات كبرى، يرنو نحو الكمال ويعتقد فيه .

ذلك الكمال الذي تمخض عنه أمرين :

أولهما: تصوير السعادة على إنها تحقيق كامل لكافة ما يأمل فيه المرء وتطمح إليه نفسه

ثانيهما: أن من حق كل إنسان أن يكون سعيدًا.

وطبقًا لهذين الأمرين قامت منظومة متكاملة سميت بدولة الرفاة، تكفلت بتحقيق سعادة الإنسان وتكفلت به منذ الولادة وحتى الوفاة، تلك الاعتمادية الكاملة التي عاشها الإنسان في فترة ما جعلته يفقد القدرة ذاتيًا على تحمل المسؤولية تجاه أخص خصائص حياته، فما دامت الدولة هي المسؤولة عن الفكر(التعليم+ الإعلام+ الدين إلخ)، وهي كذلك مسؤولة عن الأمن(الحرب +السلم في الداخل والخارج)، ومسؤولة عن الإنسان (هيكلة العلاقات الاجتماعية+ الصحة+ الغذاء) فلماذا يتحمل أيا منا مسؤولية أي شيء.

ذلك الاعتماد الطفولي الآمن افقدنا بقدر كبير مهاراتنا الأساسية في الفعل والفكر، وجعلنا أكثر هشاشة مع توقعات كبرى لما من المفترض أن تعطيه لنا الحياة؛ فالحياة أصبحت مدينة لنا بالكثير لأننا من المفترض أقوى الكائنات التي استطاعت التحكم في الطبيعة حتى بتنا أسيادها الذين لا نقهر!

فكيف لا يستطيع السيد إذا أن لا يحصل على ما يريد؟!

فارتفع سقف توقعاتنا كثيرًا، وأصبح المعنى الغائي من الحياة هو تحقيق الفردوس الأخروي على دنيا الأرض الفانية، وغفلنا عن أن معنى الدنيا

مترسخ في معنى الكلمة ومفهومها، فالدني الخفيض لا يمكن أن يتحقق فيه أي فردوس رفيع!

ومع كثرة التوقعات التي تم غرسها في عقولنا منذ الصغر، ثم رعايتها والاهتمام بها وتفريخها مع الوقت، ولد لدى إنسان العصر الحديث سخطًا لا ينتهي بما يملك ويحوز، ليصبح مستوى السعادة لديه مصمم على مقياس محدد، لا ما يشعر به حقًا.

ففي زمن الإنسان\الآلة تم السطو على جميع المساحات التي يحتلها الإنسان حتى تلك التي من أخص خصائصه لتصبح المشاعر على اختلاف أنواعها مجرد نوع من أنواع الموضة\ التقليد، وفي سياق آخر تصبح مادة للاستهلاك والتسليع.

فتتحول تلك المشاعر ومصدرها النفس إلى مادة للعبث؛ لتخضع في النهاية للتشكيل، ومن ثم التصنيع، وتدخل مصنع الرأسمالية المتوحشة لتخرج للعالم الخارجي في صورة سلعة نهاية الأمر، وككل السلع الاستهلاكية يتم عرضها لمصممي السوق كي يجملوها ويجعلوها صالحة للاستهلاك في مجتمع لا إنساني بامتياز.

لذلك يكثر الطلب في الآونة الأخيرة على منتجات النفس وتتنوع سلعها، ولكل منها تاريخ صلاحية محدد ما إن ينتهي حتى يفاجئك السوق بمنتج آخر أقوى مفعولًا وأكبر أثرًا.

فبدأ الأمر بسوق التنمية البشرية الذي روج على مدار عقد من الزمن للإنسان القائد، الملهم، والذي يستطيع الوصول لما يريد، الممتلك لزمام حياته والمحقق لذاته في لعبة نفسية واضحة تستهدف العلب على وتيرة إنكار الواقع، ورفض مسؤولية تغييره، ففي الحقيقة لو امتلك أي من مستهلكي سوق التنمية البشرية صدق مع الذات، ولحظة توقف للسؤال عن مدى امتلاكهم لزمام حياتهم، ومتى كانوا يومًا ما قادة لحياتهم لصعقتهم الإجابة!، ولكنها فلسفة السوق أولًا وأخيرًا، القائمة على نشر المرض، ومن ثم تقديم المسكنات له.

وبعدما أخفق سوق التنمية الذاتية، ظهر سوق الصحة النفسية ليعالج شطرًا من مخلفات سوق التنمية الذاتية، ويستهدف عملاء جدد لم يستطع المنتج القديم استهدافهم، فما ألطف من أن تعلب على وتيرة النفس وصحتها في عالم فقد فيه الإنسان الإحساس بذاته، بينما نسي آخرون أن لديهم بقايا نفس، وأنهم ولدوا من دم ولحم، يستحقوا أن يعاملوا كأناس مكرمون لا كآلات عمل مفرغة من كل قيمة بشرية.

نجحت آلة الرأسمالية في نشر سوق الصحة النفسية والعلاج النفسي وأترابه في بقاع واسعة من الأرض، وكانت نسبة الأرباح عالية بعدما انخرطت شركات الدواء في تصنيع العلاجات الكيمائية، ولكي ينشط الطلب على مثبطات السير وتونين، و النورإبينفرين، وال دوبامين ولكي لا تركد البضائع تم تعديل دليل الجمعية الأمريكية للطب النفسي لتصبح أمراض كالاكتئاب وغيرها من الاختلالات النفسية مرنة، ولا تمتلك تعريفًا واضحًا، ولا أعراضًا محددة لتفتح الباب أمام سماسرة النفس ليعبثوا بها كيف شاءوا وأنى أرادوا.

لذلك تتسع فوضى التشخيصات، ويلتهم سوق المرض كثيرًا من النفوس العطشى لأي علاج عن أمراض لا تدري عنها شيئًا، سوى إنها تعاني من الاضطراب وعدم السواء، فتسقط صريعة المزيد والمزيد من الاعلانات التي تبشر بقدوم آمال جديدة في حياة صحية أفضل ليكتشفوا أنهم ضللوا "فهذا إيفان إليش يؤكد أن أغلب الأعراض التي تستدعي علاجا طبيا في الوقت الراهن إنما هي أمراض علاجية، أي أمراض تسببت فيها علاجات سابقة "نفايات الصناعة الطبية اذا جاز التعبير[145]"

فالصناعة الطبية والعلاجية ليس هدفها انتشال المرضى من براثن الداء، ولا تقليل مساحة المرض كما كان الأمر في العصور الغابرة، وإنما هدفها مثل أهداف جل من ينخرط في فلسفة الواقع الحديث؛ ألا هو الربح المادي المتجرد من أي قيمة أخلاقية أو انسانية.

---

[145] الحياة السائلة ،ص113

لذلك "ستبذل مصانع الأدوية قصارى جهدها لتضليلك. فمن ضمن خططها كسب المال وتوسيع رقعة أسواقها، وسوف تفعل كل ما بوسعها لكسب عملاء جدد. تُغرم شركات الأدوية باستمرار بسبب نقل معلومات خاطئة بلا ضمير للمستهلكين والأطباء، لكنهم يستمرون بفعلها لأنها مريحة للغاية. كن حذرا بشكل خاص من إعلانات الأدوية المبتكرة خصيصا لأجل تسويق منتج عن طريق التوسع في التشخيص[146]"

ذلك الصراع المحموم حول تجارة الدواء، وغيرها يغديه العطش الدائم نحو الأمن، فبقدر ما حصل الإنسان الحديث من متع ظاهرية، وبقدر ما كدس من نفايات مادية؛ يبقى دائمًا وأبدًا في حالة غربة موحشة مع الذات، تلك الذات التي أصبحت في عالم لا إنساني تعاني من الخوف والخواء.

---

[146] انقاذا للسواء –الان فرانس

تجارة الخوف

وفي ظل هذا الخواء والغربة ، وعدم الأمان تصبح تجارة الخوف من أكثر التجارات ربحًا وأشدها رواجًا، وقد لا يكون السبب الحقيقي لذلك الخوف تحققه المادي الفعلي، وإنما هو الخوف الكامن في النفس البشرية من الأخطار غير المرئية، ومن السوء المتوقع من البشر، ومن فلسفة نفعية تحكم خيال المرء فتجعله يشعر بعيون مترصدة له ولكنه لا يراها أبدًا.

ففي حياة يفتقد فيها المرء اليقين بمعناه الشامل تجعلها حياة غير آمنة ومحفوفة بمخاطر تحاصره أينما ذهب؛ وهي ليست مخاطر الأشخاص الذين يُنظر إليهم كمنافسين أحيانًا، وكأعداء أحيانًا أخرى، وليست مخاطر الطبيعة التي أعمل معول الهدم فيها منذ زمن تسيده عليها كما أدعى، وليست مخاطر نظام عالمي أنشأه على شلالات دماء لم ير التاريخ مثلها ليعلن في النهاية إنه قد أتى لأجل السلام الشامل!، وإنما هو غياب الأمان الروحي الكامن في نفس ذلك الإنسان الذي ادعى سيطرته على كل شيء ليجد في النهاية نفسه بالمغترب عن كل شيء حتى ذاته التي بين جنبيه!.

ولأجل ذلك الخوف المستشري بين أوصاله حاول دفعه بكل الطرق التي فطن إليها، أو حتى بطرق لا شعورية لم يتفطن هو إليها، وفي مجتمع سيطر عليه الخوف سترى حتمًا جميع تمظهرت ذلك الخوف المادي تحيطك أينما ذهبت، بدءً من المدن المغلقة كالجيتوات [147] والمتحصن أفرادها بداخلها في مظهر مضاد لفلسفة الاجتماع الإنساني، مروراً

[147] (هذا الوصف ذكره باومن في تشبيه للمدن الحديثة المغلقة)

بالتطور المذهل في اختراعات الأمن والسلامة ونمو شركات الحراسات حتى تحولت لجيوش من المرتزقة ينمو ربحها على خوف الناس ورعب الأنظمة، فكما يقال الحاجة أم الاختراع.

ويسري الخوف ليسكن عميقًا في النفس الإنسانية فتحيطها كل الشكوك في نفسها وفي جنسها، ويصبح الانخراط في العلاقات مغامرة غير مأمونة العواقب لأن" الخوف الذي تثيره العلاقات الإنسانية في عصرنا هذا قوي لدرجة أن الجمود و الموت العقلي غالبًا ما يبدو أكثر جاذبية من اليقظة العقلية والحياة"[148].

وطبقًا لذلك تتحول مفاهيم (الحب\ المودة) إلى (الرغبة\ المنفعة)، فيتجرد الحب من قيمته السامية التي تحمل معاني قيمية وإنسانية من التضحية لأجل من تحب، وبذل نفسك لإسعاده، وبناء مجتمع تسمو فيه قيم المودة والرحمة والسكن والطمأنينة إلى المعنى الحسي المجرد في (الرغبة\الجنس).

وهنا تتحول معه المودة من معنى يحمل أساس المجتمع الإنساني الصلب باعتباره أساس التكافل المجتمعي في الشدائد والنوازل، ومصدر لحمته وترابطه في أوقات اليسر، إلى المنفعة التي يتحول فيها كل شيء بما فيها الإنسان لمصدر للاستغلال المادي والمعنوي، لذلك مجتمع كهذا لا تمتد فيه أواصر للقربى ، ولا تدوم فيه علاقة للأسرة لأن " الحب بطبيعته يسعى لإدامة الرغبة، وأما الرغبة بطبيعتها فتهرب من قيود الحب"[149]، كل هذه المعاني تنعكس بدورها على النفس البشرية لتمتص أمانها الداخلي لتسعي بدورها إلى محاوطة تلك النفس الهشة والمهترئة بأدوات الحماية المادية كافة بعدما أنكرت الجوانب المعنوية، لتستحيل الحياة بعد ذلك لسعي حثيث لسرقة أمان مفقود صعب الحصول عليه كسلعة في سوق الاستهلاك.

---

[148] اغتصاب العقل ص243

[149] حياة بلا روابط، ص44

لذلك فإننا الأجيال الوحيدة التي تعيش على سرقة أحلام وأموال الأجيال المستقبلية عبر العيش في دوامة من الديون التي لا تنتهي، تلك الديون التي نحاول بها سرقة أي شيء عله يمنحنا أمان كاذب ويغرقنا في واقع أفضل.

وتعد الولايات المتحدة الأمريكية أكثر المدينين في العالم، ليس على مستوى الحكومة فحسب؛ إذ يبلغ الدين الحكومي رقم أكبر بكثير من أي رقم مسجل لأكثر الدول اقتراضًا ومديونية، ولكن على سبيل الأفراد كذلك.

ولا يقترض الأفراد في تلك الدول لسد عجز الاحتياجات الأساسية أو المعاناة أو الفقر كما هي الفلسفة المنطقية التي تضطر المرء إلى الاقتراض بعدما تغلق في وجهه الأبواب وتضيق به السبل، فكما ورد عندنا في الأثر" - إيَّاكُم والدَّيْنَ؛ فإنَّهُ هَمٌّ باللَّيلِ، ومذلَّةٌ بالنَّهارِ."، والعاقل من لا يشتري الآجل بالعاجل، ولا يضيع مستقبله بلذة آنية لا تستمر سوى لحظات أو حتى أيام معدودة، ولا يعلق في رقبته ديون يعمل بسببها جل وقته ويهمل عائلته، ويضيع أسرته، ويفقد عمره في سبيل تفريغ كل ما على الأرفف في عربات التسوق ثم في صناديق القمامة!.

فقد بلغ معدل عمل الأمريكيين نسبة مرتفعة بالنسبة لشعوب العالم المتحضر لتصل إلى نسبة أقل بقليل من اليابانيين، واليابانيون لا يعملون لسد فوائد الديون المقترضة على سلعهم الاستهلاكية، وإنما بسبب ترسخ ثقافة العمل المفرط عندهم التي تعطيهم معنًا لحياتهم.

ولكن في الغرب يكمن السبب الحقيقي للاقتراض للأسف في ثقافة شراء المستقبل والتمتع به على حساب الحاضر والأجيال اللاحقة، وتعد تلك الثقافة متأصلة في الشعب الأمريكي أكثر من الأوروبي، لذلك بلغ مجموع الدين لكافة الأسر الأمريكية عام 1997حوالي 89% من دخل الأسر، هذا الرقم الذي ارتفع نسبيًا وبرزت تداعياته إبان الأزمة المالية العالمية2007-2008.

إن ثقافة التمتع الآني في اللحظة والحال وعلى حساب كل الاعتبارات المنطقية وحتى الأخلاقية ولدتها فلسفتا النفعية والفردية، كلتا الفلسفتين اللتين تجذرا عميقًا في الوعي الغربي، وفي القلب منه الوعي الأمريكي.

وبالرغم من عدم منطقية ادمان الاستهلاك والاقتراض المرهق في سبيل سلع استهلاكية ترفيهية تدوم حتى وقت اصدار شبيهتها ذات الإصدار الأحدث، لتتحول إلى نفايات يجب التخلص منها، وإلا تصبح جالبة للعار، وللنقص الاجتماعي، فإن هذا التصرف في السياق الاقتصادي الاستهلاكي منطقي جدًا!

فقوام الاقتصاد الاستهلاكي وكلمة السر التي تحركه هي السرعة: سرعة البيع، وسرعة الاستخدام، وسرعة التخلص؛ لتعاد الكرة مرة أخرى وتستمر ديمومة النظام بشكل مطرد، وفي سبيل ذلك يجب أن يسلك القائمين على ذلك الاقتصاد كل السبل لديمومة العملية أيًا كانت النتائج التي من الممكن أن تتمخض عنها.

فالاقتصاد الاستهلاكي وكغيره من الاقتصاديات التي تسيطر علي مجتمع ما تعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية لذلك المجتمع، وفي القلب من كل ذلك تعيد صنع هوية جديدة، ونمط مختلف مسيطر على الأفراد الذين يعيشون في ذلك المجتمع.

ونمط الإنسان الذي يعيش في ظل مجتمع استهلاكي يشبه كثيرًا إدوارد في فيلم Fight Club، فهو دومًا يتصفح المجلات لا لشراء حاجاته التي يريد استخدامها بالفعل، أو تقوم عليها حياته وإنما لكي يعبر "عن ذاته وهويته بالشراء، ويرى أن الإنسان يجب أن يصبح عبدًا للمظاهر" تلك هي خلاصة قصة الفرد في المجتمع الاستهلاكي باختصار تعبر عنها كلمتان مفتاحيتان (الهوية –المظاهر).

ففي مجتمع أطلق عليه عالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومن (المجتمع الحديث السائل) أي المجتمع الذي فقد فيه المقومات الصلبة

التي هي قوام المجتمعات ومصدر قوتها وبقائها، وتتمثل تلك المقومات في الأسس الأخلاقية والروحية، والمبادئ الاجتماعية و الأسرية، التي تحكم سير الحياة وتنظمها عبر اليقين الكامن في روح الجماعة الذي يوفر الأمان الوجودي للإنسان، و يضمن له الاستقرار العاطفي، ويحفظ على الأسرة بقائها وتماسكها وولاء أفرادها، والذين بهم يكون المستقبل أرحب، وأكثر اشراقًا على عكس المجتمع الاستهلاكي المتمركز حول اللذة العابرة، والذي لا تحكمه قيم ولا تحده تقاليد، ففيه الأسرة مفككة، وأفرادها كل منهم يبحث عن حال سبيله بمعزل عن الآخر، ولذلك يجدون أمانهم الحقيقي في الدولار والدرهم، والجنيه، والمنزل، والسيارة، والشهادة الجامعية، وما يحيطون أنفسهم به من مظاهر كاذبة توفر لهم أمان كاذب في مستقبل غير مأمون العواقب، ومع أناس غير مأمونين الجانب.

ذلك المجتمع الذي تخيم عليه تلك السمات لا يمكن وصفه أبدًا بالمجتمع السوي، وهو ما تحدث عنه إيريك فروم في كتابه (المجتمع السوي) الذي وصف فيه المجتمع الغربي على وجه الخصوص بأنه مجتمع يعاني من البارانويا والتدمرية وليس أعجب من ذلك سلوكه "الاقتصادي الذي يكون فيه المحصول الجيد على الخصوص كارثة اقتصادية، فنحن نضع القيود على بعض انتاجنا الزراعي من أجل (تثبيت السوق[150]) على الرغم من وجود ملايين من الناس الذين لا يملكون الأشياء التي نضع القيود عليها ذاتها، والذين هم في مسيس الاجة إليها . ويؤدي نظامنا الاقتصادي وظيفته حتى الآن بصورة حسنة جدًا، وأحد أسباب ذلك هو إننا ننفق مليارات الدولارات سنويًا على الأسلحة"[151] .

---

[150] تثبيت السوق: هي سياسة تتبعها الدول الغربية عندما يحدث لديها فائض في المحاصيل و المنتجات الضرورية كالقمح والالبان وغيرها فتقوم بإلقائها في البار أو اهدارها في الشوارع والطرقات، لان زيادة تلك المنتجات تؤدي ذلك بدوره لانخفاض سعر تلك المنتجات طبقًا لسياسات العرض والطلب مما يعني بالمحصلة قدرة الدول الفقيرة على شرائها وسد العجز لديها والقضاء على المجاعات وسوء التغذية وهو ما لا تريده الدول الكبرى لأن ذلك سيفقدها السيطرة على تلك الدول التي تمدها بالمعونات الاقتصادية المشروطة بسياسات اجتماعية وسياسية واقتصادية تعود بالنفع على تلك الدول وما كان للعالم الغربي أن يحصل أسباب الثراء المادي إلا بتلك الطريقة نظرًا لفقر موارده، لذلك يستغل هذه السياسة(تثبت السوق) ومعها تجويع العالم الفقير الذي يعاني من الجفاف ويفرض على ظروف كثيرة تبقيه في أتون التخلف والاستبداد حتى يستطيع السيطرة عليه ومن ثم على مقدراته الاقتصادية وتحويل بوصلته الاجتماعية والثقافية، فيما يعرف بالغزو الثقافي.

[151] المجتمع السوي-فروم-ص104

وربما يكون أفضل توصيف لهذا المجتمع هو مجتمع مدينة اليوتروبيا وتعني (طلاقة الحركة)، فهذه المدينة التي ابتكرها كالفينو كحل للمتأففين من ذلك المجتمع ومن تلك الحياة ككل ليذهبوا إليها.

ففي يوتروبيا كل شيء متاح، ففيها تستطيع أن تصنع حياة جديدة، و تعمل بوظيفة جديدة، وتتخذ لك عائلة جديدة، ومنزل جديد، زوجة جديدة، وأصدقاء جدد، لم يتصور كالفينو أن كثير من أروقة المجتمعات الحديثة أصبحت كمدينته المتخيلة يوتروبيا؛ فهنا تمل الناس سريعًا أيضًا، وقد تآلفوا جميعًا على العيش في جدة دائمة؛ فالوظائف لم تعد دائمة كما في السابق فأنت دائمًا في سباق محموم كي تطور من نفسك، وتصقل قدراتك، وتنمي مواهبك، وتزيد في تعليمك، ودراستك وترسم ملامح شخصيتك، وفي أحيانًا كثيرة تسعى للتخلص من ملامحك القديمة حتى تستطيع البقاء في وظيفتك فضلًا عن الحصول على وظيفة جديدة.

فأرباب العمل في مجتمعنا الحديث أهدافهم واضحة ومعلنة (الربح ثم الربح) وفي سبيل ذلك الربح فإن (البزنس هو البزنس)، ذلك البزنس المتفلت من كل شرط أخلاقي، ومن كل تراحم مجتمعي، ففيه تكون شروط الموظف المقبول منحوتة لما يطلبه العميل لا ما يتطلب العمل؛ ولذلك تجد كثيرًا كلمة (حسنة المظهر) مصحوبة في العديد من إعلانات التوظيف والجميع يفهم مغزاها دون الحاجة لشرحها!

ذلك السعي المحموم في فلك البحث عن وظيفة ما هو إلا إحدى صور الحياة التي طبعها منطق السعي اللاهث دون القدرة على التقاط النفس، والسرعة المحمومة خشية فوات الأوان دون التوقف لمعرفة ما هو الأوان أصًلا، وما الذي سيفوتنا لو توقفنا وتبينا الطريق وصحته؟

والحياة ومغزاها؟

والإنسان وطبيعته؟

والوظيفة ومنطقها؟

والأسرة وقواعدها؟

والمجتمع وأسسه؟

وأنا كإنسان وما أحتاجه؟

لو توقفنا فقط وتسألنا لأدركنا أن هلاكنا المحض هو في ذلك السعي الحثيث دون توقف، دون مسائلة الذات عن ما تريد، وعن ما ينفعها، وعن سبل صلاحها وخلاصها.

نجح المجتمع الاستهلاكي الحديث في جعلنا مثله، إنسان الساعة الذي يموت سريعًا ولا يبقي طويلًا، ليس الموت بعناه الفسيولوجي بالطبع، وإنما بالمعني الهوياتي وبالمعنى الإنساني، فإنسان لا يستقر في وظيفة طويلًا، ولا تحتويه أسرة تحبه، ولا يحمل همًا ومسؤولية يسعى ورائها، ولا يمتلك غاية من وجوده، ولا قضية يقوم في سبيلها، ولا حقيقة يسعى ورائها، ولا مجتمع يوفر له الأمان بعناه الشامل؛ لهو إنسان فقد شرط وجوده الإنساني؛ فأصبح يحذو حذو المنتجات التي يقتنيها، فهو سريع التأقلم ولكن لوقت قصير لأنه ملول، فدائمًا تجد له أصدقاء جدد وتنفك عرى الترابط القديم باستمرار، وهو لا يثبت في علاقة أيًا كان نوعها فهو دائمًا يسعي للتحرر من العلاقات سريعًا، فعلاقاته مع الأشخاص في أسرته الذين يسعى كل منهم بدوره للحفاظ على مسافات بعيدة كي لا يقتحمها الآخر فيفسد ذلك من طبيعة العلاقات الراكدة، مثلها مثل السلع التي إن وجدت على الرف كثيرًا فهي سلع راكدة ملها الناس أو فشلت في إقناعهم باقتنائها.

وهو إنسان يتأقلم سريعًا مع الهويات المختلفة والمتضاربة في وقت واحد حسبما يملي عليه الجو العام، فهو أحيانًا إسلامي متدين ترى عليه سيماء الطهر والنقاء، ثم لم يلبث أن يتحول لفرعوني يفاخر بتراث الآباء والأجداد والحضارة التي ألهمت العالم، وفي وقت آخر هو ذاته ليبرالي متحرر يجمع في جعبته أفكار شتى ونحل مختلفة عن سابقتها، بل وينعت الفائت كله بنعوت الازدراء والسفه!

ذلك الإنسان الهائم الذي لا تجد له هوية محددة تستطيع أن تنسبه إليها، ولا قضية واحدة يستمر في الدفاع عنها؛ هو إنسان حديث بامتياز نُحتت

روحه ونفسه في ظل مجتمعنا المعاصر الذي يقيم معوله على النفس الإنسانية فيحفر فيها عميقًا حتى تشبهه ويشبهها .

والحقيقة أن الكثير من الناس ولا سيما في مجتمعاتنا العربية التي تأتي دومًا متخلفة عن ركب ما يحدث في العالم المعاصر- وهذا من سعدها- لم يألف الكثير منها هذا النمط من الحياة السريعة المتقلبة التي سِمتها الحركة الدائبة، ولذلك فهذا النمط يعيش على هامش المرحلة، وهم للأسف لا يعيشون على الهامش بوعي منهم بخطورة الانخراط في تلك اللعبة الدوارة التي تفقد المرء اتزانه ومنطقيته، فهم يرون أنفسهم خارج التاريخ، وأن الحياة قد لفظتهم، و إنهم أصحاب الحظ التعس الذي لم يفتأ ويلاحقهم أينما ذهبوا؛ فهم للأسف لا يستطيعون التلون في مواقف الحياة المختلفة، ويفقدون القدرة على القفز السريع على الطريق عندما تطول الرحلة وتصبح شاقة ومضنية، ولا يتمتعون بكياسة تبديل الخيارات والمواقف في اللحظات الحرجة، ولديهم ذاكرة قوية تخبرهم دومًا بجملة من الالتزامات، والقناعات، والأوامر والنواهي التي تدفعهم في طريق غير معبد، لذلك هم فاشلون لأنهم أصحاب ضمير حي!.

الحياة العارية ومستقبل الإنسان

إن الفراغ والعدم المستبطن داخل النسق الحضاري الغربي ينعكس في النهاية خواءً على النفس البشرية، فيفرغها من إنسانيتها، لذلك لا نعجب من انتشار ظواهر لا عقلانية تحط من قيمة المرء لتسقط به في مدارك البهيمية، كتشويه الأجساد، والزواج من دمى السيلكون، وانتشار الشذوذ، ، و انتشار جماعات الأيمو التي باتت دول كروسيا تحاربها لتفشي خطرها، أو حتى الهروب تمامًا من مجتمع دمر روح الإنسان وقضى عليها كجماعات الهيبيز وغيرها من الجماعات التي تحاول الهروب من واقع لا آدمي خلفه نظام عالمي يظهر الديمقراطية\الحرية ويبطن الاستبداد\ القهر بمعناه النفسي\ الروحي.

فبعدما أعلن الإنسان الحديث الحرب على الإله، والإنسان، نجده يسعى لتفريغ المحيط الإنساني من المعنى، و الفن، والجمال ليحيله إلى صفحات فارغة في صالات عرض طويلة يتظاهر أمامها الجمهور الذي لا يفقه شيئًا بالعمق المستبطن داخل العمل الفني الفارغ من الفن ومن العمل على حدِ سواء.

فهم عواقب سلب المحتوى في الفن وغيره، وتفريغه من المعنى الانساني هو هدم لشعور ذلك الإنسان، وسلب لروحه، وقضاءً على هويته، وتفكيكًا للثقافة باعتبارها منظورًا لرؤية العالم والفن مترجمًا لها، والفنان معبرا عنها.

وتكمن وظيفة الشعراء والفنانين في قدرتهم على التعبير، وبذلك يساهمون في حفظ التراث البشري من الضياع، ونشره كثقافة للعالم لإثراء عملية الترقي في السلم الحضاري نحو ازدهار النفس الانسانية.

وكان الفن في العصور الغابرة يمثل المعايير المثلى للجمال، والرقي، والأدب والذي يستقي منها الناس قواعد رفيعة للحياة، وآدابها، وخبرتها، وذلك لارتباط الفن بالحياة الاجتماعية ومحاولة البحث عن كل ما هو حسن وجميل فيها.

ثم ارتبط الفن بالأخلاق لاحتوائه على الجمال والحسن المفعمين بحس الفضيلة الإنسانية؛ لذلك كان مفهوم الفن عند أفلاطون وسيلة للترقي وبذلك "رفض بشكل قاطع الفنون التي لا تحث على الفضيلة وتفسد العقول، لأنها يجب أن تطبع بصورة الخير[152]" ، ولذلك يعد الفن الذي يسعى لتجسيد فساد الواقع ورذائله خاليًا من المعنى، ومحرضًا على الفساد والانحطاط أكثر فأكثر ؛لأن قيمة الفن هي تقديم المثال القيمي الذي يجب الاقتداء به، لا نقل رذائل الواقع ومصائبه التي يعايشها الناس بالفعل!

فقد كان الفن على مدار التاريخ يُقدر "لأنه يبث في النفوس معتقدات دينية، أو لأنه يجعل الناس أفضل من الوجهة الأخلاقية، أو لأنه مصدر من مصادر المعرفة"[153].

ومع الحداثة فصل الفن كغيره عن الفضيلة والأخلاق باعتبار أن العقل هو الذي يحكم ما الصواب وما الخطأ، لتدخل الأخلاق مكبلة تحت حكم العقل الذي حكم بميوعتها؛ فلم تعد كما السابق تُعنى بالصواب، والخطأ، والفضيلة وإنما أصبحت وظيفتها كمحسن يضاف لأي فعل يرتضيه العقل.

ولأن الأخلاق بحسب سانتيانا هي سليلة الدين الذي أُعلن الحرب عليه وعلى كل سلالته منذ زمن ليس ببعيد، وأن أي مطالبة بأي قيم روحية متجاوزة للإنسان\ المادة هي من قبيل الاستبداد والتسلط، فإن الحرية الحقيقية تكمن في الانعتاق الكلي والتام؛ فيقول "أن الذى حدا بهم إلى هذا هو المطالب القاسية التي فرضها عليهم دفاعهم عن الدين، رغم أنه يكفى أن يستنشقوا هواء الربيع، أو يتأملوا إنسانا جميل الخِلْقة فينصرفوا عن موقفهم هذا، ولكن طباعهم الخلقية الصارمة، وخيالهم

---

[152] جعفر الشكري، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال، ص: 16

[153] ستولينتيز، جيروم: النقد الفني ص 39.

المكبل، قد وقفتْ حائلا دون النظر في افتراضهم الأساسي بتصور الأخلاق محض وسيلة، وباعتبارها الثمن الذى يدفعه الإنسان لأنه لم يتكيف مع البيئة، أو أنها النتيجة التي نهضت على خطيئة الإنسان الأولى Origin Sin وعدم كمال تكيفه. فإذا أزلنا الخطر، والألم وكل ما يثير الشفقة، فإن الحاجة للأخلاق سوف تختفى، وعندئذ يكون نهى الإنسان عن فعل شيء ما من قبيل التسلط.[154]

وإذا كان مفهوم الفن عند هيجل يتمثل في المضمون الروحي للنفس الإنسانية التي تعبر عنه في شكل محسوس فإن عالم يصبح فيه الفن انعكاسًا للفراغ الكامن في العمل؛ ما هو إلا تعبير حقيقي عن الفراغ الروحي الكامن في نفس الإنسان الحديث.

هذا الفراغ الذي أصبح يتمدد بشكل مقلق ليسطوا على كافة مساحات الحياة الإنسانية، ويستولي على كافة المعاني التي تؤطر لحياة مفعمة بالأخلاق التي تضفي المعنى على الإنسانية ينذر بأخطار كارثية تقوض معنى الإنسان ذاته.

فالإنسان المحصور بين ماض لا ينتمي إليه بنقمته على التراث، وحربة على التقاليد، وتفكيكه للأعراف، وانسلاخه من الدين، وبين مستقبل شعاره الأساسي اللايقين في زمن يسير نحو الجدة والتغيير بوتيرة متسارعة عصية على الفهم، وفي مساحات فوضوية عصية على ترتيبها بشكل منطقي ليخرج منها الإنسان في النهاية بأفكار غير واضحة على أرضٍ غير ثابتة، سيسقط حتمًا أمام أول عثرات الطريق، وأهواله ومفاجآته.

---

[154] Santayana, G: The Sense of Beauty, op. Cit., P. 20"

الأمان الوجودي

يعرف علماء الانطولوجيا الأمن الوجودي في أبسط معانيه بأنه قدرة المرء على إعطاء معنى لحياته، وما يعني ذلك من تصور المرء لقيمته في الوجود، وإدراكه لحدود إمكاناته وخرائط واقعه، والمساحات المختلفة التي يستطيع العمل فيها، وكيفية التعاطي مع كل ذلك طبقًا لأطر وقواعد محددة.

وهذا يعني بالضرورة أن يكون لدى المرء تصور واضح عن أهميته كإنسان، وقيمة سعيه في العمل النافع لخدمة نفسه ومحيطه؛ وهنا تكمن الإشكالية التي حدثت في تصورات الإنسان المعاصر لفكرة الأمن الوجودي، من تمحوره حول ذاته، واختزاله الحياة لتحصيل الإمكانات المادية، وإحاطة نفسه بها، وتحويل معنى الحياة لنوع من الظهور بمظاهر النجاح المادي والشكلي، دون فهم المغزى الأساسي للحياة نفسها.

فعلى سبيل المثال يذكر عالم النفس الشهير ماسلو في هرمه عن الاحتياجات الإنسانية (الحاجة للأمان) ويحصرها في الأمان المادي، و الأمان الوظيفي، والأمان الجسدي وأمن الممتلكات ...إلخ، وهنا تكمن الإشكالية التي بُني عليها تصور الإنسان الحديث الذي أوهمته الحداثة وروادها أنه في مأمن ما دام محاطًا بذلك السياج المادي الذي يوفر له احتياجاته من مأكل ومشرب ومتع لا متناهية، وأغفل القيمة الحقيقية للأمان الوجودي؛ وهو القيمة والهدف من الحياة، لذلك لا عجب أن تكون أعلى معدلات الانتحار في أعلى الدول دخلاً ورفاهية في العالم كالسويد والدنمارك، فماذا سيستفيد المرء من الحياة إن كان قد حقق في ظل وقت قصير جميع المتع الممكنة؟!

فكما يقول فروم أن "بوسع الإنسان أن يستجيب للتناقضات التاريخية بإلغائها من خلال عمله؛ ولكنه لا يستطيع إلغاء الانقسامات الوجودية، برغم إنه يستطيع أن يستجيب لها بطرق مختلفة. فيمكنه أن يهدئ ذهنه بالأيدولوجيات المسكنة والتوفيقية. ويستطيع أن يحاول الهروب من اضطرابه الداخلي بنشاط لا ينقطع في اللذة أو العمل. وقد يحاول إلغاء حريته وتحويل نفسه إلى أداة القوى التي خارج ذاته، غامسًا ذاته فيها، ولكنه يظل ساخطًا، وقلقًا، ومضطربًا[155].

فإذا غيب نفسه ردحًا من الزمن تحت تأثير مسكنات عدة؛ فإنها لم تلبث أن تزول مع ظهور أول ألم، مثيرة سؤالًا مؤرقًا؛ ما الذي يدفعني لتحمل أقل القليل من الألم ما دام الأمر خاليًا من المعنى؟

ولكننا حتى وإن تغافلنا عن أصل الفكرة الفلسفية المتمحورة حول المادة، وسلمنا بأن الأمن الوجودي سيتحقق حتمًا عندما يحقق المرء مدخولًا ماديًا مناسبًا، ويمتلك سكنًا آمنًا، ويحصل على وظيفة مناسبة تحقق له طموحه، فهل في ظل عصرنا الراهن بعدما انسحبت دولة الرعاية - وخلفت ورائها المستهلكين\المواطنين سابقًا فريسة سهلة للسوق- من السهل تحقيق مثل تلك المتطلبات التي باتت من حقوق الإنسان طبقًا لمفاهيم الأمم المتحضرة التي وضعتها ؟!

ورغم ذلك فإن تلك الصورة الذهنية التي تشكلت لدى إنسان العصر الحديث جعلته يسعى في الطريق الذي رسمه له السوق محاولًا ملء ذلك الفراغ الوجودي عبر آليات مختلفة ومتجددة دائمًا، ولأن السوق في ظل مجتمعاتنا الراهنة هو صاحب الدور الرئيس في ترميم إنسان العصر المتهالك؛ ذلك الإنسان الذي أوهمه السوق- القائم على أسس مادية بحتة منبثقة من أيدولوجيات إلحادية تتمركز حول المادية المفرطة، وتغط الطرف عن كل ما هو غير محسوس-بأنه مجرد مادة مفرغة من أي قيمة أخلاقية أو روحية، وأن سبيله الأوحد لجلب ألوان المتعة اللامتناهية في أيدي سماسرة السوق ومصممو.

---

[155] (الانسان من اجل ذاته، ص79)

ولأن لمنتجات السوق الحديثة و المتجددة دائمًا والغير قابلة لإعادة الاستخدام مرة تلو الأخرى أثمان باهظة؛ كان على ذلك الإنسان البائس أن يدور مع عجلة السوق وهو مغمض العينين عن كل مساوئه وسوءاته، ناسيًا أو متناسيًا كافة القيم التي تمنح الإنسان المعنى كونه إنسانًا، وحتى يُحصل القيمة المادية لمنتجات السوق المتهالكة والتي لا تتوقف عن الإصدار؛ ليكتشف بعد حين أن تكديس المنتجات مع الدوران في فلك تلك الآلة المرعبة ورثه آلام لا تنتهي، وأرهق روحه، وحطم كيانه، للحد الذي جعله كائنًا أجوف أشبه كثيرًا بزومبي حي؛ وحينها أدرك سماسرة السوق مصاب ذلك الزومبي، وآلامه الوجودية التي لا تنتهي فأتوا له بالحل السحري كعادتهم في علاج الأزمات.

تلك الحلول التي ينتجها السوق تكون دامًا وأبدًا لها خصائص واحدة وسمات واضحة تجعلك تجزم يقينًا إنها من انتاجه الفريد؛ تلك الحلول التي تتميز بأنها سريعة، وقوية المفعول، وخالية من المسؤولية، ومصممة للاستهلاك الفردي فقط.

وهي في ذات الوقت لحظية، مؤقتة جدًا، ولا تلبث أن تخلف آثاراً واضحة لا تنمحي غالبًا، وهي آثار سلبية ولكن ذلك الإنسان الذي طبعه السوق بالدوران المستمر، وسلب منه القدرة على التأمل والتفكير الرصين غالبا لا يلتفت لآثار تلك النشوة المؤقتة.

ولأن السوق طبع الإنسان الحديث بالفردية المطلقة، وفكك جماعته العرقية، ولحمته الاجتماعية، وحتى عائلته وأسرته، وكان يعلم يقينًا-أي السوق- أن ذلك الإنسان مجبول على الأنس والاجتماع، ومقاومة كل ألوان العزلة والتوحش؛ فكان السبيل إلى ذلك هو الصراع المحموم لاقتناء منتجات السوق الحديثة؛ تلك التي تقي ذلك الإنسان المغترب من توحش الفردية، وتعطيه معنًا وهميًا للانضمام لجماعة المستهلكين لتصبح التراتبية الاجتماعية الحديثة تلك التي يصنف إنسان العصر الحديث على أساسها هي: ماركات منتجاته، وقيمتها المادية مما يعني بالمحصلة تفريغه كإنسان من كل قيمة عليا متجاوزة للقيمة المادية للأشياء التي يقتنيها.

فإن عجز عن الاقتناء في يوم من الأيام لأن الزمان غادر، وتقلبات الدهر مريرة؛ أصبح بلا قيمة على الإطلاق؛ فقيمة إنسان العصر الحديث ليست في ذاته، بل بما يملك، وبما يحوز.

فإن لم يستطع أن يحوز شيئًا ماديًا ثمينًا فلا بأس بأن يتحول هو ذاته إلى سلعة جالبة للمال؛ ففي مجتمع يقاس فيه كل شيء بقيمته المادية يقع جسد الإنسان في شرك فلسفة التسليع، ويضحي مشروعها المربح، وتقام لأجله وعليه صناعات كبرى هدفها الربح من خلاله؛ فتتحول الملابس من وسيلة لستر الجسد وحفظ عورته إلى موضوع للتفاخر الطبقي، وإظهار للمفاتن، و وسيلة لجذب الأنظار حول تلك العورات التي كانت من المفترض أن تغطيها الملابس وتسترها!

ويتحول جسد الإنسان من وسيلة للارتقاء عن عالم المادة إلى اختزاله في بعده البيولوجي فحسب؛ ليصبح مادة للبيع والشراء إن أتقن مهارات معينة كما يحدث للاعبين (الموهوبين) ليطرحوا في مزادات علنية ويفوز بهم من يدفع أكثر، ليقامر بهم في النهاية أما حشود المفترجين كما كان يحدث في مصارعات العبيد إبان العصر الروماني.

وإن لم يتقن هذا الجسد فعل الشيء الكثير الذي يؤهله لأن يكون موضوعًا للعرض، وبالتالي جذب العديد من المتفرجين فلا بأس من تعريته بالكامل، وعرضه لصناعة الإباحية فحينها سيجذب الكثير من الأنظار التي تتشوق يومًيا لأجساد عارية جديدة.

ولأن تعرية الأجساد بوتيرة متسارعة أخلت بميزان العرض والطلب؛ فنقص الثمن الذي يُدفع للجسد عما قبل، فلا بأس من وضع معايير تسويقية محددة لجمال تلك الأجساد، وحينها تنشط صناعات الطب التجميلي، ومنتجات العناية بالجسد، لا لأجل العناية بذلك الجسد الذي هو هبة الله للإنسان، والمحل الوارد عليه التكليف؛ وإنما كموضوع للتسليع، وكمنتج للاستهلاك.

وحين يتم اختزال الإنسان في بعده المادي- أي الجسد- وتحويله إلى سلعة تارة، ومستهلك تارة أخرى فلا عجب أن تتحول المعافاة إلى تجارة

ضخمة مريعة، ويتحول ذلك الجسد إلى بعض الممتلكات التي تحوزها القوى التي يمكنها فرض سيطرتها على تلك الأجساد وترويضها، وتدجينها، ورقابتها، والاشراف على دمجها في منظومات معينة لصالح أهداف معينة، ومن ثم تستبيحها بالقدر الذي تشاء، وبالصورة التي تريد ويدخل في ذلك أيضاً حق اهلاكها، واماتتها، وتعذيبها، وانتهاك حرمتها.

ولذلك يصبح الدواء سلعة يروج لها كباقي السلع الاستهلاكية، لا باعتباره منتجًا طارئا، ومحددًا بدقة لحالات بعينها، وإنما باعتباره منتجًا استهلاكيًا يجب تسويقه بشتى الطرق والوسائل حتى ولو بإتيان ما يستوجب بيعه-أي بنشر المرض-.

وتصبح الرعاية الصحية التي تستبقي حق الحياة الآمنة منال صعب التحقيق في ظل مجتمع يعاني من عدم السواء ولا يدرك ذلك.

وفي ظل ما يسمى جدلًا بمجتمع الرفاة الغربي الذي يوفر أكبر قدر من الآمال المادية، و يحقق فيه المرء جميع ما ترنو إليه نفسه، ويجمع في عربة التسوق جميع ما يشتهيه من المنتجات المادية ويكدسها؛ فإن التعاسة ما تلبث أن تحاوطه من جديد؛ لأنه بينما كان يلبي حاجات الجسد لم يغفل حاجات الروح والعقل فحسب، وإنما كل ما فعله إنه أتخم هذا الجسد وأنهكه كالجوعان الذي أكل جميع ما وجده من طعام حتى ضاقت نفسه، وسكن جسمه، وفقد حركته، ولذلك يقول ألان إيهرنبرغ " إن معظم الآلام الإنسانية كما جادل على نحو مقنع، أقرب اليوم إلى الصدور عن فائض في الإمكانات، بدلًا من زيادة في الموانع كما كان الحال في الماضي[156]"

فالحياة حسب مذهب اللذة الراديكالي هي مجموع اللذات التي تحقق أقصي قدر من السعادة الحسية، وبذلك يكونوا قد غفلوا عن أن كلّ مجتمع توجد فيه العلاقات السلعية ينطوي على خميرة تدمير للنظام السياسي والأخلاقي[157]"

---

[156] ص14 الحب السائل

[157] أخلاقنا: في الحاجة لفلسفة اخلاق بديلة. ص106، ادريس هاني.

الصحة العقلية للإنسان الحديث

طفت أزمة الصحة العقلية على السطح بحلول الألفية الجديدة، ولا تزال الأمم المتحدة تدق ناقوس الخطر حول انهيار معدلات الصحة العقلية باعتبارها حق من حقوق الإنسان الرئيسية.

وتعرف الصحة العقلية على إنها صحة الأفكار، والمشاعر، والسلوكيات، بما يؤثر على المرء في قراراته، وعلاقته الشخصية، وتفاعله في المجتمع.

وقد "أثارت منظمة الصحة العالمية عام 2001 ضجة حين تنبأت بأن اضطرابات الصحة العقلية قد تصبح السبب الأكبر في الإعاقة و الموت في العالم بحلول 2020، وتشير التقديرات حاليًا بأن أكثر من ثلث البالغين في أوروبا وأمريكا يعانون مشاكل في صحتهم العقلية... والتكاليف الاقتصادية التي تفرضها هذه المشاكل هائلة؛ حيث تقدر تكلفة اضطرابات الصحة العقلية بنحو 3-4% من إجمالي الناتج المحلي في أوروبا وأمريكا الشمالية. في حين تبلغ التكلفة الإجمالية لهذه الاضطرابات في بريطانيا نحو 110 مليار جنيه استرليني سنويًا، هذه التكلفة تفوق بكثير التكلفة الاقتصادية للجريمة ، ومن المتوقع أن يتضاعف هذا الرقم بحلول السنوات العشرين المقبلة[158]"

ومعايير الصحة العقلية طبقًا لسوليفان هي " الحاجة إلى الأمن الشخصي- أي التحرر من القلق، والحاجة إلى الحميمية- أي إلى الاشتراك مع شخص واحد على الأقل، والحاجة إلى الإشباع الشهواني الذي يرتبط بالنشاط التناسلي طلبًا لرعشة اللذة[159]"

---

[158] صناعة السعادة، ص103

[159] المجتمع السوي، ص309

وطبقًا لسوليفان وغيره من علماء النفس فإن توافر الاحتياجات المادية للإنسان ستجعله يعاني من السواء العقلي، وهو ذات المذهب الذي ينتهجه الغرب في التعامل مع الإنسان باعتباره ذا بعد واحد، ولكن الاحصائيات تكذب هذا الكلام، فقد ترافق التقدم الاقتصادي والمكاسب التي تم تحقيقها في طول العمر الكلي مع ارتفاع معدلات الامراض الاجتماعية، والنفسية، والسلوكية، والتي أصبحت جزءًا من مكونات الحياة اليومية في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية[160]"

تلك الدول التي تتربع على قمة الهرم الاقتصادي تغرق في ذات الوقت في أوحال البؤس الإنساني الذي أوصل معظم شعبها إلى فقدان اتزانه العقلي، مما يعني أن علاجهم للمشكلة لم يكن صائبًا وهو ما أوضحه خبير حقوق الإنسان في الأمم المتحدة براس بقوله " الوضع الراهن في مجال رعاية الصحة العقلية تجاهل السياق الاجتماعي أو السياسي أو الوجودي الذي يساهم في انتشار مشاعر الحزن والقلق والخوف وغيرها من مظاهر الاضطراب العقلي"[161].

وإذا عدنا لتعريف الصحة العقلية ابتداءً لوجدنا أن المشكلة تكمن بتحليل هذا التعريف، فكثير من الأفكار التي صاغت عقول الأجيال الحديثة حول الحق في الحياة على فردوس أرضي مفتقد، وتصوير تلك السعادة بمعايير معينة تبدأ من الاستهلاك وتنتهي بالتسلية والإلهاء، كان السبب الرئيس في تكوين طموحات وتوقعات كبري حطمتها الحياة مع أول اختباراتها.

فكثير من العلماء يرون أن الأمن مرادف للصحة العقلية، وسمة الحياة الطبيعية أن نعاني دومًا من الخطر المتمثل في خيارتنا التي تتأرجح دومًا بين الصواب والخطأ، أو بين ما يحقق مصلحتنا وما يضرها، وهو بالطبع مفضي إلى أن الحياة تتأرجح بين العيش في أمن بعض الوقت، ومقاومة الخوف الناشئ عن تقلبات الزمن، وأخطائنا في خياراتنا في بعضه الآخر

---

[160] الصحة العقلية في العالم، ص13

[161] https://news.un.org/ar/story/2020/07/1057811

وهو معنى كبير يتضمن تكليف الإنسان، ومعنى حريته و مسؤوليته عن خياراته .

وتصوير الحياة الصحية للنفس الإنسانية إنها أمان دائم، وتقلب طوال الوقت في رفاهيات الدنيا لهو تصور حالم يناقضه نفس الإنسان الناقصة المخطئة بطبيعتها، وتقلبات الأيام الغادرة .

إن هذا التصوير الحالم لما يجب أن يكون عليه العالم من حولنا حتى نصبح أسوياء وأصحاء نفسيًا هو السبيل الوحيد نحو المرض والخواء، والهشاشة النفسية في حقيقية الأمر.

فالصحة العقلية لا تعني كما يصورها علماء الغرب توفير أقصى درجات الأمان من الأمراض، والمشكلات الحياتية، وضمان سلامة الطرق السريعة، والمنزل الآمن الرحب، والمدخول المناسب لحياة مرفهة....إلخ، وإنما تكمن الصحة النفسية الحقيقية في قدرة المرء على التعامل بحكمة ومنطق، واتزان عاطفي، وثبات انفعالي مع خطوب الحياة وأزماتها، والخروج منها بالدروس المستفادة التي تكون زادًا لنا في طريق الحياة المليء بالمعاناة والمشقة.

قال الله تعالى " لقد خلقنا الإنسان في كبد"، أي معاناه ومدافعة، منذ تكونه في الرحم، مرورًا في مكابدته الألم الناشئ عن المرض وحوادث الطبيعة ،والتدرج في العمر وما يتبعه من عجز، هرم، وشباب، وشيخوخة ولكل مرحلة منها معاناتها المختلفة، وليس انتهاءً بخطوب الحياة المريرة التي تحيط بنا نحن البشر نظرًا لطبيعة الدنيا المتقلبة، ولطبيعتنا نحن الضعيفة والفانية مهما ادعينا من قوة وسيطرة.

وقد كانت سير الأنبياء والصالحين خط مستقيم من الألم والمكابدة والمعاناة، ورغم ذلك هم أكثر الناس سواءً، وأفضلهم عقلًا، وأكثرهم حكمةً، وأعلاهم منزلة، فالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ولد يتمًا، ثم ماتت أمه وهو ابن ست سنين، وكفله جده الذي توفى بعد ذلك بزمن يسير،، فكفله عمه أبو طالب، ولضيق ذات اليد خرج يعمل في الرعي وهو ابن ثماني سنين حتى يعول نفسه ويكفي عمه نفقته، واستمر به

الحال هكذا حتى شب، فكان خيرة شباب مكة حتى لقب بالصادق الأمين لحسن سريرته، وصفاء طويته، وسلامة نفسه، وكمال عقله، ولم تؤثر فيه كل تلك الخطوب فتصيبه بالعقد التي تفقده اتزانه، وتقضي على سواءه النفسي.

أما في أيامنا تلك ما إن يتعرض الإنسان لفقدان وظيفة، أو فشل علاقة عاطفية، أو فقدان أحد الاشخاص حتى يهجر العالم، ويصاب بالاكتئاب وقد يقدم على الانتحار؛ وهو صادق في مشاعره تلك بلا ريب، وهي ثقيلة الوقع على نفسه لا شك، ولكن سبب تلك المشاعر الأليمة المتضخمة ناتجة في حقيقة الأمر عن فهم خاطئ لتلك الحياة، وتصور حالم لمستقبل صورته لنا هوليود؛ لنغرق في سكرته للحد الذي أنسانا الواقع وطبيعته، ومع أول صدمة معه اكتشفنا مصابنا الجلل، وكم كانت الصورة مضللة، وكم كان الواقع أليمًا، وبدلاً من اليقظة ومحاولة التماهي مع الواقع كما هو اسقطنا دفاعتنا، وصدقنا الكذبة، واردنا العيش فيها زمنًا آخر!

ذلك الحلم المسكر الذي يعرض أمام أعيننا صباح مساء، سواء في هوليود السينمائية، أو هوليود المشاهير ورواد المواقع المختلفة الذين أضحى ربحهم الحقيقي هو بيع حياة مصطنعة لجيل من العاطلين يلهثون خلف حيوات مثالية لا كد فيها ولا تعب.

فالمشكلة الحقيقية ليست إذاً في خطوب الزمان، وتقلبات الأحوال، وإنما في الشخصية الهشة، الهلوعة للإنسان الحديث التي تخدشها النظرة، وتسقطها العثرة.

وكما قال المنفلوطي فالناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة من الطريق الذي ألفوه و اعتادوه فهم لا يصدقون أن قوماً فقراء متقشفين يعيشون في أرضٍ قفرةٍ جرداء منقطعة عن العالم بأجمعه قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريقة الفضيلة و البساطة .

فكثير من الناس اليوم يعانون الشقاء والتعاسة رغم كم الإمكانات المذهلة التي تحيطهم عما سبقهم من الأجيال ، وهذا يعني أن الانسان

الحديث يعاني الشقاء ليس لنقص الإمكانات، وإنما لخواء الروح، واختلال الفكر، وتشوه النفس.

وخواء الروح لا يعالج بإغراق النفس في الملاهي والمسكرات، ولا بتضييع الأوقات في عوالم الوهم البديلة حتى يهرب المرء من ذاته، وينسى فشله، ولا يواجه نفسه وقد قيل قديمًا " من أمضى يوماً من عمره في غير حقٍ قضاه، أو فرض أداه، أو مجدٍ أصله، أو حمد حصله، أو خيرٍ أسسه، أو علمٍ اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه"، فالنفس الفارغة خاوية، تورث صاحبها الغم والهم والنكد.

كما أن العمل كآلة بلا هدف ولا غاية سوى زيادة المدخول المادي يحطم الروح ويرهق النفس.

واختلال الفكر لا يعالج باللهاث خلف التيار، وإنما يعالج بتوجه تلك النفس إلى منهج خالقها التي أعلنت موته صراحة، فكان موتها هي على الحقيقة، ولم ينقذها كم السلع و الرفاهية المادية التي أغرقت نفسها فيها.

وما كان قوله تعالى "الهكم التكاثر" إلا توصيف لوضع عقلي يسيطر على الأمة؛ فتسقط في شرك الأشياء، وتختفي من صدور الرجال أصوات الأفكار، وذلك حين تكبر الزينة فينا؛ مثل خراب لا يشبع إلا من سقوطنا![162]

لذلك فإن السواء النفسي يكون بالاعتدال في الأمور كلها، فلم يخلقنا الله لنعمل كآلات طيلة اليوم، كي ننفق الأموال التي عملنا بها طيلة الوقت نفايات المصانع المتجددة ونعيد الكرة وهكذا دواليك، فهذا عبث مقيت، مثله مثل الفراغ المهلك.

وإنما الاعتدال في إعطاء النفس حقها بتزكيتها وعرضها على خالقها، والالتزام بمنهجه القويم كي تتهذب وينصلح حالها، و اعطاء الجسد حقه

---

[162] فقه بناء الإنسان في القرآن، ص173

من الراحة والطعام و الرياضة والنوم، وكل هذا لا يتأتى إلا بالعمل المتوازن المعتدل.

فمعيار الصحة العقلية والسواء النفسي لا يحتاج في حقيقة الأمر إلى كل هذا التعقيد، ولا إلى كل تلك النفقات والمختصين، وإنما يحتاج فقط إلى أن يستعيد ذلك الإنسان المغترب نفسه، وأن يحصل إنسانيته التي فقدها بين أروقة المولات والمصانع، وأن يستعيد قيمه التي أفقدتها له الشاشات وفلسفتها، وأن يستعيد واقعيته التي سلبتها منه هوليود وبوليود وأترابهما، وأن يعود ذلك الخليفة الراشد الذي يسعى للقيام بواجبه في إرساء منهج العدل الإلهي، وعمران الأرض حسب ذلك المنهج القويم.

تم بفضل الله 9\1\2022